

الدين .. والدجل
(٨)

السلفية .. والنبوة المدنسة

د. نور الدين أبو لحية

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب ـ من خلال الأدلة والوثائق الكثيرة ـ التصورات التي تحملها المدرسة السلفية عن النبوة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهي تصورات مستمدة من التراث الإسرائيلي الذي فسر به القرآن الكريم، وكتب به التاريخ، ووضعت على أساسه العقائد.

ولذلك، فقد كان لتصورات اليهود لأنبيائهم، وما ذكروه عنهم من انحرافات عقدية وأخلاقية تأثيره الكبير في المدرسة السلفية التي أجاز أئمتها الكبار الرواية عن بني إسرائيل، بل أجازوا الرجوع لكتب بني إسرائيل نفسها.

ولهذا نرى تصورات السلفية للنبوة تختلف عن التصورات التي ذكرها القرآن الكريم، والتي دل عليها العقل، ودل عليها معه الذوق السليم، والفطرة الطاهرة.

وهذا الكتاب يحاول بالبينات الواضحات، ومن خلال المصادر المعتمدة لدى المدرسة السلفية تبيين تلك الصورة المشوهة التي يحملونها عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

الدين والدجل

(8)

السلفية..

والنبوة المدنسة

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الأولى

1436 – 2015

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

نستطيع من خلال التأمل في أسباب التيه الذي حصل للبشرية من لدن آدم ﵇ إلى اليوم، وإلى آخر التاريخ، أن نجد سببا واحدا تختصر عنده الأسباب، وتجتمع عنده العلل.. وهذا السبب هو الإعراض عن النبوة، باعتبارها الحبل الممدود من الله إلى عباده، أو الواسطة التي يتصل الله من خلالها بعباده.

ذلك أنه عند الإعراض عن النبوة يدخل الهوى، ويدخل الشيطان، وتدخل أنانية الإنسان التي تصور له أنه يستطيع ـ وبمعزل عن خالقه ـ أن يدبر وجوده، ويقرر مصيره.. بل فوق ذلك تجعله يتصور أنه يستطيع أن يضع خارطة للوجود والقوانين التي تحكمه.

وللإعراض صور كثيرة.. أبرزها ما كان يفعله الملأ مع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من تكذيبهم وإيذائهم والكيد لهم والتنفير منهم.

ومنها تلك الخشونة، وذلك الجفاء الذي تعامل به أصحاب القلوب المريضة معهم، حتى لو لم ينكروا نبوتهم.

ومنها ــ وهو أخطرها ــ ذلك التشويه للنبوة، والتدنيس لقداستها، ليتحول النبي بموجب ذلك إلى إنسان عادي لا يختلف عن أي إنسان آخر.. وتصبح تلك الجوهرة المقدسة التي استطاع النبي من خلالها أن يكون أهلا لتواصل الله معه.. بل لجعله سفيرا من سفرائه.. جوهرة لا تختلف عن كل ما حولها من تراب وحجارة.. وتصبح تلك الشمس الممتلئة بالدفء والنور كوكبا خامدا لا حياة فيه، ولا شعاع يصدر منه.

وعندما نتأمل أكثر.. ونستعين في تأملنا بالقرآن الكريم.. يتوضح لنا أسباب كل هذه الإعراضات عن النبوة الظاهرة والباطنة.. أو ما اكتسى منها حلة المواجهة الصلبة، أو ما اكتسى منها حلة المواجهة الناعمة.

والسبب ـ كما يذكر القرآن الكريم ــ هو الإعراض عن السجود.. فإبليس أعرض عن السجود لآدم.. وهو يريد من ذرية آدم أن يعرضوا عن السجود للأنبياء.. حتى لا يبقى إبليس واحدا في إعراضه.

والسجود بالمفهوم القرآني لا يعني تلك الحركات التي نقوم بها في الصلاة.. وإنما يعني قبل ذلك الخضوع المطلق لله، ولمراد الله، ولاختيار الله.. فلا نتصرف مع الله.. ولا نقترح على الله.

وإبليس تجرأ، فاقترح على الله.. وراح يتهم آدم ﵇ بأنه ليس أهلا للسجود.. أو راح ـ على الحقيقة ــ يتهم الله بأنه لم

يحسن اختيار الخليفة.

ومن هنـا بـدأ الإعـراض عن النبـوة.. وكـان إبليس أول المعرضين.. وكان أيضا هو أول من عاهد الله على أن يضم إلى صفه أكبر عدد من أولاد هذا الخليفة الذي ابتلي به.

وهكذا كان في كل أمة من الأمة جميع أصناف المعرضين، الذين استنوا بسـنة إبليس في عـدم الخضـوع لاختيـار اللـه.. أو اتهام الله في اختياره.

وبما أن الشيطان لم ييـأس من هـذه الأمـة كمـا لم ييـأس من غيرها من الأمم.. وكما أنـه أوجـد في اليهوديـة والمسـيحية وكل الديانات من يشوه تلك الجواهر المقدسة.. فقد أوجــد في هذه الأمة هذا الصنف الخطير من الناس.

وليس من الصعب أن نكتشفه.. فكل شيء يدل عليه.

ومن باب تسمية الحقائق بأسمائها ـ بعيـدا عن كـل تزلـف ودبلوماسية ــ فـإن [السـلفية]، أو من يسـمون أنفسـهم [أهـل الحديث]، و[الفرقة الناجية] هم من مثل بجدارة دور هـذا النـوع من الإعراض عن النبوة.. وهو دور تهميشها وتدنيسها وتشـويهها والحط منها.

وهذا الكتاب محاولة للبرهنة على ذلك.. وقـد اعتمـدنا فيـه على المصـادر الـتي يعتبرهـا السـلفية، ويثنـون عليهـا، ويـدعون الأمة إلى الأخذ منها.. كما اعتمـدنا فيـه على التصـريحات الـتي يصرح بها أعلام هذه المدرسة قديمهم وحديثهم.

ولم نكن بحاجة لكل ذلك، لأن خطابهم وحده كاف للدلالــة على ذلك.. فهم وحدهم في هذه الأمـة من يحتقـر كـل مظـاهر التقـديس لرسـول اللـه ﷺ وتعظيمـه وتبجيلـه ومحاولـة الوفـاء ببعض جميله..

فهم ينكرون الاحتفال بميلاده، وكـل مناسـبة مرتبطـة بـه.. وهم ينكرون زيارة قبره الشريف، بل يعتبرون نفس نية الزيارة شركا بالله.. وهم ينكرون على كل شـاعر جـادت قريحتـه بحب رسول الله ﷺ، ويعتبرونه مشركا وكافرا وضالا.. بينما لا يقولون شيئا فيمن مدح الملوك والأمراء.. فهم لا يعتبرونه لا مشركا ولا ضالا.

وهكـذا لـو تأملنـا مـواقفهم المختلفـة من رسـول اللـه ﷺ نجدهم يقفون دائما على خط مختلف لخط سائر الأمة..

وهذا الموقف من رسول الله ﷺ هـو نفس الموقـف الـذي يقفونه من سـائر الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسـلام.. ولهـذا ملأوا دواوينهم الـتي يسـمونها كتب العقيـدة السـنية بمثـالب الأنبيـاء ومعاصـيهم.. بـل وكفـرهم.. لأنهم يخشـون أن يتعلـق النـاس بالأنبيـاء تعلقـا زائـدا يجـرهم إلى الشـرك.. أو يجعلهم يقومـون

بالسجود لذلك الكمال الذي وهبه الله لهم.

ولم يقتصر أمر السلفية والمنابع التي يستمدون منها على سفراء الله في الأرض من الأنبياء والرسل.. وإنما تعداه إلى سفرائه من الملائكة، وقد ذكرنا بتفصيل في كتابنا [السلفية.. والوثنية المقدسة] تلك الصور المشوهة التي يحملونها عن الملائكة عليهم السلام، واعتبار كبارهم ومقربيهم على هيئة أوعال وأسود وديوك، مع أن الله تعالى قال ـ على لسان نسوة مصر ـ: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31]، بل قال مقررا هذه الحقيقة العظيمة عند ذكره لجبريل ﷺ: ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ [النجم: 5، 6]

لكن السلفية لا يأبهون بما يقول القرآن الكريم.. فهم يحجرون التدبر في القرآن إلا على السلف.. أو بالأحرى على تلاميذ كعب الأحبار من السلف.

ولهذا نراهم يخالفون القرآن الكريم في صفات الأنبياء وخصائصهم وكمالاتهم وكون الله اختارهم، وهو أعلم باختياره، و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 124]

وبناء على هذا نراهم يدافعون عما يسمونه معاصي الأنبياء، ويستدلون لذلك بما ورثوه من سلفهم من روايات وأخبار تطعن فيهم وفي كمالاتهم.. كما قال ابن تيمية ـ أثناء رده على القائلين بالعصمة المطلقة للأنبياء ـ: (تبعهم في هذا الباب، بل كتب التفسير والحديث والآثار والزهد وأخبار السلف مشحونة عن الصحابة والتابعين بمثل ما دل عليه القرآن، وليس فيهم من حرف الآيات كتحريف هؤلاء، ولا من كذب بما في الأحاديث كتكذيب هؤلاء، ولا من قال هذا يمنع الوثوق، أو يوجب التنفير ونحو ذلك كما قال هؤلاء، بل أقوال هؤلاء الذين غلوا بجهل من الأقوال المبتدعة في الإسلام.. وهم قصدوا تعظيم الأنبياء بجهل كما قصدت النصارى تعظيم المسيح وأحبارهم ورهبانهم بجهل، فأشركوا بهم واتخذوهم أربابا من دون الله وأعرضوا عن اتباعهم فيما أمروهم به ونهوهم عنه)[1]

بل إن ابن تيمية وغيره من أبناء المدرسة السلفية يثنون الثناء العطر على كل الكتب التي تمتلئ بالقصص والأساطير، والتي تشوه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وترميهم بالعظائم، بل هم فوق ذلك يعتبرونها من كتب السنة، وأنها في هذا الموضوع بالذات أعرف بالأنبياء من كتب المنزهة، يقول ابن تيمية: (.. من أئمة أهل التفسير، الذين ينقلونها بالأسانيد المعروفة، كتفسير ابن جريج، وسعيد بن أبي عروبة، وعبد

1() منهاج السنة النبوية (2/ 435)

الرزاق، وعبد بن حميد، وأحمد، وإسحاق وتفسير بقي بن مخلد وابن جرير الطبري، ومحمد بن أسلم الطوسي، وابن أبي حاتم، وأبي بكر بن المنذر، وغيرهم من العلماء الأكابر، الذين لهم في الإسلام لسان صدق، وتفاسيرهم متضمنة للمنقولات التي يعتمد عليها في التفسير)(1)

وقال مدافعا عن الإسرائيليات الكثيرة الواردة في تلك الكتب، والتي شوهت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أيما تشويه: (ولهذا كان السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وغيرهم من أئمة المسلمين متفقين على ما دل عليه الكتاب والسنة من أحوال الأنبياء، لا يعرف عن أحد منهم القول بما أحدثته المعتزلة والرافضة ومن تبعهم في هذا الباب، بل كتب التفسير والحديث والآثار والزهد وأخبار السلف مشحونة عن الصحابة والتابعين بمثل ما دل عليه القرآن، وليس فيهم من حرف الآيات كتحريف هؤلاء، ولا من كذب بما في الأحاديث كتكذيب هؤلاء، ولا من قال هذا يمنع الوثوق، أو يوجب التنفير ونحو ذلك كما قال هؤلاء، بل أقوال هؤلاء الذين غلوا بجهل من الأقوال المبتدعة في الإسلام)(2)

وهكذا نرى ابن تيمية يعتبر الروايات المشوهة لجمال وعصمة الأنبياء سنة، في نفس الوقت الذي يعتبر فيه تنزيه الأنبياء والقول بطهارتهم تحريفا وبدعة.

ولهذا، فإنا كما قسمنا الأمة في كتاب [السلفية والوثنية المقدسة] إلى صنفين: المنزهة والمجسمة، فكذلك يمكن تصنيف الأمة في هذا المجال إلى صنفين: المصوبة والمخطئة.. أو القائلون بالعصمة المطلقة.. والقائلون بالتخطئة المطلقة.

وقد اعتمدنا في الأدلة التي نسوقها على التصريحات الكثيرة التي وردت من أعلام السلفية في القديم والحديث، بالإضافة للروايات التي يروونها، والتي يمكن تقسيمها إلى نوعين:

النوع الأول من الروايات:

وهي الروايات التي يصححونها، بل ينقلونها في كتبهم كحقائق مطلقة يبدعون جاحدها، ويتهمونه بالهرطقة والزندقة.. وهي التي نبدأ بها عادة عند مناقشاتنا معهم.

وحجتهم في هذه الروايات أنها وردت في الصحيحين أو في أحدهما أو في كتب السنن الأخرى.. أو أن فلانا من الناس صححها.

وهم يقصرون نظرهم على تلك التصحيحات، وينسون

1() منهاج السنة النبوية (7/ 179)

2() منهاج السنة النبوية (2/ 434)

المخاطر التي تحملها، والتي سننبه عليها في هذا الكتاب.

والطريقة التي يتعامل بها السلفية مع المخالف لهذا النوع من الروايات هو تلك الطريقة التي استعملوها مع المنزهة من رميهم بالتجهم.. وهنا يرمونه بالعقلانية والبدعة والزندقة..

ومن الأمثلة على ذلك موقف السلفية من الشيخ محمد الغزالي لرفضه حديث لطم موسى ﷺ لملك الموت، والذي رواه أبوه هريرة، ونصه: (إن ملك الموت كان يأتي الناس عيانا فأتى موسى فلطمه ففقأة عينه، فعرج ملك الموت فقال: يا رب! إن عبدك موسى فعل بي كذا وكذا ولولا كرامته عليك لشققت عليه فقال الله: ايت عبدي موسى فخيره بين أن يضع يده على متن ثور - فله بكل شعرة وارتها كفه سنة - وبين أن يموت الآن، فخيره فقال موسى: فما بعد ذلك؟ قال: الموت، قال: فالآن فشمه شمة فقبض روحه ورد الله عليه عينه، فكان بعد يأتي الناس في خفية)(1)

ولغرابة هذا الحديث، وتشويهه لصورة النبي موسى ﷺ، وتشويهه كذلك لصورة ملك الموت، بل تشويهه فوق ذلك للألوهية، وما يحمله من الدلالة على التجسيم، فقد وقف الشيخ محمد الغزالي موقف المنكر للحديث مثله مثل كل المنزهة والقائلين بعصمة الأنبياء، لكن هذا لم يعجب السلفية الذين أنكروا عليه إنكارا شديدا.

وقبل أن نذكر موقفهم منه نذكر موقف الشيخ محمد الغزالي من الحديث، فقد قال: (وقع لي وأنا بالجزائر أن طالباً سألني: أصحيح أن موسى ﷺ، فقأ عين ملك الموت عندما جاء لقبض روحه بعدما استوفى أجله؟ فقلت للطالب وأنا ضائق الصدر: وماذا يفيد هذا الحديث؟ إنه لا يتصل بعقيدة، ولا يرتبط به عمل، والأمة الإسلامية اليوم تدور عليها الرحى وخصومها طامعون في إخماد أنفاسها! اشتغل بما هو أهم وأجدى! قال الطالب: أحببت أن أعرف هل الحديث صحيح أم لا؟ فقلت له متبرماً: الحديث مروي عن أبي هريرة وقد جادل البعض في صحته. وعدت لنفسي أفكر إن الحديث صحيح السند، ولكن متنه يثير الريبة إذ يفيد أن موسى يكره الموت ولا يحب لقاء الله بعدما انتهى أجله. وهذا المعنى مرفوض بالنسبة إلى الصالحين من عباد الله كما جاء في الحديث الآخر (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه) فكيف بأنبياء الله؟ كيف بواحد من أولي العزم؟ إن كراهيته للموت بعدما جاءه ملكه مستغرب ثم

1() أحمد (2/351، رقم 8601)، والبخارى (1/449، رقم 1274)، ومسلم (4/1843، رقم 2372) النسائى (4/118، رقم 2089)، وابن حبان (14/113، رقم 6223)، والحاكم (2/632، رقم 4107)

هل الملائكة تعرض لها العاهات التي تعرض للبشر من عمى أو عور؟ ذاك بعيد.. قلت: لعل متن الحديث معلول، وأيا ما كان الأمر، فليس لدي ما يدفعني إلى إطالة الفكر فيه.. فلما رجعت إلى الحديث في أحد مصادره ساءني أن الشارح جعل رد الحديث إلحاداً وشرع يفند الشبهات الموجهة إليه فلم يزدها إلا قوة..)(1)

ثم ذكر قول المازري: (وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث وأنكر تصوره، قالوا: كيف يجوز على موسى فقء عين ملك الموت؟)، ودفاعه عن الحديث، ثم رد عليها بقوله: (نقول نحن: هذا الدفاع كله خفيف الوزن وهو دفاع تافه لا يساغ، ومن وصم منكر الحديث بالإلحاد فهو يستطيل في أعراض المسلمين والحق أن في متنه علة قادحة تنزل به عن مرتبة الصحة ورفضه أو قبوله خلاف فكري، وليس خلافاً عقائدياً والعلة في المتن يبصرها المحققون، وتخفى على أصحاب الفكر السطحي، وقد رفض الأئمة أحاديث صح سندها واعتل متنها فلم تستكمل بهذا الخلل شروط الصحة) (2)

هذا هو موقف الشيخ محمد الغزالي، وهو موقف كل عاقل حكيم يرى تلك التشويهات التي يحملها الحديث حول كبرى القضايا العقدية.

لكن هذا الموقف لم يعجب السلفية الذين صوبوا سهامهم من كل صوب نحوه، يتهمونه بإنكار السنة، وبالجرأة على السنة.. وكأن السنة حكر عليهم.

ومن تلك المواقف موقف الألباني الذي قال تعليقا على ما ذكره الغزالي: (هذا الحديث- أي حديث موسى المتقدم- من الأحاديث الصحيحة المشهورة التي أخرجها الشيخان من طرق عن أبي هريرة- رضي الله عنه-، وتلقته الأمة بالقبول، وقد جمعت ألفاظها والزيادات التي وقعت فيها، وسقتها لك سياقاً واحداً كما ترى؛ لتأخذ القصة كاملة بجميع فوائدها المتفرقة في بطون مصادرها، الأمر الذي يساعدك على فهمها فهماً صحيحاً، لا إشكال فيه ولا شبهة، فتسلِّم لقول رسول الله ﷺ تسليماً)(3)

ثم ساق طرق الحديث، والتي يوجد في أكثرها رجال من اليهود الذين أسلموا، وصاروا مباشرة بعد إسلامهم من الثقاة المعتبرين، ثم قال تعليقا على الغزالي: (واعلم أن هذا الحديث الصحيح جدّاً مما أنكره بعض ذوي القلوب المريضة من المبتدعة- فضلاً عن الزنادقة- قديماً وحديثاً، وقد رد عليهم

1() السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث (ص:26 - 29)
2() السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث (ص:26 - 29)
3() السلسلة الصحيحة (7/من 826 إلى 835)

العلمـاء- على مـر العصـور- بمـا يشـفي ويكفي من كـان راغبـاً السلامة في دينه وعقيدته؛ كابن خزيمة، وابن حبـان، والـبيهقي، والبغـوي، والنـووي، والعسـقلاني، وغـيرهم.. وممن أنكـره من المعاصرين الشـيخ الغـزالي في كتابـه (السـنة بين أهـل الفقـه وأهل الحديث) المذكور في الحديث الذي قبلـه، بـل وطعن في الذين دافعـوا عن الحـديث، فقـال:)وهـو دفـاع تافـه لا يسـاغ)، وهكذا؛ فالرجل ماضٍ في غيّه، والطعن في السنة والذابين عنها بمجرد عقله (الكبـيرًا). ولسـت أدري- واللـه- كيـف يعقـل هـذا الرجل- إذا افترضنا فيه الإيمان والعقل-! كيف يـدخل في عقلـه أن يكون هـؤلاء الأئمـة الأجلـة من محـدِّثين وفقهـاء من الإمـام البخـاري إلى الإمـام العسـقلاني على خطـأ في تصـحيحهم هـذا الحديث، ويكون هو وحده- صـاحب العقـل الكبـير! - مصـيباً في تضعيفه إياه ورده عليهم؟!)(1)

ولا يكتفي الألباني بهذا، بل يشنع عليه ـ كعادة السلفية في انتقادهم لخصومهم ـ أنه يوافق في هذا الموقـف المبتدعـة من القائلين بالعصمة المطلقة للأنبياء، فيقـول: (هـل الخلاف الـذي توهمه خلاف محترم أم هو خلاف ساقط الاعتبار، لأن المخـالف ليس من العلمـاء المحـترمين، ولـذلك لم تتجـرأ على تسـميته، ولعله من الخوارج أو الشيعة الذين يطعنون في أصـحاب النـبي ﷺ، وبخاصة راوي هذا الحديث (أبي هريرة) - رضي اللـه عنـه-. وثانيـاً: يحتمـل أن يكـون المجـادِل الـذي أشـرتَ إليـه هـو أنت، وحينئذٍ فبالأولى، أن يكون خلافك ساقط الاعتبار، كما هو ظـاهر كالشمس في رائعة النهار!) (2)

وهكذا يستمر الألباني ـ بلغته السلفية ـ يرد على الغــزالي، ويدافع عن الحديث، ويقول له كل حين: (يا له من مغرور أهلكه العجب! لقــد جعــل نفســه من المحققين، وعلمــاء الأمــة من أصحاب الفكر السطحي، والحقيقة أنه هـو العلـة؛ لجهلـه وقلـة فهمه) (3)

ويقول لـه: (بمثـل هـذا الفهم المنكـوس يـرد هـذا الرجـل أحاديث النبي ﷺ ولا يكتفي بذلك، بـل ويـرد على العلمـاء كافـة الذين فهمـوه وشـرحوه شـرحاً صـحيحاً، وردوا على أمثالـه من أهل الأهواء الذين يسيئون فهم الأحاديث ثم يردونهـا، وإنمـا هم في الواقع يردون جهلهم، وهي سالمة منه والحمد لله) (4)

وقد اقتصرنا هنـا على موقـف الألبـاني باعتبـار كـبر سـنه، ومكانته، وإلا فإننا لو نزلنا إلى غيره من أعلام السـلفية لوجـدنا

1() المرجع السابق.
2() المرجع السابق.
3() المرجع السابق.
4() المرجع السابق.

قواميس من الشتائم تكال للغزالي بسبب موقفـه العقلاني من الحديث.

النوع الثاني من الروايات:

وهي الروايات الـتي وردت في كتبهم الـتي يعتبرونهـا كتب سنة، وينصحون العامة بقراءتهـا، والاسـتفادة منهـا، وهي كثـيرة جدا، وخطيرة جـدا، ومـع ذلـك لا نجـدهم ينفـرون العـوام منهـا، والحيلـة الـتي يسـتعملونها مـع هـذا النـوع من الروايـات مـع المخـالفين أو المنتقـدين هي أن يـذكروا أن الحـديث الفلاني ضعفه الألبـاني، أو لم يحتج بـه الأرنـاؤوط، لأن مثـل ذلـك مثـل شـركات السـجائر الـتي تغـرق السـوق بالسـجائر، وهي تعلم خطرها، ولترفع العتب عنها تكتب على الغلاف [مضر بالصحة]

وهكذا يفعل السلفيون الذين نشروا مئـات الأحـاديث الـتي تشوه الأنبياء، وتدنس معهم النبوة، ثم تنصـح الأمـة بالاسـتفادة من ذلك التراث المملوء بتلـك التشـويهات.. وتـذكر لهم أن من أخذ به كان سنيا وسلفيا وناجيا.. ثم بعد أن تمتلئ عقول النـاس وقلوبهم بكل تلك التشويهات يأتي رجل في آخر الزمان، ويقول لهم: الحديث الفلاني فيه نكارة.. والآخر فيه علة.. وهو مع قوله ذلك لا يزال ينصح بقراءة تلك الكتاب التي تحوي تلك النكارات، وتنشر تلك العلل.. ولا يزال يصـر على أن أصـحاب تلـك الكتب سنة وسلفيون.

وكمثال على ذلك كتاب تفسـير الطـبري الـذي يعتـبر أكـبر مصدر لتدنيس النبوة والأنبياء، ومع ذلك نجد ثناء أعلام السـلفية عليه قديما وحديثا.

يقـول الخطيب البغـدادي (المتـوفى: 463هـ) ـ وهـو من أعلام السـلفية المتقـدمين ـ في ترجمتـه لمحمـد بن جريـر الطبري صاحب التفسير: (استوطن الطـبري بغـداد وأقـام بِهَـا إِلَى حين وفاته، وكَانَ أحـد أئمـة العلمـاء: يحكم بقولـه، ويرجـع إلى رأيـه لمعرفتـه وفضـله. وكـان قـد جمـع من العلـوم مـا لم يشاركه فيه أحـد من أهـل عصـره، وكـان حافظـا لكتـاب اللـه، عارفا بـالقراءات، بصـيرا بالمعـاني، فقيهـا في أحكـام القـرآن، عالمـا بالسـنن وطرقهـا، وصـحيحها وسـقيمها، وناسـخها ومنسوخها، عارفا بـأقوال الصـحابة والتـابعين، ومن بعـدهم من الخـالفين في الأحكـام، ومسـائل الحلال والحـرام، عارفـا بأيـام النـاس وأخبـارهم، ولـه الكتـاب المشـهور في «تـاريخ الأمم والملوك»، وكتاب في التفسير لم يصنف أحد مثله)(1)

وحكى الخطيب هذه الرواية الـتي يهتم بهـا السـلفية عنـد ذكرهم لهمم السـلف، وهي الطـبري قَـالَ لأصـحابه: أتنشـطون

(1) تاريخ بغداد وذيوله (2/ 161)

لتفسير القرآن. قالوا: كم يكون قدره؟ فقال ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه، فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة. ثم قَالَ: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فذكر نحوا مما ذكره في التفسير فأجابوه بمثل ذلك.. فقال: إنا لله، ماتت الهمم [1].

وهذه الرواية توضح لنا سر لقب الحشوية الذي أطلق على السلفية.. فهم يبحثون عن الكم لا عن النوع.. وعن التفاصيل لا عن الحقائق..

وهكذا نجد الذهبي المعروف بتشدده في الرجال يثني عليه وعلى تفسيره، فيقول: (كان ثقة، صادقًا، حافظًا، رأسًا في التفسير، إمامًا في الفقه والإجماع والاختلاف، علاَّمةً في التاريخ وأيام الناس، عارفًا بالقراءات وباللغة، وغير ذلك)[2]

أما ابن تيمية، فلم يكن يدع مناسبة إلا ويثني عليه وعلى تفسيره، بل يعتبره من أمهات كتب السنة.

ومن أمثلة ذلك قوله عنه: (تفسير محمد بن جرير الطبري، وهو من أجلِّ التفاسير المأثورة، وأعظمها قدرًا)[3]

وقال ـ مجيبًا عن أحسن التفاسير ـ: (أما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين، كمقاتل بن بكير، والكلبي)[4]

فهذه التزكية من ابن تيمية تدل على مدى أهمية الكتاب عنده وعند السلفية، ولذلك اعتبرناه من مصادرنا التي اعتمدنا عليها في هذه الدراسة، ولولا أن ابن تيمية قال عنه هذا لما اعتبرناه كذلك، لأنا شرطنا على أنفسنا أن لا نقول السلفية ـ كما لا نقول غيرهم ـ ما لم يقولوا.

ومن الكتب التي اعتمدناها في هذا النوع من الروايات تفسير ابن أبي حاتم المتوفى سنة (327) صاحب «الجرح والتعديل»، والمعاصر لابن جرير الطبري، وهو من رجال السلفية المعتمدين، وقد أثنى عليه ابن تيمية كثيرا، حيث عده في (مجموع الفتاوى) من أهل العلم والسنة [5].. وعده في (منهاج السنة) من أئمة التفسير.. ومن أهل العلم الكبار[6]

وفوق ذلك كله أثنى على تفسيره، حيث اعتبره من أئمة

1() تاريخ بغداد وذيوله (2/ 161)
2() سير أعلام النبلاء (14/ 270)
3() مجموع الفتاوى (13/361)
4() مجموع الفتاوى (13/385)
5() مجموع الفتاوى (3/382)
6() منهاج السنة (7/212)

التفسير الذين ينقلونها بالأسانيد المعروفة (1).

بل شهد له بالصحة، فقال في (مجموع الفتاوى): (وابن أبي حاتم قد ذكر في أول كتابه في التفسير أنه طلب منه إخراج تفسير القرآن مختصرًا بأصح الأسانيد، وأنه تحرى إخراجه بأصح الأخبار إسنادًا، وأشبعها متنًا، وذكر إسناده عن كل من نقل عنه شيئًا)(2)

ومن الكتب التي اعتمدناها في هذا النوع من الروايات تفسير ابن عطية (المتوفى سنة 542)الذي أشاد به تيمية، فقال: (وتفسير ابن عطية وأمثاله: أتبع للسنة والجماعة، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري، ولو ذكر كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل، فإنه كثيرًا ما ينقل تفسير محمد بن جرير الطبري، وهو من أجل التفاسير المأثورة، وأعظمها قدرًا. ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف، لا يحكيه بحال، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين، وإنما يعني بهم طائفة، من أهل الكلام، الذين قرروا أصولهم، وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة، لكن ينبغي أن يعطى كل ذي حق حقه، ويعرف أن هذا من جملة التفسير على المذهب. فإن الصحابة، والتابعين، والأئمة إذا كان لهم في تفسير الآية قول، وجاء قوم فسروا الآية بشكل آخر لأجل مذهب اعتقدوه، وذلك المذهب ليس من مذاهب الصحابة، والتابعين لهم بإحسان صاروا مشاركين للمعتزلة، وغيرهم من أهل البدع في مثل هذا)(3)

هذا قول ابن تيمية فيه، ونقده له ليس لإيراده الإسرائيليات، وإنما لتأويله بعض النصوص التي يستند إليها السلفية في التجسيم.. وهو بذلك ينتقد حسناته لا سيئاته.

ولهذا يقول عنه في موضع آخر: (وتفسير بن عطية خير من تفسير الزمخشري وأبعد عن البدع، وإن اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير، لكن تفسير ابن جرير أصح من هذه كلها)(4)

ومن الكتب التي اعتمدناها في هذا النوع من الروايات تفسير البغوي (توفي سنة 510)، الذي سُئل عنه ابن تيمية هذا السؤال: (أي التفاسير أقرب إلى الكتاب والسنة الزمخشري، أم القرطبي، أم البغوي، أم غير هؤلاء؟)، فقال: (أما التفاسير الثلاثة المسئول عنها فأسلمها من البدعة، والأحاديث الضعيفة البغوي، لكنه مختصر من تفسير الثعلبي، وحذف منه الأحاديث

1() منهاج السنة (7/178)
2() مجموع الفتاوى (15/201)
3() مجموع الفتاوى (13/361)
4() مجموع الفتاوى (13/385)

الموضوعة، والبدع التي فيه، وحذف أشياء غير ذلك)(1)

وقال عنه في مقدمة أصول التفسير في «مجموع الفتاوى»: (والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي لكن صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة، والآراء المبتدعة)(2)

هذه بعض مصادرنا الكبرى التي اعتمدنا عليها في النوع الثاني من الروايات، وقد ذكرناها وذكرنا موقف ابن تيمية منها حتى لا يقول أحد من الناس: إننا ندعي على السلفية، أو نقولهم ما لم يقولوا.

فهم الذين يقرون باعتبار هذه المصادر مصادرهم.. وأن كتبتها من أهل سنتهم، بل من سلفهم الصالح.. أما إنكارهم لبعض ما فيها، فهو أنكار باهت ضعيف بجنت الجرائم الكبيرة التي تفوح بها الروايات الواردة في تلك المصادر.

وأما اعتمادنا على شهادات ابن تيمية، فلمكانته المعروفة بينهم في كل شيء، وقد قال بعضهم معاتبا من انتقد ابن تيمية في بعض الأحاديث: (كلام شيخ الإسلام في هذا التفسير كان كلام خبير، ومطلع على ما فيه من حسن وقبح، وليس هو بالظن والتخمين كما يظنه الباحث؛ لأن مثل هذا الكلام لا يستطيع أن يقوله أحد في أي كتاب مستقل، أو تلخيص إلا بعد قراءة متأنية، وكلام شيخ الإسلام حول هذا التفسير في أماكن متعددة يفيدنا بأن هذا التفسير اختصار من تفسير الثعلبي والواحدي، وأنه حذف منه الأحاديث الضعيفة والموضوعة، والآراء المبتدعة، كما حذف أشياء أخرى، وسبب حذف هذه الأشياء ثقافته الواسعة في الدين، والعقيدة، والحديث، والفقه. وأما ما اعتمد فيه على الثعلبي هو أقوال المفسرين، والنحاة، وقصص الأنبياء، فهذه الأمور نقلها منه)(3)

ونحب أن نذكر أن ابن تيمية الذي راح يدعو إلى قراءة تلك الكتب المشحونة بتشويه الأنبياء لم يكتف بذلك، بل راح يحذر من الكتب الممتلئة بالروحانيات العميقة كتفاسير الصوفية، فقد قال في تفسير السلمي (توفي في 410)، وهو من التفاسير الصوفية المعتدلة: (وأما الذين يخطئون في الدليل لا في المدلول فمثل كثير من الصوفية، والوعاظ، والفقهاء، وغيرهم يفسرون القرآن بمعانٍ صحيحة، لكن القرآن لا يدل عليها، مثل كثير مما ذكره أبو عبد الرحمن السلمي في «حقائق التفسير»، وإن كان فيما ذكروه ما هو معان باطلة، فإن ذلك يدخل في القسم الأول، وهو الخطأ في الدليل

1() مجموع الفتاوى (13/386)

2() أصول التفسير في مجموع الفتاوى (13/354)

3() عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي في كتابه (شيخ الإسلام ابن تيمية وجهوده في الحديث وعلومه)

والمدلول جميعًا، حيث يكون المعنى الذي قصدوه فاسدًا)(1)

وهكذا موقفه من التفاسير التي حاولت أن تقرأ القرآن الكريم قراءة عقلانية على مقتضى اللغة كتفسير الزمخشري (توفي 538)، والمسمى (الكشاف عن حقائق التنزيل)، فقد قال فيه محذرا منه: (وأما الزمخشري فتفسيره محشو بالبدعة، وعلى طريقة المعتزلة من إنكار الصفات، والرؤية والقول بخلق القرآن، وأنكر أن الله مريد للكائنات، وخالق لأفعال العباد، وغير ذلك من أصول المعتزلة)(2)

وهكذا لا يجد القارئ السلفي مصدرا يتلقى منه فهم القرآن إلا تلك الكتب المشحونة بالإسرائيليات.. والتي يمكن تعريفها بأنها [التفسير الإسرائيلي للقرآن الكريم]

بالإضافة إلى هذا، وإلى ما ذكرنا من أنواع الروايات فإن الشبهة العظمى التي يستند إليها السلفية في تسويق بضاعتهم المدنسة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام هو دعوى رجوعهم للسلف..

وعندما نبحث عن سلفهم في تلك الروايات لا نجد كبار الصحابة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.. فلا نجد بلالا ولا عمارا ولا أبا ذر ولا غيرهم من الصحابة الذين ضحوا بدمائهم في سبيل نصرة الإسلام.

ولا نجد كذلك أصحاب بدر وأحد وغيرها من الغزوات..

ولا نجد الكثير من الأنصار الذين ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9]

وإنما نجد فقط أولئك الذين حذر منهم رسول الله ﷺ من اليهود، أو الذين خالفوا رسول الله ﷺ في تحذيره من الاستفادة منهم، كما ورد في الحديث الصحيح الذي وضع فيه رسول الله ﷺ الحصن الذي يتحصن به دين الأمة من أن يختلط بغيره من الأديان، فيتسرب إليه المشروع الشيطاني، ليحرفه كما حرف سائر الأديان.

والحديث معروف، وكررناه كثيرا.. ولا نزال نكرره.. لأنه لا يمكن للأمة أن تفهم دينها، وهي تخلطه بالتراث الإسرائيلي.

ونص الحديث هو أن عمر أتى رسول الله ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فغضب، وقال: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟! والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى - ﷺ - كان حيا ما

1() مجموع الفتاوى (13/362)
2() مجموع الفتاوى (13/386)

وسعه إلا أن يتبعني)(1)

وقد نسخ السلفية هذا الحديث ـ كما ذكرنا مـرات كثـيرة ـ بحديث وضعوه بدلا منه، وهو: (لا تكتبوا عني شيئا غـير القـرآن، فمن كتب عـني شـيئا غـير القـرآن فليمحـه.. وحـدثوا عن بـني إسرائيل ولا حرج)(2)

وهذا من العجائب.. فكيف ينهى رسـول اللـه ﷺ عن كتابـة حديثه، وفي نفس الوقت يجيز الحديث عن بني إسرائيل.. وهـو الذي غضب تلك الغضـبة الشـديدة، وأخـبر أن دينـه أبيض نقي.. وأن خلطهم له بغيره من الأديان سيشوهه، ويدنسه، بـل يحولـه إلى دين بشري، بدلا أن يكون دينا إلهيا.

ولهذا نجد السلفية يحاولون ـ للبرهنة على جواز الاستفادة من كتب أهـل الكتب في هـذا المجـال كمـا أجـازوه في سـائر المجالات ـ إرجاع جواز ذلك إلى السلف الأول، وخصوصـا عمـر بن الخطاب الذي اعتبروه أول من قرب كعب الأحبار، وأنـه هـو الذي سـمح لـه بالحـديث عن قصـص الأنبيـاء كمـا هي في كتب أهل الكتاب.. ولسنا ندري مدى دقة ذلك، وكيف لم يخـف عمـر أن يختلط هذا الـدين باليهوديـة، كمـا خـاف أن تختلـط أحـاديث رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم، فنهى عن كتابتها.

قال ابن كثير ـ مبينا موقف السـلفية من هـذا ـ: (... فـإن كعب الأحبار لما أسلم في زمن عمر كان يتحدث بين يدي عمـر بن الخطـاب رضـي اللـه عنـه بأشـياء من علـوم أهـل الكتـاب، فيستمع له عمر تأليفا له وتعجبا مما عنده مما يوافق كثـير منـه الحق الذي ورد به الشـرع المطهـر، فاسـتجاز كثـير من النـاس نقل ما يورده كعب الأحبار لهذا المعنى، ولما جـاء من الإذن في التحديث عن بني إسرائيل)(3)

بل إننـا من خلال الروايـات الـتي ينقلونهـا عن العلاقـة بين كعب الأحبار وعمر نكاد نصدق أنه تحول إلى مستشـاره الـديني الخاص، ومن تلك الرويات مـا أورده ابن تيميـة في قولـه: (لمـا دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الـبيت المقـدس وأراد أن يبني مصلى للمسلمين: قال لكعب؟ أين أبنيه؟ قـال ابنـه خلـف الصخرة. قال: خالطتك يهودية يا ابن اليهودية ؛ بل أبنيـه أمامهـا [وذلك لأن اليهود تعظم تلك الصخرة]، ولهذا كـان عبـد اللـه بن عمـر إذا دخـل بيت المقـدس صـلى في قبليـه ولم يـذهب إلى الصخرة. وكانوا يكذبون ما ينقلـه كعب: أن اللـه قـال لهـا: أنت عرشـي الأدنى ويقولـون: من وسـع كرسـيه السـموات والأرض

1() مسند أحمد: 3/387 ح(15195)
2() البخاري (6 / 496 رقم 3461) والترمذي (7 / 431 - 432 رقم 2806)
3() البداية والنهاية (1/34-35)

كيف تكون الصخرة عرشه الأدنى؟)(1)

ومن تلك الروايات ما رووه أن عمر أنه قال لكعب: (أنشدك الله يا كعب أتجدني خليفة أم ملكا؟ قال: بل خليفة فاستحلفه، فقال كعب: خليفة والله من خير الخلفاء وزمانك خير زمان)(2)

بل إنهم جعلوه مستشارا لعائشة أيضا، فقد رووا عن عبد الله بن الحارث قال: كنت عند عائشة وعندها كعب الحبر، فذكر إسرافيل، فقالت عائشة: يا كعب أخبرني عن إسرافيل، فقال كعب: عندكم العلم، فقالت: أجل فأخبرني، قال: له أربعة أجنحة جناحان في الهواء وجناح قد تسربل به وجناح على كاهله والعرش على كاهله والقلم على أذنه فإذا نزل الوحي كتب القلم ثم درست الملائكة وملك الصور جاث على إحدى ركبتيه وقد نصبت الأخرى فالتقم الصور محني ظهره شاخص بصره إلى إسرافيل وقد أمر إذا رأى إسرافيل قد ضم جناحه أن ينفخ في الصور فقالت عائشة: هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقول)(3)

والمشكلة أن القاعدة التي طبقت على سائر الرواة من أنه من عرف الكذب عنه، ولو مرة واحدة يطرد من قائمة الرواة الموثوقين.. لكن السلفية لم يطبقوا هذا مع كعب الأحبار وغيره من اليهود، بل جعلوهم من المستثنين، بل دافعوا عنهم دفاعا شديدا..

وحجتهم الوحيدة في ذلك أنهم كانوا مقربين من الصحابة.. وقد كتب بعضهم رسالة في الدفاع عن كعب الأحبار سماها [كعب الأحبار المفترى عليه](4)، قال في مقدمتها: (فهذا بحث أدفع فيه بعض الافتراءات على كعب الأحبار، التي ذكرها أبورية في كتابه (أضواء على السنة المحمدية)، وقلده بعد ذلك كثيرون، وهو في الأساس أخذ عن محمد رشيد رضا وبعض المستشرقين، وهؤلاء إنما أرادوا الطعن في السنة، وذلك لأن جمعاً من الصحابة رووا عن كعب الأحبار واحترموه، فأراد هؤلاء إظهار الصحابة في صورة السذج الذين خدعهم كعب)

ثم نقل النصوص الكثيرة عن أئمة السلف التي تمجده، وتجعله قطبا من أقطاب الدين، خاصة في تفسير القصص القرآني.

ومن النصوص التي نقلها ما نقله عن المعلمي من قوله: (لكعب ترجمة في تهذيب التهذيب، وليس فيها عن أحد من

1() مجموع الفتاوى (15/153)
2() رواه نعيم بن حماد في الفتن، ص 241.
3() قال في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (10/ـ 331): رواه الطبراني في الأوسط، وإسناده حسن
4() هو لعبد بن فهد الخليفي.

المتقدمين توثيقه، إنما فيها ثناء بعض الصحابة عليه بالعلم.. فأما ما كان يحكيه عن الكتب القديمة فليس بحجة عند أحد من المسلمين، وإن حكاه بعض السلف لمناسبته عنده لما ذكر في القرآن)(1)

ومن الروايات التي يستندون إليها في توثيق كعب ما يروونه عن عبد الله بن الزبير أنه قال: (ما أصبت فى سلطانى شيئاً إلا قد أخبرنى به كعب قبل أن يقع)، ويروون عن معاوية قوله: (ألا إنَّ أبا الدرداء أحد الحكماء، ألا إنَّ عمرو بن العاص أحد الحكماء، ألا إنَّ كعب الأحبار أحد العلماء، إن كان عنده علم كالثمار وإن كنا المفرطين)(2)

وهم يدافعون عن مقولة من معاوية تتهم كعب الأحبار بالكذب، وهي قوله: (إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب، وإن كنا - مع ذلك - لنبلو عليه الكذب)(3)بنقل ما ذكروه عن سلفهم من المحدثين من تأويل هذه المقولة، واعتبار اتهام معاوية نوعا من الشدة لم يردها.

ومن ذلك ما نقلوه عن ابن حجر أنه قال: (وقوله (عليه الكذب) أي: يقع بعض ما يخبرنا عنه بخلاف ما يخبرنا به، قال ابن التين: وهذا نحو قول ابن عباس في حق كعب المذكور: (بدل من قبله فوقع في الكذب)، قال: والمراد بالمحدثين في قوله: (إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب) أنداد كعب ممن كان من أهل الكتاب وأسلم، فكان يحدث عنهم، وكذا من نظر في كتبهم فحدث عما فيها، قال: ولعلهم كانوا مثل كعب، إلا أن كعبا كان أشد منهم بصيرة، وأعرف بما يتوقاه)

وقال ابن حبان في كتاب الثقات: (أراد معاوية أنه يخطئ أحيانا فيما يخبر به، ولم يرد أنه كان كذابا، وقال غيره: الضمير في قوله: (لنبلو عليه) للكتاب لا لكعب، وإنما يقع في كتابهم الكذب لكونهم بدلوه وحرفوه)

وقال ابن الجوزي: (المعنى: أن بعض الذي يخبر به كعب عن أهل الكتاب يكون كذبا لا أنه يتعمد الكذب، وإلا فقد كان كعب من أخيار الأحبار)(4)

وبناء على هذا الموقف من كعب، والذي اعتبر بموجبه ثقة، بل إماما من الأئمة، رفع الحجر عن كل من يخلط الإسلام بكتب اليهود خصوصا، وخصوصا فيما يتعلق بالمسائل العقدية من الحديث عن الله أو رسله أو كتبه أو الملائكة أو غيرها.

1() الأنوار الكاشفة، ص105.
2() الإصابة في تمييز الصحابة، (5 /650)
3() صحيح البخاري (13/345)، رقم (7361)
4() فتح الباري (13/346)

ولهذا صرنا نجد في تفاسيرنا الكثير من نصوص الكتب السابقة تفسر القرآن، وتبين أغراضه.

بل يورد السلفية ما هو أخطر من ذلك حين يحدثون عن فضائل عبد الله بن عمرو بن العاص، فيذكرون منها قوله: (رأيت فيما يرى النائم لكأن في إحدى أصبعي سمنا وفي الأخرى عسلا فأنا ألعقهما، فلما أصبحت ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: (تقرأ الكتابين التوراة والفرقان، فكان يقرؤهما) (1)

وهكذا أصبح كمال المؤمن ليس في أخذه من القرآن الكريم، واقتصاره عليه، وذوبانه في معانية.. بل الكمال في أن يأكل السمن مع العسل.. أو ينهل من القرآن ومن كتب أهل الكتاب.

1() أحمد 2/222 (7067)

من المسائل الكبرى التي وقع فيها الخلاف في عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مسألة عصمتهم من الوقوع في الكفر والشرك..

وهي مسألة انقسمت فيها الأمة إلى قسمين كبيرين: قسم تمثله المدرسة السلفية، وخصوصا ابن تيمية وتلاميذه، فهم يرون أن الأنبياء ــ قبل نزول الوحي عليهم ــ على دين أقوامهم، أي أنهم كفار مشركون يمارسون كل الطقوس التي يمارسها قومهم.. إلا أنبياء بني إسرائيل طبعا الذين ينزههم السلفية عن هذا باعتبارهم ولدوا في بيئة موحدة.

أما القسم الثاني: فهو من ينزه الأنبياء عن هذا، ويعتبر مجرد القول به سوء فهم للنبوة، وحطا من قدرها، وتدنيسا لها.. وقد قال بهذا كل الأمة بمذاهبها وطوائفها المختلفة، ما عدا السلفية وخصوصا أتباع ابن تيمية منهم.

وأساس المشكلة التي أوقعت المدرسة السلفية في هذا الخطأ الكبير هو تغليبهم لبشرية النبي على نبوته، والتي نتج عنها توهمهم أن النبي ليس سوى إنسان عادي، وقع عليه اختيار الله في مرحلة من عمره ليكلف بأداء مهام معينة.. ولا تميز له عن الناس في هذا الجانب، كما لا تميز له عنهم في الجوانب الأخرى.

ثم يذكرون أن ذلك الاختيار مشيئة إلهية محضة، لا علاقة لها بدين النبي، ولا خلقه.. ولهذا أجازوا على النبي أن يكون قبل نبوته كافرا ومشركا، وعاصيا بمختلف أنواع المعاصي كبائرها وصغائرها.

وهم لا يكتفون بذكر الجواز فقط، بل يضمون إليه ما يخلخل تلك المكانة السامية التي يشعر بها المؤمنون عندما يتحدثون عن الأنبياء أو يسمعون عنهم.

والمبرر السلفي لهذا معروف، وهم أنهم يخافون أن يمس جناب التوحيد، أو لأنهم يرون أن تعظيم النبي تحقير لربه، وتقديس الرسول تدنيس لمرسله.. وكل ذلك نشأ عن تصوراتهم الوثنية لله سبحانه وتعالى.

وقد غاب عن هذه المدرسة، مع ادعائها الرجوع للقرآن الكريم، آيات كثيرة لو أنهم تأملوها بعيدا عن وساوس كعب الأحبار ووهب بن منبه وتلك الروايات التي حشوا بها عقولهم، لوصلوا إلى حقيقة كمالات النبوة من دون أي جهد.. بل وصلوا إلى المنبع الصافي الذي لا كدر فيه.

وأول تلك الآيات، وأكثرها صراحة ووضوحا قوله تعالى على لسان المسيح : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: 30 - 33]

فهذه الآيات الكريمة تنص على أن المسيح ، وهو ــ في مرحلة المهد ــ يخبر أن الله تعالى جعله نبيا، ولم يقل: (سيجعلني نبيا)، أي أنه كان نبيا وهو في مهده.. ويخبر كذلك أنه جعل مباركا في كل محل، ولم يقل: (سيجعلني مباركا)

وهذا ليس خاصا بالمسيح ، بل هو عام لكل الأنبياء، لأن الله تعالى عندما ذكر خصوصية المسيح في هذا الجانب ذكر كلامه في المهد، لا نبوته في المهد، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [المائدة: 110]، وقال: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: 46]

بل ورد في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ أنه سئل: يا رسول الله، متى كتبت نبيا؟ قال: (وآدم بين الروح والجسد)(1)

وقد أقر ابن تيمية نظريا بهذا الحديث، وإن لم يؤمن به عمليا، كما سنرى، فقد قال في (مجموع الفتاوى): (وهذا هو معنى الحديث الذي رواه أحمد في مسنده عن ميسرة الفجر قال: قلت يا رسول الله متى كنت نبيا؟.. قال: (وآدم بين الروح والجسد)، هكذا لفظ الحديث الصحيح. وأما ما يرويه هؤلاء الجهال: كابن عربي في الفصوص وغيره من جهال العامة (كنت نبيا وآدم بين الماء والطين كنت نبيا وآدم لا ماء ولا طين)، فهذا لا أصل له ولم يروه أحد من أهل العلم الصادقين ولا هو في شيء من كتب العلم المعتمدة بهذا اللفظ)(2)

بالإضافة إلى هذا، فقد أخبر الله تعالى أن له من عباده من أطلق عليهم لقب المخلصين ـ بفتح الخاء ـ وهم الطاهرون الذين لا يتمكن الشيطان بأي حال من الأحوال أن يصل إليهم، قال تعالى يذكر ذلك اليوم الذي بدأ فيه تاريخ البشرية: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ

1() أحمد 4/66 (16740) و5/379 (23599)، وقال في (مجمع الزوائد: 8/ـ 223): رواه أحمد والطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

2() مجموع الفتاوى (2/ 147)

(41) إِنَّ عِبَـادِي لَيْسَ لَـكَ عَلَيْهِمْ سُـلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَـكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: 39 - 42]

فهذه الآية الكريمة تبين أن من عباد الله جواهر مقدسة بطبيعتها لا يمكن للشيطان أن يصل إليها بحال من الأحوال، ولذلك هي عارفة بربها بالفطرة.. بل هي ـ كما يقول العرفاء ـ تولد وهي مجتازة لكل المهامه والفيافي التي يقطعها السالكون، لأن آخر مقام في الولاية هو أول مقام في النبوة، كما قال الغزالي: (وانفتاح هذا الباب من سر القلب إلى عالم الملكوت يسمى معرفة وولاية ويسمى صاحبه وليا وعارفا، وهي مبادي مقامات الأنبياء، وآخر مقامات الأولياء أول مقامات الأنبياء)(1)

ومشكلة المدرسة السلفية أنها ـ مثل الشيطان تماما ــ لا تؤمن بهذا النوع من الناس، لأنها تشعر أن الإيمان بهم نوع من السجود والخضوع.. وهي تملك من الكبر ما يحول بينها وبين ذلك.

ولو أنها تدبرت الأمر من بابه لعلمت أنها كلما عظمت الرسول عظمت المرسل، وكلما وقرت الرسول وقرت المرسل.. لأن الرسول ليس سوى مرآة لتجلي الحق، أو هو مظهر يعرف الحق من خلاله، ومن احتقر المظهر احتقر بالضرورة مُظهره.

ولهذا اتفق العارفون من تلاميذ القرآن الكريم ابتداء من بيت أهل النبوة إلى آخر تلميذ من تلاميذهم على هذا المعنى السامي للنبوة..

يقول الشيخ الصدوق عند ذكره موقف أهل بيت النبوة من هذه المسألة الخطيرة: (اعتقادنا في الأنبياء والرسل والأئمة والملائكة عليهم السلام أنهم معصومون مطهرون من كل دنس، وأنهم لا يذنبون ذنبا صغيرا ولا كبيرا، ولا يعصون ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.. واعتقادنا فيهم أنهم معصومون موصوفون بالكمال والتمام والعلم من أوائل أمورهم وأواخرها، لا يوصفون في شيء من أحوالهم بنقص ولا عصيان ولا جهل)(2)

ويقول العلاّمة الطباطبائي: (إنّ الله سبحانه خلق بعض عباده على استقامة الفطرة، واعتدال الخلقة، فنشأوا من بادئ الأمر بأذهان وقّادة، وإدراكات صحيحة ونفوس طاهرة، وقلوب سليمة، فنالوا بمجرّد صفاء الفطرة وسلامة النفس من نعمة الإخلاص ما ناله غيرهم بالاجتهاد والكسب بل أعلى وأرقى

1() إحياء علوم الدين (3/ 382).
2() الإعتقادات (لـ الصدوق)، ص36.

لطهـارة داخلهم من التلـوّث بـألواث الموانـع والمزاحمـات، والظاهر أنّ هـؤلاء هم المخلصـون (بـالفتح) للـه في مصـطلح القرآن، وهم الأنبياء والأئمّة، وقد نصّ القرآن بأنّ الله اجتبـاهم، أي جمعهم لنفسه وأخلصهم لحضرته، قال تعـالى: ﴿وَاجْتَبَيْنَـاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: 87])(1)

وإلى هـذا المعـنى أشـار العـارفون من هـذه الأمـة الـذين اتفقوا على العصمة المطلقة للنـبي في كـل أحوالـه، وفي كـل سنوات عمره.

يقـول الشـيخ أحمـد السـرهندي: (النبـوة: هي عبـارة عن القـرب الإلهي الـذي ليس فيـه شـائبة الظليـة، وعروجـه نـاظر ومتوجـه إلى الحـق، ونزولـه إلى الخلـق وهـذا القـرب نصـيب الأنبياء [عليهم السلام] بالأصالة) (2)

ويقول الشيخ نجم الدين دايـة الـرازي: (مقـام الأنبيـاء هـو غاية شرف الإنسانية، والأفق الأعلى منه، فلم يبـق لـه الارتقـاء عن هذا المقام بسـعيه وجهـده، بـل ينحـط إليـه الأمـور الإلهيـة والجذبات الربانية وحياً أو إلهاماً) (3)

ويقول الشـيخ عبـد القـادر الجيلاني: (النبـوة: هي نـور من أنوار العزة، مختومة بطابع روح القدس، قوتهـا فعالـة بالقـدرة، ومعناهـا متسـع بالبهجـة، وظاهرهـا مؤيـد بأفعـال اللـه تعـالى الخارقة للعادة المستمرة، وباطنها مقرون بالوحي) (4)

وهكذا نص كل العارفين المحققين..

وقريبـا منهم نص المتكلمـون الـذين اتفقـوا جميعـا على اختلاف قراءاتهم العقديـة على عـدم جـواز الكفـر على الأنبيـاء مطلقا، كما عبر على ذلك القاضـي عبـد الجبّـار شـيخ المعتزلـة في عصـره، حيث ذكـر أنّـه (يجب أن يكـون النـبي منزّهـاً عمّـا يقتضى خروجـه من ولايـة اللـه تعـالى إلى عداوتـه قبـل النبـوّة وبعدها، كما يجب أن يكون منزّهاً من كذب أو كتمان أو سهو أو غلط إلى غير ذلك، ومن حقّه أن لا يقـع منـه مـا ينفـر منـه عن القبول منه أو يصرف من السكون إليه أو عن النظر في علمه، نحـو الكـذب على كـل حـال، والتوريـة والتعميـة في مـا يؤدّيـه، والصغائر المستخفة)(5)

وقـال التفتـازاني في شـرح العقائـد النسـفية: (إنّهم [أي الأنبياء] معصومون عن الكفر قبل الوحي وبعده بالإجماع، وكـذا

1() الميزان: 11/177).
2() الشيخ أحمد السرهندي – مكتوبات الإمام الرباني – ج 1 ص 361.
3() الشيخ نجم الدين داية الرازي– مخطوطة منار السائرين ومطار الطائرين – ص 27
4() الشيخ علي بن يوسف الشطنوفي – مخطوطة بهجـة الإسـرار ومعـدن الأنـوار – ص 88.
5() المغني: 15/279.

مَن تعمّد الكبائر عند الجمهور خلافاً للحشوية، وأمّا سهواً، فجوّزه الأكثرون. وأمّا الصغائر، فيجوز عمداً عند الجمهور، خلافاً للجبّائي وأتباعه، ويجوز سهواً بالاتفاق إلاّ ما يدل على الخسّة)(1)

وقال الفاضل القوشجي: (إنّ المعاصي إمّا أن تكون منافيةً لما تقتضيه المعجزة، كالكذب في ما يتعلّق بالتبليغ أو لا، والثاني إمّا أن يكون كفراً أو معصية ؛ وهي إمّا أن تكون كبيرة كالقتل والزنا، أو صغيره منفّرة كسرقة لقمة والتطفيف بحبّة، أو غير منفّرة ككذبة وشتمة ؛ وكل ذلك إمّا عمداً أو سهواً، أو بعد البعثة أو قبلها)(2)

وقال القرطبي في تفسيره لقوله تعالى نقلا عن القاضي عياض: (وأما عصمتهم من هذا الفن قبل النبوة فللناس فيه خلاف، والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك. وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة، ومن طالع سيرهم منذ صباهم إلى مبعثهم حقق ذلك، كما عرف من حال موسى وعيسى ويحيى وسليمان وغيرهم عليهم السلام. قال الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ [مريم: 12] قال المفسرون: أعطي يحيى العلم بكتاب الله في حال صباه. قال معمر: كان ابن سنتين أو ثلاث، فقال له الصبيان: لم لا تلعب! فقال: أللعب خلقت! وقيل في قوله: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: 39] صدق يحيى بعيسى وهو ابن ثلاث سنين، فشهد له أنه كلمة الله وروحه وقيل: صدقه وهو في بطن أمه، فكانت أم يحيى تقول لمريم إني أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك تحية له. وقد نص الله على كلام عيسى لأمه عند ولادتها إياه بقوله: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ [مريم: 24] على قراءة من قرأ من تحتها.. وقال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: 79]،وقد ذكر من حكم سليمان وهو صبي يلعب في قصة المرجومة وفي قصة الصبي ما اقتدى به أبوه داود. وحكى الطبري أن عمره كان حين أوتي الملك اثني عشر عاما. وكذلك قصة موسى مع فرعون وأخذه بلحيته وهو طفل. وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 51] أي هديناه صغيرا، قاله مجاهد وغيره. وقال ابن عطاء: اصطفاه قبل إبداء خلقه)(3)

1() العقائد النسفية: 171.
2() شرح التجريد: 464.
3() تفسير القرطبي (16/ 55).

إلى أن قال متحدثا عن رسول الله ﷺ: (وقوله في قصة بحيرا حين استحلف النبي ﷺ باللات والعزى، إذ لقيه بالشام في سفرته مع عمه أبي طالب وهو صبي، ورأى فيه علامات النبوة فأخبره بذلك، فقال له النبي ﷺ: لا تسألني بهما، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما. فقال له بحيرا: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه؟ فقال: سل عما بدا لك. وكذلك المعروف من سيرته ﷺ وتوفيق الله له أنه كان قبل نبوته يخالف المشركين في وقوفهم بمزدلفة في الحج، وكان يقف هو بعرفة؛ لأنه كان موقف إبراهيم ﵇) (1)

وقد نصوا على أنه لم يقل أحد من المذاهب بجواز الكفر على الأنبياء إلا فرقة من الخوارج هي الأزارقة الذين رووا عنهم تجويز الكفر على الأنبياء، مع العلم أن مرادهم من الكفر هو المعصية، لأجل اعتقادهم أنّ كل معصية كفر، يقول بعض الباحثين: (أجمعوا على امتناع الكفر عليهم إلاّ الفضيلية من الخوارج فإنّهم جوّزوا صدور الذنب عنهم، وكل ذنب عندهم كفر، فلزمهم جواز الكفر عليهم)(2)

وهكذا نرى أن الفئة الوحيدة التي تقول بجواز كفر الأنبياء ووقوعه منهم، وتجاهر به هي فئة السلفية، أو بالأحرى تلاميذ ابن تيمية ـ خصوصا ـ من السلفية، لأن هناك من أعلام السلف من خالفهم في بعض ذلك.

وكما أن منهج السلفية في القضايا العقدية هو الرجوع للنصوص المتشابهة، واعتبارها أصلا، ثم تأويل المحكمات على أساسها، فقد اعتبروا قوله تعالى عن شعيب ﵇: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: 88] أصلا، مثلما اعتبروا مقولة فرعون أصلا في القول بالجهة لله تعالى.

وكان في إمكان ابن تيمية أن يفسر هذه الآية الكريمة بحسب أقوال السلف الذين يرجع إليهم كل حين، ويعتبر أقوالهم سنة، والخروج عنها بدعة.

كان في إمكان ابن تيمية أن يفسرها بحسب قول الطبري الذي يحث على الرجوع إليه دوما، فقد قال في تفسير قوله تعالى: (قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا): (يعنون: إلا أن تعودوا في ديننا الذي نحن عليه من عبادة الأصنام. وأدخلت في قوله: (لتعودن) لام، وهو في معنى شرط، كأنه جواب لليمين، وإنما معنى الكلام: لنخرجنكم من أرضنا، أو تعودون في ملتنا. ومعنى (أو) ههنا معنى (إلا) أو معنى حتى كما يقال في الكلام:

---

(1) تفسير القرطبي (16/ 55).
(2) اللوامع الإلهية: 170.

لأضربنك أو تقر لي، فمن العرب من يجعل ما بعد (أو) في مثل هذا الموضع عطفاً على ما قبله، إن كان ما قبله جزماً جزمـوه، وإن كان نصباً نصبوه، وإن كان فيه (لام) جعلـوا فيـه (لامـا)، إذ كانت (أو) حـرف نسـق. ومنهم من ينصـب (مـا) بعـد (أو) بكـل حال، ليعلم بنصبه أنه عن الأول منقطع عما قبله، كما قال امرؤ القيس: بكى صاحبي لما رأى الدرب دونـه... وأيقن أنـا لاحقـان بقيصرا... فقلت له: لا تبك عينك إنمـا... نحـاول ملكـاً أو نمـوت فنعذرا. فنصـب (نمـوت فنعـذرا) وقـد رفـع (نحـاول)، لأنـه أراد معنى: إلا أن نموت، أو حتى نموت، ومنه قول الآخر: لا أستطيع نزوعاً عن مودتها... أو يصنع الحب بي غير الذي صنعا)(1)

ومثلـه أبـو المظفـر السـمعاني، الـذي يعتـبر من أعلام السلفية، كما قـال الـذهبي عنـه، فقـد قـال في ترجمتـه: (ولـه الأمالي في الحديث تعصـب لأهـل الحـديث والسـنة والجماعـة، وكان شوكا في أعين المخـالفين وحجـة لأهـل السـنة)(2)، ومـع ذلك، فقد قال في تفسير الآيـة: (فـإن قيـل: كيـف يصـح لفـظ العود من شـعيب، ولم يكن على ملتهم قـط؟ قيـل: معنـاه: إن صرنا في ملتكم. وعاد بمعنى صار وكان، كما قال الشـاعر: لئن كانت الأيام أحسن مرة... إلي فقد عادت لهن ذنوب. أي: كانت لهن ذنوب)(3)

ومثله قال البغوي الذي أشاد بسنيته ابن تيمية: (العود: قد يكون بمعنى الرجوع.. وقـد يكـون بمعـنى المصـير إليـه ابتـداء. ومنه قوله سـبحانه وتعـالى في قصـة شـعيب صـلى اللـه عليـه وسلم: ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ قال قـوم: معنـاه: لتصـيرن إلى ملتنا، لأن شـعيباً لم يكن قـط في الكفـر. وقيـل: الخطـاب مـع أصحاب شعيب الذين دخلوا في دينه واتبعوه بعد ما كانوا كفاراً)(4)

وقال: (فإن قيل: كيف يخرجونهم من النور إلى الظلمـات، وهم كفـار لم يكونـوا في نـور قـط؟ قيـل: هم اليهـود وكـانوا مؤمـنين بمحمـد ﷺ قبـل أن يبعث لمـا يجـدون في كتبهم من نعمته، فلمـا بعث كفـروا بـه، وقيـل: هـو على العمـوم في حـق جميع الكفار، وقالوا: منعهم إياهم من الدخول فيه: إخراج، كمـا يقول الرجل لأبيه: أخرجتني من مالك. ولم يكن فيـه، كمـا قـال اللـه تعـالى إخبـاراً عن يوسـف ﵇: ﴿إِنِّي تَـرَكْتُ مِلَّةَ قَـوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسـف: 37] ولم يكن

1() تفسير الطبري (16/539-540).
2() سير أعلام النبلاء ج19/ص116.
3() تفسير السمعاني (2/198).
4() شرح السنة (1/49).

قط في ملتهم)(1)

وقال في موضع آخر: (فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا ﴾ [الأعراف: 89]، ولم يكن شعيب قط على ملتهم، حتى يصح قولهم: ترجع إلى ملتنا؟ قيل: معناه: أو لتدخلن في ملتنا، فقال: وما كان لنا أن ندخل فيها. وقيل: معناه: إن صرنا في ملتكم. ومعنى عاد: صار. وقيل: أراد به قوم شعيب، لأنهم كانوا كفاراً فآمنوا، فأجاب شعيب عنهم)(2)

بل صرح بذلك بتصريح ليس فوقه تصريح، فقال: (وأهل الأصول على أن الأنبياء عليهم السلام، كانوا مؤمنين قبل الوحي، وكان النبي ﷺ يعبد الله قبل الوحي على دين إبراهيم، ولم يتبين له شرائع دينه) (3)

لكن ابن تيمية كعادته في الانتقاء يأخذ ممن يسميهم السلف ما يتناسب مع مذهبه.. ومذهبه هنا هو الحط من قيمة الرسل.. ولذلك اختار أن يفسر تلك الآيات الكريمة تفسيرا متناسبا مع تصوره للنبوة.

وبما أن تفسيره للآية عجيب لم يسبق إليه، فقد فصل فيه في كتابه المعنون بهذا العنوان الطويل [تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير فيها القول الصواب بل لايوجد فيها الا ما هو خطأ]، وهو مطبوع ومحقق(4).

وقد قدم لتفسير الآيات الكريمة بقوله: (هذا تفسير آيات أشكلت حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير إلا ما هو خطأ فيها، ومنها قوله: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: 88] الآية وما في معناها)(5)

ثم راح يبرز قدراته الاستنباطية في هذا الجانب، فقال: (التحقيق: أن الله سبحانه إنما يصطفي لرسالته من كان خيار قومه حتى في النسب كما في حديث هرقل. ومن نشأ بين قوم مشركين جهال لم يكن عليه نقص إذا كان على مثل دينهم إذا كان معروفا بالصدق والأمانة وفعل ما يعرفون وجوبه وترك ما يعرفون قبحه، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾

1() تفسير البغوي (1/351).
2() تفسير البغوي (3/257-258).
3() تفسير البغوي (7/201)
4() حققه عبد العزيز بن محمد الخليفة، وطبع في مكتبة الرشد بالرياض، الطبعة الأولى - 1417 هـ، وأصل الكتاب رسالة نال بها الباحث درجة الماجستير في القرآن وعلومه من كلية أصول الدين - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض.
5() مجموع الفتاوى (15/ 30)

[الإسراء: 15]، فلم يكن هـؤلاء مسـتوجبين العـذاب، وليس في هــذا مــا ينفــر عن القبــول منهم؛ ولهــذا لم يــذكره أحــد من المشركين قادحا. وقد اتفقوا على جواز بعثة رسول لا يعرف ما جـاءت بـه الرسـل قبلـه من النبـوة والشـرائع، وأن من لم يقـر بذلك بعد الرسالة فهو كافر، والرسل قبل الوحي لا تعلمه فضلا عن أن تقر بـه.. قـال تعـالى: ﴿يُلْقِي الـرُّوحَ مِنْ أَمْـرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: 15]) (1)

ومثلما دافع عن المعصية، وكونهـا كمـال في حـق الأنبيـاء، راح يـدافع عن كفـرهم، مبينـا أن ذلـك أيضـا كمـال في حقهم، فقال: (والرسول الذي ينشأ بين أهل الكفـر الـذين لا نبـوة لهم يكـون أكمـل من غـيره من جهـة تأييـد اللـه لـه بـالعلم والهـدى وبالنصر والقهر كما كان نوح وإبراهيم)(2)

وقال:(وكذلك من قال: إنه لا يبعث نبياً إلا من كـان مؤمنـاً قبل النبوة. فإن هؤلاء توهموا أن الذنوب تكون نقصاً، وإن تــاب التائب منها. وهذا منشـأ غلطهم، فمن ظن أن صـاحب الـذنوب مع التوبة النصوح يكون ناقصاً؛ فهـو غالـط غلطـاً عظيمـاً، فـإن الذم والعقاب الذي يلحق أهل الذنوب لا يلحق التائب منه شيء أصلاً؛ لكن إن قدم التوبة لم يلحقه شيء، وإن أخـر التوبـة فقـد يلحقه ما بين الذنوب والتوبة من الذم والعقاب ما يناسب حاله. والأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه كانوا لا يؤخرون التوبة؛ بــل يسارعون إليهـا ويسـابقون إليهـا؛ لا يـؤخرون، ولا يصـرون على الذنب، بل هم معصومون من ذلـك، ومن أخـر ذلـك زمنـاً قليلاً، كفر الله ذلك بما يبتليه به، كمـا فعـل بـذي النـون ﷺ هـذا على المشهور أن إلقاءه كان بعـد النبـوة؛ وأمـا من قـال: إن إلقـاءه كان قبل النبوة. فلا يحتاج إلى هذا. والتائب من الكفر والذنوب، قد يكون أفضل ممن لم يقع في الكفر والـذنوب؛ وإذا كـان قـد يكون أفضل فالأفضل أحق بالنبوة ممن ليس مثله في الفضيلة، وقـد أخـبر اللـه عن إخـوة يوسـف بمـا أخـبر من ذنـوبهم، وهم الأسباط الذين نبأهم الله تعالى)(3)

وهكـذا نـرى ابن تيميـة يعتـبر إخـوة يوسـف هم الأسـباط مخالفا بذلك جماهير العلماء، ومن خلال موقفه هذا نرى تصوره للنبوة.. فإخوة يوسف الذين يمثلون الحقد والظلم بأبشع صوره إلى الدرجة التي تركوا فيها أبـاهم كـل تلـك السـنين الطـوال لا يخبرونه عما فعلوه بأخيهم.. ومع ذلـك لا يـرى ابن تيميـة ضـيرا في أن يكونوا من الأنبياء.

1() مجموع الفتاوى (15/ 30)
2() مجموع الفتاوى (15/ 31)
3() مجموع الفتاوى 10/309-210).

وقال في موضع آخر: (فالمؤمنون يستغفرون مما كانوا تاركيه قبل الإسلام من توحيد الله وعبادته، وإن كان ذلك لم يأتهم به رسول بعد كما تقدم. والرسول يستغفر من ترك ما كان تاركه، كما قال فيه: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: 52] وإن كان ذلك لم يكن عليه عقاب)(1)

وقال في موضع آخر: (وأما قولهم: إن شعيباً والرسل ما كانوا في ملتهم قط. وهي ملة الكفر، فهذا فيه نزاع مشهور. وبكل حال، فهذا خبر يحتاج إلى دليل سمعي أو عقلي، وليس في أدلة الكتاب والسنة والإجماع ما يخبر بذلك، وأما العقل: ففيه نزاع. والذي عليه نظار أهل السنة: أنه ليس في العقل ما يمنع ذلك.. وأما تحقيق القول فيه: فالله سبحانه إنما يصطفي لرسالته من كان من خيار قومه.. ومن نشأ بين قوم مشركين جهال، لم يكن عليه منهم نقص ولا بغض ولا غضاضة، إذا كان على مثل دينهم، إذا كان عندهم معروفاً بالصدق والأمانة وفعل ما يعرفون وجوبه واجتناب ما يعرفون قبحه.. فلم يكن هؤلاء مستوجبين العذاب قبل الرسالة، وإن كان لا هو ولا هم يعرفون ما أرسل به. وفرق بين من يرتكب ما علم قبحه، وبين من يفعل ما لم يعرف، فإن هذا الثاني لا يذمونه، ولا يعيبون عليه، ولا يكون فعله مما هم عليه منفراً عنه بخلاف الأول)(2)

وما ذهب إليه ابن تيمية هو ما ذهب إليه خلفه من بعده، فقد صار هذا القول هو المشهور عندهم،وكيف لا يكون مشهورا، وابن تيمية يقول به.

ومن أمثلة ذلك ما قاله صالح آل الشيخ في شرحه للطحاوية، المسمى بـ (إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل)، فقد قال فيه: (القسم الثاني، من جهة الذنوب: الذنوب أقسام: فمنها الكفر وجائز في حق الأنبياء والرسل أنْ يكونوا على غير التوحيد قبل الرسالة والنبوة.. والثاني من جهة الذنوب، فالذنوب قسمان كبائر وصغائر: والكبائر جائزة فيما قبل النبوة، ممنوعة فيما بعد النبوة والرسالة؛ فليس في الرسل من اقترف كبيرة بعد النبوة والرسالة أو تَقَحَّمَها عليهم الصلاة والسلام بخلاف من أجاز ذلك من أهل البدع)(3)

وسئل هذا السؤال: (أشكل عليَّ قولك: النبي قد يكون على غير التوحيد قبل الرسالة؟)، فأجاب بقوله: (نعم النبي قد يكون على غير ذلك، فيصطفيه الله - عز وجل - وينبهه؛ يعني ما فيه مشكل في ذلك، قد يكون غافلا)(4)

1() مجموع الفتاوى (11/690).
2() تفسير آيات أشكلت (1/178-193).
3() إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل، ص: 84.
4() إتحاف السائل بما في الطحاوية من مسائل (ص: 86.

وابن تيمية ومن معه من السلفية لم يستثنوا أحدا من هـذا ــ كمـا ذكرنـا ــ إلا أنبيـاء بـني إسـرائيل.. أمـا غـيرهم فلم يستثنونهم.. حـتى رسـول اللـه ﷺ لم يسـتثنوه من ذلـك الحكم الخطير.. وبذلك قضى رسول الله ﷺ عندهم ما يقرب من ثلثي عمره على الشرك والضلالة.

ولصعوبة طرح مثل هذه المسـائل، فـإن ابن تيميـة يحتـال لها بصنوف الحيل، ليفهم مـراده من غـير تصـريح مباشـر منـه، ومن الأمثلة على ذلك أنه يردد كثيرا حديثا يدل بظاهره على أن زيدا بن عمرو بن نفيل عم عمر بن الخطاب كان أكثر ورعا عن الشـرك وأسـبابه من رسـول اللـه ﷺ، فقـد روى في (اقتضـاء الصراط المستقيم لمخالفـة أصـحاب الجحيم) وغـيره من كتبـه أن رسول اللـه ﷺ لقي زيـد بن عمـرو بن نفيـل بأسـفل بلـدح، وذلـك قبـل أن يـنزل على رسـول اللـه ﷺ الـوحي، فقـدم إليـه رسول الله ﷺ سفرة في لحم. فأبى أن يأكل منها، ثم قال زيد: (إني لا آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا مما ذكر اسم الله عليه)(1)

بل ويضيف إليها كل الروايات التي ورد بها الحـديث ليؤكـد المعنى، فيقـول: (وفي روايـة لـه: وإن زيـد بن عمـرو بن نفيـل كـان يعيب على قـريش ذبـائحهم، ويقـول: الشـاة خلقهـا اللـه، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لهـا من الأرض الكلأ، ثم أنتم تذبحونها على غير اسم الله؟!) إنكارا لذلك وإعظاما له) (2)

بل إنه في كتابه (الفتاوى الكبرى) يدافع عن وقوع الشرك من رسول الله ﷺ بعد البعثة، فقد قال: (وهـذه العصـمة الثابتـة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة؛ فـإن النـبي هو المنبئ عن الله، والرسول هو الذي أرسله الله تعالى، وكـل رسول نبي وليس كل نبي رسـولا، والعصـمة فيمـا يبلغونـه عن الله ثابتة فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين.. ولكن هل يصدر ما يستدركه الله فينسـخ مـا يلقي الشـيطان ويحكم اللـه آياته؟ هذا فيه قولان. والمأثور عن السلف يوافق القرآن بذلك. والذين منعوا ذلك من المتأخرين طعنوا فيمـا ينقـل من الزيـادة في سـورة النجم بقولـه: تلـك الغرانيـق العلى، وإن شـفاعتهن لترتجى، وقالوا: إن هـذا لم يثبت، ومن علم أنـه ثبت: قـال هـذا ألقـاه الشـيطان في مسـامعهم ولم يلفـظ بـه الرسـول. ولكن السؤال وارد على هذا التقـدير أيضـا. وقـالوا في قولـه: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: 52] هو حديث النفس. وأما الذين قرروا ما نقل عن السلف فقالوا هذا منقول نقلا ثابتا

1() اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (2/ 63)

2() اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (2/ 63)

لا يمكن القدح فيه والقرآن يدل عليه بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (53) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (54)﴾ [الحج: 52 -ـ 54] فقالوا الآثار في تفسير هذه الآية معروفة ثابتة في كتب التفسير، والحديث، والقرآن يوافق ذلك فإن نسخ الله لما يلقي الشيطان وإحكامه آياته إنما يكون لرفع ما وقع في آياته، وتمييز الحق من الباطل حتى لا تختلط آياته بغيرها. وجعل ما ألقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض، والقاسية قلوبهم إنما يكون إذا كان ذلك ظاهرا يسمعه الناس لا باطنا في النفس والفتنة التي تحصل بهذا النوع من النسخ من جنس الفتنة التي تحصل بالنوع الآخر من النسخ)(1)

وهكذا نرى ابن تيمية يعتبر نطق الرسول ﷺ بالشرك قول السلف وأنه السنة، بل إنه يراه من كمال الرسول ﷺ ومن أدلة صدقه، فيقول معقبا على كلامه السابق: (وهذا النوع أدل على صدق الرسول ﷺ وبعده عن الهوى من ذلك النوع، فإنه إذا كان يأمر بأمر ثم يأمر بخلافه وكلاهما من عند الله وهو مصدق في ذلك، فإذا قال عن نفسه إن الثاني هو الذي من عند الله وهو الناسخ وإن ذلك المرفوع الذي نسخه الله ليس كذلك كان أدل على اعتماده للصدق وقوله الحق)(2)

وهذا الذي قال به ابن تيمية في حق رسول الله ﷺ ـ وتبعه عليه أتباعه من السلفية ـ يخالف ما عليه الحنابلة، بل يخالف ما عليه الإمام أحمد نفسه الذي يعتبره ابن تيمية ناصرا للسنة وإماما لها، وقد قال الحافظ ابن رجب ـ وهو من أئمة الحنابلة، بل من السلفية المعتبرين ـ في كتابه (لطائف المعارف): (وقد استدل الإمام أحمد رضي الله عنه بحديث (إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم ؏ لمنجدل في طينت).. على أن النبي ﷺ لم يزل على التوحيد مذ نشأ وردَّ بذلك على من زعم غير ذلك. قال الحافظ: بل يستدل بذلك على أنه ﷺ ولد نبياً، فإن نبوته وجبت له من حين أخذ الميثاق، حيث استخرج من صُلب آدم فكان نبياً من حينئذ، لكن كانت مدة خروجه إلى الدنيا متأخرة عن ذلك، وذلك لا يمنع كونه نبياً قبل خروجه كمن يولى ولاية ويؤمر بالتصرف فيها في زمن مستقبل فحكم

1() الفتاوى الكبرى لابن تيمية (5/ 256)
2() الفتاوى الكبرى لابن تيمية (5/ 257).

الولاية ثابت له من حين ولايته وإن كان تصرفه متأخراً إلى حين مجيء الوقت)(1)

ثم نقل عن حنبل قوله: (قلت لأبي عبد الله - يعني الإمام أحمد -: من زعم أن النبي ﷺ كان على دين قومه قبل أن يبعث؟ قال: هذا قول سوء، ينبغي لصاحب هذه المقالة أن يحذر كلامه ولا يجالس. قلت: إن جارنا الناقد أبا العباس يقول هذه المقالة. قال: قاتله الله، وأي شيء أبقى إذا زعم أن رسول الله ﷺ كان على دين قومه وهم يعبدون الأصنام؟ قال الله تعالى مخبراً عن عيسى عليه السلام: وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ [الصف:6]. ثم قال الإمام أحمد: ماذا يحدث الناس من الكلام، هؤلاء أصحاب الكلام من أحب الكلام لم يفلح، سبحان الله لهذا القول، واحتج الإمام أحمد برؤيا أمه النور عند ولادته حتى أضاءت له قصور الشام، قال: وليس ذلك عندما ولدت رأت ذلك. وقيل: وقبل أن يبعث كان طاهراً مطهراً من الأوثان، ثم قال الإمام أحمد: احذروا الكلام فإن أصحاب الكلام لا يؤول أمرهم إلى خير. أخرجه أبو بكر عبد العزيز في كتاب السنة) (2)

ثم عقب ابن رجب على قول أحمد بقوله: (ومراد الإمام أحمد الاستدلال بتقديم البشارة بنبوته من الأنبياء من قبل خروجه إلى الدنيا وولادته، وهذا هو الذي يدل عليه حديث العرباض. انتهى كلام الحافظ ابن رجب ملخصاً. وقد صرح فيه بنص الإمام أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد على الإسلام) (3)

وهكذا نرى الفرق الكبير بين رؤية إمام الحنابلة الإمام أحمد ورؤية ابن تيمية، بل إن السلفية لو صدقوا مع أنفسهم، وطبقوا مقولة الإمام أحمد مع ابن تيمية كما يطبقونها مع الجهمية لزال عنهم الكثير من ذلك التعصب والكبرياء التي نشأت فيهم بسبب غرقهم في محيط ابن تيمية أو في ساحله، كما يذكر عائض القرني.

بالإضافة إلى هذا نرى السلفية يروون في رواياتهم ما يبين أن آدم عليه السلام وقع في الشرك بعد نزوله للأرض، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (189) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: 189، 190]

1() لطائف المعارف لابن رجب (ص: 82)
2() لطائف المعارف لابن رجب (ص: 82)
3() لطائف المعارف لابن رجب (ص: 82)

فقد ذكروا في تفسيرها أن المراد بالنفس الواحــدة: نفس آدم ﵇، وبقوله: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حـواء، ورووا في ذلـك حـديثا مرفوعـا إلى رسـول اللـه ﷺ يقـول: (لمـا حملت حـواء، طـاف بهـا إبليس، وكـان لا يعيش لهـا ولـد، فقـال: سـميه عبـد الحارث، فسمته، فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمـره)(1)

بل رووا في ذلك حـديثا آخـر مرفوعـا إلى النـبي ﷺ يقـول فيه: (خدعهما مرتين، خدعهما في الجنة، وخـدعهما في الأرض)(2)

والعجيب أن رجلا مثل الألوسي، ومـع كونـه من الصـوفية، ولكن نتيجة اختلاطه مع أهل الحديث، وتعظيمه لهم، أو مهادنتـه لهم، وقـع فيمـا وقعـوا فيـه من الإسـاءة للأنبيـاء عليهم الصـلاة والسـلام، فقـد قـال في تفسـيره: (وهـذه الآيـة عنـدي من المشـكلات، وللعلمـاء فيهـا كلام طويـل، ونـزاع عـريض، ومـا ذكرناه، هو الذي يشير إليه الجبـائي، وهـو ممـا لا بـأس بـه بعـد إغضـاء العين عن مخالفتـه للمرويـات.. وقـد يقـال: أخـرج ابن جرير عن الحبر: أن الآية نزلت في تسمية آدم، وحـواء ولـديهما بعبد الحارث، ومثل ذلك لا يكاد يقال من قبل الرأي، وهو ظاهر في كـون الخـبر تفسـيرا للآيـة.. وأنت قـد علمت أنـه إذا صـح الحديث فهو مذهبي، وأراه قد صـح، ولـذلك أحجم كميت قلمي عن الجري، في ميـدان التأويـل، كمـا جـرى غـيره واللـه تعـالى الموفق للصواب)(3)

ولست أدري ـ وهو العالم المحقق ـ كيف يأخذ عقيـدة من حديث ورد بالآحاد، وفيه ما فيه من آثار الإسرائيليات.

ولو أنه طبق مذهب أهل الحديث الذين تأثر بهم، وقـرأ مـا قال ابن كثير فيه، لعـدل عن ذلـك الـورع البـارد، فقـد قـال ابن كثـير بعـد إيـراده للحـديث: (كـان الحسـن يقـول: هم اليهـود والنصـارى، رزقهم اللـه أولادا، فهـودوا ونصـروا، وهـذه أسـانيد صحيحة عن الحسن، رحمه الله، أنه فسر الآية بـذلك، وهـو من أحسـن التفاسـير وأولى مـا حملت عليـه الآيـة، ولـو كـان هـذا الحديث عنده محفوظا عن رسول الله ﷺ، لما عدل عنه هـو ولا غـيره، ولا سـيما مـع تقـواه للـه وورعـه، فهـذا يـدلك على أنـه موقـوف على الصـحابي، ويحتمـل أنـه تلقـاه من بعض أهـل الكتاب، من آمن منهم، مثـل: كعب أو وهب بن منبـه وغيرهمـا)(4)

1() أحمد 5 / 11، والحاكم 2 / 545 وصححه، ووافقه الذهبي، والطبري رقم (15513)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
2() تفسير القرطبي: ج 7 ص 338..
3() تفسير الآلوسي: ج 9 ص 139، 142..
4() تفسير ابن كثير ت سلامة (3/ 527).

ومثل تفسير السلفية لتلك الآية الكريمة نجد تفسيرهم لما قصه القرآن الكريم من قصة إبراهيم ﵇ مع الكواكب، فمع كونها واضحة في أنها أسلوب من الأساليب التي كان يمارسها إبراهيم ﵇ مع قومه لدعوتهم.. مثلما ذكر القرآن الكريم ذلك في قصته مع عبدة الأوثان، كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66)﴾ [الأنبياء: 59 - 66]

لكن كثيرا من السلفية فهموا منها أن إبراهيم ﵇ كان من عبدة الكواكب، ومن بينهم الطبري الذي حكى أقوال الذين فسروا الآيات الكريمة وفق القول بعصمة الأنبياء عن الكفر، فقال: (وأنكر قوم من غير أهل الرواية هذا القول الذي روي عن ابن عباس وعمن روي عنه، من أن إبراهيم قال للكوكب أو للقمر:هذا ربي، وقالوا: غير جائز أن يكون لله نبيٌّ ابتعثه بالرسالة، أتى عليه وقتٌ من الأوقات وهو بالغٌ إلا وهو لله موحدٌ، وبه عارف، ومن كل ما يعبد من دونه برئ. قالوا: ولو جاز أن يكون قد أتى عليه بعض الأوقات وهو به كافر، لم يجز أن يختصه بالرسالة، لأنه لا معنى فيه إلا وفي غيره من أهل الكفر به مثله، وليس بين الله وبين أحد من خلقه مناسبة، فيحابيه باختصاصه بالكرامة. قالوا: وإنما أكرم من أكرم منهم لفضله في نفسه، فأثابه لاستحقاقه الثوابَ بما أثابه من الكرامة. وزعموا أن خبرَ الله عن قيل إبراهيم عند رؤيته الكوكب أو القمر أو الشمس: هذا ربي، لم يكن لجهله بأن ذلك غير جائز أن يكون ربّه، وإنما قال ذلك على وجه الإنكار منه أن يكون ذلك ربه، وعلى العيب لقومه في عبادتهم الأصنام، إذْ كان الكوكبُ والقمرُ والشمسُ أضوأ وأحسنَ وأبهجَ من الأصنام، ولم تكن مع ذلك معبودة، وكانت آفلةً زائلة غير دائمة، والأصنام التي [هي] دونها في الحسن وأصغرَ منها في الجسم، أحقُّ أن لا تكون معبودة)(1)

ثم علق على هذا القول وغيره بقوله: (وفي خبر الله تعالى عن قيل إبراهيم حين أفل القمر: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: 77]، الدليلُ على خطأ

1() تفسير الطبري (11/ 481)

هذه الأقوال التي قالها هؤلاء القوم، وأنّ الصوابَ من القول في ذلك، الإقرارُ بخبر الله تعالى الذي أخبر به عنه، والإعراض عما عداه) (1)

وهكذا فسروا قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: 260]

فقد رووا أن إبراهيم عليه السلام حصل له شك في قدرة الله على إحياء الموتى، ولهذا أراد أن يتأكد، وقد رجح الطبري هذا كما رجحه الكثير من السلفية، بناء على حديث يرفعونه إلى رسول الله ﷺ يقول فيه: (نحن أحق بالشك من إبراهيم، قال: رب أرني كيف تحيي الموتى، قال أولم تؤمن؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي)(2)

بل إنهم يذكرون في هذا أمرا عمليا خطيرا، وهو أن الشك لا يؤثر في الإيمان، ولذلك يعتبرون أن حكاية الله لشك إبراهيم عليه السلام وعدم عقوبته عليه أرجى آية في القرآن الكريم، وقد رووا في ذلك عن سعيد بن المسيب، قال: اتعد عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو أن يجتمعا. قال: ونحن يومئذ شببة، فقال أحدهما لصاحبه: أي آية في كتاب الله أرجى لهذه الأمة؟ فقال عبد الله بن عمرو: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: 53]، فقال ابن عباس: أما إن كنت تقول: إنها، وإن أرجى منها لهذه الأمة قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: 260] (3)

وقد رجح الطبري هذا القول، فقال تعقيبا على الروايات التي أوردها في ذلك: (وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية، ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: (نحن أحق بالشك من إبراهيم، قال: رب أرني كيف تحيي الموتى؟ قال أولم تؤمن؟)، وأن تكون مسألته ربه ما سأله أن يريه من إحياء الموتى لعارض من الشيطان عرض في قلبه، كالذي ذكرنا عن ابن زيد آنفا: من أن إبراهيم لما رأى الحوت الذي بعضه في البر وبعضه في البحر، قد تعاوره دواب البر ودواب البحر وطير الهواء، ألقى الشيطان في نفسه فقال: متى يجمع الله هذا من بطون

1() تفسير الطبري (11/ 485)
2()رواه البخاري (4/ 179، 6/ 39) ومسلم (ص/ 133، 1839) وابن ماجة (ح/ 4026) وأحمد (2/ 326)
3() تفسير الطبري (5/ 489).

هؤلاء؟ فسأل إبراهيم حينئذ ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، ليعاين ذلك عيانا، فلا يقدر بعد ذلك الشيطان أن يلقي في قلبه مثل الذي ألقي فيه عند رؤيته ما رأى من ذلك. فقال له ربه: (أولم تؤمن)؟ يقول: أولم تصدق يا إبراهيم بأني على ذلك قادر؟ قال: بلى يا رب! لكن سألتك أن تريني ذلك ليطمئن قلبي، فلا يقدر الشيطان أن يلقي في قلبي مثل الذي فعل عند رؤيتي هذا الحوت)[1]

وبهذا أعطى السلفية المبرر لكل من يطلب الشواهد الحسية ليؤمن، كما فعل بنو إسرائيل عندما طلبوا أن يروا الله جهرة..

وهكذا يقال في بعض الآيات التي وردت في حق رسول الله ﷺ كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: 6ـ 7]، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: 52]، وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: 86]

فهذه الآيات الكريمة، والتي يستعملها السلفية للتهوين من أمر النبوة، لا تدل على مقصودهم.. ولو في ظاهر ألفاظها.. ولكنهم ـ كما ذكرنا ــ يعتبرون الرواية عن سلفهم هي الأصل الذي يفهم على ضوئه القرآن الكريم، فالقرآن ـ عند السلفية ـ لا يصح فهمه إلا برؤية السلف.. وقد عرفنا من هم سلفهم.

أما القائلون بعصمة الأنبياء، فقد طبقوا على الآيات الكريمة غيرها من الآيات، واستخرجوا منها لآلئ من المعرفة تليق بأولئك الجواهر المقدسة.

ومن أحسن ما قيل في ذلك ما ذكره العلامة الكبير جعفر السبحاني في قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: 7]، فقد ذكر من خلال تحليله لمعنى الضلالة في القرآن الكريم أنها تنقسم إلى قسمين:

قسم: تكون الضلالة فيه وصفاً وجودياً، وحالة واقعية كامنة في النفس، توجب منقصتها وظلمتها، كالكافر والمشرك والفاسق، والضلالة في هاتيك الأفراد صفة وجودية تكمن في نفوسهم، وتتزايد حسب استمرار الإنسان في الكفر والشرك والعصيان والتجرّي على المولى سبحانه، قال الله سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [آل عمران: 178]، فإنّ لازدياد الإثم بالجوارح تأثيراً في زيادة الكفر، وقد وصف سبحانه

[1]() تفسير الطبري (5/ 491)

بعض الأعمال بأنّها زيادة في الكفر، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: 37]

وقسم منه: تكون الضلالة فيه أمراً عدمياً، بمعنى كون النفس فاقدة للرشاد غير مالكة له، وعندئذ يكون الإنسان ضالاً بمعنى أنّه غير واجد للهداية من عند نفسه، وفي الوقت نفسه لا تكمن فيه صفة وجودية مثل ما تكمن في نفس المشرك والعاصي، وهذا كالطفل الذي أشرف على التمييز وكاد أن يعرف الخير من الشر، والصلاح من الفساد، والسعادة من الشقاء، فهو آنذاك ضال، لكن بالمعنى الثاني، أي غير واجد للنور الذي يهتدي به في سبيل الحياة، لا ضال بالمعنى الأوّل بمعنى كينونة ظلمة الكفر والفسق في روحه.

ثم علق على هذا التقسيم بقوله: (إذا عرفت ذلك، فاعلم: أنّه لو كان المراد من الضال في الآية، ما يخالف الهداية والرشاد، فهي تهدف إلى القسم الثاني منه لا الأوّل: بشهادة أنّ الآية بصدد توصيف النعم التي أفاضها الله سبحانه على نبيّه يوم افتقد أباه ثمّ أمّه فصار يتيماً لا ملجأ له ولا مأوى، فآواه وأكرمه، بجدّه عبد المطلب ثم بعمّه أبي طالب، وكان ضالاً في هذه الفترة من عمره، فهداه إلى أسباب السعادة وعرّفه وسائل الشقاء)(1)

ثم ذكر البعد العرفاني لهذا المعنى، والذي على أساسه تفهم أمثال هذه النصوص، فقال: (والالتزام بالضلالة بهذا المعنى لازم القول بالتوحيد الإفعالي، فإنّ كل ممكن كما لا يملك وجوده وحياته، لا يملك فعله ولا هدايته ولا رشده إلاّ عن طريق ربّه سبحانه، وإنّما يفاض عليه كل شيء منه، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15]، فكما أنّ وجوده مفاض من الله سبحانه، فهكذا كل ما يوصف به من جمال وكمال فهو من فيوض رحمته الواسعة، والاعتقاد بالهداية الذاتية، وغناء الممكن بعد وجوده عن هدايته سبحانه يناقض التوحيد الإفعالي الذي شرحناه في موسوعة مفاهيم القرآن) (2)

وما ذكره العلامة السبحاني هو ما دلت عليه النصوص القرآنية الكثيرة التي تذكر كل حين بأن الهداية مكتسبة من الله سبحانه وتعالى، من غير فرق بين الإنسان وغيره، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: 50] وقال: ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: 2، 3]، وقال: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا

(1) عصمة الأنبياء في القرآن الكريم، ص273.
(2) عصمة الأنبياء في القرآن الكريم، ص273.

كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ [الأعراف: 43]، وقال: قُـلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ [سبأ: 50] وغيرها من الآيات الكريمة.

وبذلك فإن الآية على هذا الفهم العرفاني (تهدف إلى بيان النعم التي أنعمها سبحانه على حبيبه منذ صباه فآواه بعد ما صار يتيماً لا مأوى له ولا ملجأ، وأفاض عليه الهداية بعدما كان فاقداً لها حسب ذاتها، وأمّا تحديد زمن هذه الإفاضة فيعود إلى أوليات حياته وأيّام صباه بقرينة ذكره بعد الإيواء الذي تحقّق بعد اليتم، وتمّ بجدّه عبد المطلب فوقع في كفالته إلى ثماني سنين ويؤيّد ذلك قول الإمام أمير المؤمنين ﵇: (ولقد قرن الله به (صلّى الله عليه وآله وسلّم) من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره)(1)

بناء على هذا الفهم التوحيدي العرفاني يمكن تفسير كل الآيات المشكلة على خلاف الطريقة التي فسر بها ابن تيمية ومن تبعه من السلف.

وبذلك يمكن أيضا الجمع بين النصوص التي تدل على أن كل نبي يولد وهو متصف بوصف النبوة، وإنما يؤخر تنفيذها أو يؤخر الإرسال وتكاليفه إلى الأجل الذي يراه الله مناسبا.

1() نهج البلاغة: الخطبة 178، والتي تسمّى بالقاصعة، وانظر: عصمة الأنبياء في القرآن الكريم، ص274.

الذنوب.. والمعاصي

من أكــبر مظــاهر انحــراف المنهج الســلفي عن المنهج القرآني التركيز على ذكر جواز الذنوب والمعاصي على الأنبيـاء، بل محاولة إثبات وقوعها منهم، عند الحديث عن العصـمة، بـدل الحديث عن أسباب العصمة ومظاهرها وكيفية الاسـتفادة منهـا، وبدل الحديث عن تلك المكانـة الرفيعـة للأنبيـاء عليهم السـلام، والـتي جعلتهم محلا للعنايــة الإلهيــة الخاصــة أولا.. ثم محلا لأن يجعلهم اللــه تعــالى مثلا أعلى يمكن للمســلم أن يحتــذي بهم ليتحقق بالقرب الإلهي.

ولـذلك نـرى أن مجـرد طـرح السـلفية لهـذه المسـألة، ومبالغتهم في شأنها بدعة خطيرة تخالف المنهج القــرآني.. لأن القــرآن الكــريم كلــه تحــبيب في الأنبيــاء وتمجيــد لهم وذكــر لمواقفهم الكريمـة في الـدعوة إلى اللـه والتضـحية في سـبيل ذلك.

لكنا إن غادرنا القرآن الكريم، وذهبنـا إلى كتبهم ورواياـاتهم تتغير صورة الأنبياء تغيرا تاما كما سـنرى النمـاذج الكثـيرة على ذلك في هذا الكتاب.

وهـذا الاختلال المنهجي هـو نفسـه الـذي وقعـوا فيـه عنـد حديثهم عن اللـه تعـالى، فبـدل اقتصـارهم على مـا ذكـره اللـه تعالى من أسـمائه الحسـنى مـع مـا فيهـا من قطعيـة وعقلانيـة وتوافق بين المسلمين جميعا، بل بين البشرية جميعــا.. نجــدهم يتركونها، ليسطروا آلاف الصفحات في صورة الله وساقه ويـده ورجله.. وكيف ينزل، وكيف يقعد، وكيف يمشي ويهرول.. ونحــو ذلـك.. ثم يسـطروا بعـدها أحكـامهم القاسـية على منكـر هـذه البدع.

وهكذا الأمر في حديثهم عن عصمة الأنبيــاء، فهم يعتــبرون من الفوارق الأساسية بين من يسمونهم سـنة وبين غـيرهم من أهل البدع هي عدم المبالغة في شأن العصـمة، وقصـرها فقـط على العصمة في التبليغ، ولهذا ـ ومن دون مراعــاة لحســن نيــة القائلين بالعصمة المطلقة ـ يعتبرونهم مبتدعة ومغــالين، مثلمــا اعتبروا المنزهين لله جهمية ومعطلة.

وعندما نترك القــرآن الكـريم، وخلافهم لمنهجـه في طـرح القضية، ونعود إلى ما ذكروه لنرى الفرق بين النبي الذي جوزوا عليه كل شيء، وبين أي إمام من أئمتهم الذين يقدسونهم نجــد الفرق الكبير، والبون الشاسع.

وكمثال على ذلك أننا نجـدهم عنـد حـديثهم عن ابن تيميـة

الذي يعتبرونه شيخ الإسلام يكـادون يسـجدون لـه، بـل يكـادون يذوبون فيه وجدا وشوقا، ونجـدهم يكتبـون آلاف الصـفحات في ذكر مناقبه وفضله ودوره العظيم في خدمة الـدين.. ومن تجـرأ وتحدث عنه بمعشار ما يتحـدثون بـه عن الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسلام، قامت قيامتهم عليـه، واعتـبروه مبتـدعا ومنحرفـا عن السنة، حتى أن الشيخ ابن عثيمين ـ مثله مثل سـائر السـلفية ـ اعتبر ابن تيمية قسيما للجنـة والنـار، حين ذكـر أنـه يشـهد لابن تيمية بالجنة، ويشهد لأعدائه بالنار، فقـال: (وشـيخ الإسـلام ابن تيميـة رحمـه اللـه أجمـع النـاس على الثنـاء عليـه إلا من شـذ، والشاذ شذ في النار، يشهد له بالجنة على هذا الرأي)(1)

وكمثال بسيط على ذلك الوله الذي يصيبهم عنـد ذكـر ابن تيمية، ولا نرى مثله عند الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسـلام الشـيخ عائض القرني، الذي تواضع جـدا أمـام إمامـه الأكـبر ابن تيميـة، فألف كتابا في فضائله ومناقبه التي لا تعد ولا تحصى، ومع ذلك كله ذكر أنه في حديثه عنه لم يبحر في بحره، وإنما اقتصر على الوقوف على ساحله، ولهذا سمى كتابه (على ساحل ابن تيمية)

وقـد أثبت فيـه ــ كمـا يـرى ــ أن ابن تيميـة هـو المـربى والمفسر والمحدث والفقيـه والمنـاظر والمجاهـد والعابـد، وأن مثله كمثل بحر لجى لكنه عذب، محيط هادر لكنه فرات، (وهـل يسـتطيع المـرء - ولـو أجـاد السـباحة - أن يغـوص فى أعمـاق البحـر، أو أن يهبـط إلى قعـر المحيـط؟ كلا لا يسـتطيع، ولكنـه يستطيع أن يطل إطلالة)(2)

لن أتدخل في ما قال هذا السلفي حـول إمامـه الأكـبر ابن تيمية، ولكني فقـط وددنـا لـو أن أمثـال هـذه الكلمـات وغيرهـا قيلت عند الحديث عن عصمة الأنبياء الذين مرغت كرامتهم كما مرغت أخلاقهم في كتب السلفية جميعا.

ففي الوقت الذي يذكرون فيه عن سـليمان عليه السلام وأنـه كـان له مئات النساء، وكان منشغلا بهن انشـغالا كبـيرا.. ولم يكفينـه حتى أرسل إلى ملكة سبأ ليتزوجها.. ويذكرون مع ذلـك قصصـه مع نسائه وولعه بهن.. ويروون في ذلك عن سـلفهم من اليهـود ما يملأون بـه كـل تفاسـيرهم وكتبهم المخصصـة للأنبيـاء عليهم الصلاة والسلام.

في نفس الــوقت نجــدهم عنــد حــديثهم عن ابن تيميــة، يــذكرون شخصـا مختلفـا تمامـا.. حيث يـذكرون رجلا زاهـد إلى درجة أنه في حياته كلها لم يتسن له الوقت ليتزوج.. وكان فوق ذلك كله مشـغولا بفكرتـه وعبادتـه لا يضـيع دقيقـة من عمـره..

1() شرح رياض الصالحين 4/ 570 - 573.

2() على ساحل ابن تيمية، لعائض القرني، ص3، ببعض التصرف.

وهم لا يكتفون بقدراته العلمية، بل يضمون إليها قدراته الأخلاقية التي لا يمكن أن يساويها ـ في تصورهم ـ أو يدانيها ما سطروه عن أنبياء الله تعالى.

ففي الوقت الذي يذكرون فيه أن أنبياء الله في صغرهم وشبابهم يرتكبون الكبائر والصغائر، بل يقعون في الكفر والشرك، نجدهم يقولون عن ابن تيمية ـ بلسان القرني ـ: (كان ابن تيمية من الصغر في عناية الله عز وجل وفي رعايته، فلا تعلم له صبوة، ولا تحفظ له عثرة، لم تنقل له زلة ؛ لأنه عاش في بيت إمامه وعلم وصيانة وديانة، فقد رباه أبوه المفتي الحافظ عبدا لحليم، وكان أعمامه أيضاً من أهل الولاية لله عز وجل، فنشأ بين بيته الطاهر العفيف، وبيت الله العامر المبارك، وحفظ كتاب من الصغر، وتعلم السنة وأخذ الآداب الإسلامية من أهل العلم، وحفظه الله – الحافظ – عن تهور الشباب، وطيش الفتوة، ونزق الصبا، فعاش عفيفاً ديناً مقتصداً صيناً رزيناً عاقلاً محافظاً على الفرائض، معتنياً بالسنن، كثير الأذكار والأوراد،بعيداً عن اللهو وعن البذخ والسرف واللعب وكل ما يشين الرجال، وكل ما يخدش المروءة، وكل ما يذهب الوقار ؛ فصار محل العناية من الأكابر، حتى كان يعرف إذا مر فيقال هذا ابن تيمية ؛ لاشتهاره بين أقرانه بالجد والمثابرة وحب العلم والبراعة في التحصيل، وسرعة الحفظ والذكاء، وجودة الخاطر وسيلان الذهن وقوة المعرفة) (1)

وليت القرني وأمثاله من السلفية عندما يتحدثون عن الأنبياء عليهم السلام يتحدثون بهذه اللغة الممتلئة بالمشاعر.. والتي تجعل من الأنبياء قدوة في أذهان الناس كما أراد القرآن الكريم..

لكنا ــ للأسف الشديد ــ لا نرى ذلك في كتبهم.. لأنهم يخافون أن يقع الناس في الشرك إن أحبوا الأنبياء، وبالغوا في حبهم.. بينما لا يخافون عليهم الشرك إن أحبوا ابن تيمية، وبالغوا في حبه، كما قال القرني متحدثا عنه: (ولا نشكوا تقصيراً في حبه – رحمه الله - لكنا نستغفر الله إن غلونا في التعلق به، كيف ننسى أياديه البيضاء وكلما قلبنا سفراً فإذا هو بين صفحاته بعلمه وحكمته وفقهه واستنباطه، وكلما حضرنا حواراً فإذا اسمه تتقاذفه الألسن، يتقاسمه المتحاورون، كل فريق يقول: أنا أولى به؟!.. كيف لا نعيش معه وقد فرض علينا احترامه، وأمتعنا بحضوره، وآنسنا بذكره الطيب؟ كيف لا نحب من احب الله ورسوله ﷺ؟ كيف لا نتولى من تولى ربه؟، كيف

---

(1) على ساحل ابن تيمية، ص5.

لا نقدر من قدر الشرع؟ كيف لا نجل من أجل الوحي؟)[1]

وعندما خشي أن يتطاول أحد من الناس، ويقول له: ما حاجتنا لكتاب في مناقب ابن تيمية.. نحن في حاجة إلى كتب في مناقب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين أمرنا بنص القرآن الكريم بالاهتداء بهديهم.. يرد على ذلك بقوله: (دوائر المعارف تترجم عن دول بصفحتين وثلاث، ولكنها تتحدث عن ابن تيمية بعشرين صفحة، المجامع العلمية تذكر المصطلحات في سطر، ولكنها تتكلم عن ابن تيمية في ثلاثين سطرا، ولسنا متفضلين على ابن تيمية إذا مدحناه أو ذكرنا مناقبه أو عددنا سجاياه، لكنه متفضل علينا – بعد الله – بفيض علمه، وغيث فهمه، وبركة إنتاجه، ونور آثاره..) [2]

ما ذكرناه من كلام القرني عن ابن تيمية هو مجرد نموذج عن موقف السلفية من أئمتهم، وتعظيمهم لهم في نفس الوقت الذي يعتبرون فيه الحديث عن أنبياء الله بهذه الصفة بدعة من البدع.

والقرني ليس مبتدعا في ذلك المديح، لأن أول ما يتعلمه أي سلفي هو ذلك الفناء في شخص ابن تيمية بعد خلعه لغيره خلعا تاما..

ومن أمثلة سلف القرني في تعظيمهم لابن تيمية قول الحافظ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبدالهادي (ت744) في تعريفه بابن تيمية: (هو الشيخ الإمام الرباني، إمام الأئمة، ومفتي الأمة، وبحر العلوم، سيد الحفاظ، وفارس المعاني والألفاظ، فريد العصر وقريع الدهر، شيخ الإسلام، بركة الأنام، وعلامة الزمان، وترجمان القرآن، عَلَمُ الزهاد، وأوحد العُبَّاد، قامع المبتدعين، وآخر المجتهدين..صاحب التصانيف التي لم يسبق إلى مثلها)[3]

وقال الذهبي: (هذا خط شيخنا الإمام، شيخ الاسلام، فرد الزمان، بحر العلوم، تقي الدين.. وقرأ القرآن والفقه، وناظر، واستدل وهو دون البلوغ، برع في العلم والتفسير وأفتى ودرَّس وله نحو العشرين، وصنف التصانيف وصار من أكابر العلماء في حياة شيوخه، وله المصنفات الكبار التي سارت بها الركبان، ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كراس وأكثر، وفسر كتاب الله تعالى مدة سنين من صدره في أيام الجُمَع، وكان يتوقد ذكاء، وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر

1() على ساحل ابن تيمية، ص3.
2() على ساحل ابن تيمية، ص3.
3() العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، لابن عبد الهادي، نقلا عن الرد الوافر على من زعم أن شيخ الإسلام ابن تيمية كافر، (63)

من مـائتي شـيخ، ومعرفتـه بالتفسـير إليهـا المنتهى، وحفظـه للحديث ورجاله وصحته وسقمه فما يُلحق فيه، وأما نقله للفقـه ومذاهب الصحابة والتابعين فضلًا عن المذاهب الأربعة فليس له فيه نظـير، وأمـا معرفتـه بالملـل والنحـل والأصـول والكلام فلا أعلم له فيه نظيرًا، ويدري جملة صالحة من اللغة وعربيته قوية جـدًّا، ومعرفتـه بالتـاريخ والسـير فعجب عجيب، وأمـا شـجاعته وجهاده وإقدامه فأمر يتجاوز الوصـف ويفـوق النعت، وهـو أحـد الأجواد الأسخياء الـذين يُضـرب بهم المثـل، وفيـه زهـد وقناعـة باليسير في المأكل والملبس)[1]

بعد هذه المقدمـة المنهجيـة الـتي تعجبنـا فيهـا من حـديث السلفية عن الأنبياء بتلك الصفة، وعن طـرحهم لهـذه المسـألة، وبهذه الصورة، نذكر ما قالوه في العصمة، ونقارنه بمـا ورد في القرآن الكريمة، وما ذكره تلاميذه الذين اقتصر تلقيهم عنه.

وبمـا أن ابن تيميـة هـو منظـر مـذهب السـلف بصـورته النهائية، فسنكتفي بذكر ما قاله حول عصمة الأنبياء، ومبرراتهم في ذلك.

فقد حاول ابن تيمية في الكثير من كتبه اقتـداء بسـلفه أن ينتصر للقول بعدم عصمة الأنبياء، ولـو بعـد نبـوتهم، وقـد حشـد لذلك ما يذكره عادة من اتفاق السلف والخلف، وأربـاب الملـل والنحل، يقـول في (مجمـوع الفتـاوى): (إن القـول بـأن الأنبيـاء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف حتى إنـه قـول أكـثر أهـل الكلام كمـا ذكـر أبـو الحسن الآمدي أن هذا قول أكثر الأشعرية، وهو أيضا قول أكـثر أهل التفسير والحديث والفقهـاء، بـل هـو لم ينقـل عن السـلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول ولم ينقل عنهم ما يوافق القول وإنمـا نقـل ذلـك القـول في العصـر المتقـدم عن الرافضـة ثم عن بعض المعتزلـة ثم وافقهم عليـه طائفة من المتأخرين. وعامة ما ينقل عن جمهـور العلمـاء أنهم غير معصـومين عن الإقـرار على الصـغائر ولا يقـرون عليهـا ولا يقولون إنها لا تقع بحال وأول من نقل عنهم من طوائـف الأمـة القول بالعصمة مطلقـا وأعظمهم قـولا لـذلك: الرافضـة فـإنهم يقولـون بالعصـمة حـتى مـا يقـع على سـبيل النسـيان والسـهو والتأويل.. فهـؤلاء وأمثـالهم من الغلاة القـائلين بالعصـمة، وقـد يكفرون من ينكـر القـول بهـا، وهـؤلاء الغاليـة هم كفـار باتفـاق المسـلمين، فمن كفـر القـائلين بتجـويز الصـغائر عليهم كـان مضـاهيا لهـؤلاء الإسـماعيلية والنصـيرية والرافضـة والاثـني

---

[1]() الرد الوافر، (69)

عشرية)(1)

ونحب أن نـذكر تعليقـا على هـذا بـأن المغالطـة الكـبرى الموجودة في هذا الكلام هو عن مفهوم العصمة عند ابن تيميـة وعند سلفه.. فإن كان هذا المفهـوم قاصـرا على تـرك الكبـائر، فإن الأمة جميعا إلا ما شذ منها معصوم.. ولا مزية في هذا.. بل إنهم في تراجمهم لمن يسمونهم أئمة السلف يـذكرون تـنزههم منـذ صـغرهم عن الصـغائر، فكيـف بالكبـائر، في نفس الـوقت الذي يجيزون فيه على الأنبياء الوقوع في الكبائر حال صغرهم.

فمن الأمثلة التي يوردونهـا كثـيرا في خطبهم قولـه: (قـال البخاري: ما اغتبت مسـلماً منـذ احتلمت.. وقـال الشـافعي: لـو أعلم أن الماء يفسد عليَّ مروءتي ما شربته.. وقالوا لمحمد بن واسع: ألا تتكيء، فقال: إنمـا يتكيء الآمن، وأنـا لا زلت خائفـاً.. وحج مسروق فما نـام إلا سـاجداً..).. وهكـذا نجـد أمثـال هـذه الأوصاف عند ذكرهم لأئمتهم المعصومين.

ولم يكتـف ابن تيميـة بمـا ذكـره من اتفـاق سـلفه ومن شـايعهم في هـذه المسـألة، بـل يضـيف إليـه اعتبـار مـا قالـه المنزهـة من تنزيـه الأنبيـاء تحريفـا للـدين، يقـول في (منهـاج السـنة): (تبعهم في هـذا البـاب، بـل كتب التفسـير والحـديث والآثار والزهد وأخبار السـلف مشـحونة عن الصـحابة والتـابعين بمثل ما دل عليه القرآن، وليس فيهم من حرف الآيات كتحريف هؤلاء، ولا من كـذب بمـا في الأحـاديث كتكـذيب هـؤلاء، ولا من قال هذا يمنـع الوثـوق، أو يـوجب التنفـير ونحـو ذلـك كمـا قـال هؤلاء، بل أقوال هؤلاء الذين غلوا بجهـل من الأقـوال المبتدعـة في الإسـلام.. وهم قصـدوا تعظيم الأنبيـاء بجهـل كمـا قصـدت النصارى تعظيم المسـيح وأحبـارهم ورهبـانهم بجهـل، فأشـركوا بهم واتخذوهم أربابا من دون اللـه وأعرضـوا عن اتبـاعهم فيمـا أمروهم به ونهوهم عنه)(2)

وهكذا أصبح تنزيـه الأنبيـاء بدعـة.. وأصـبح رميهم بالكبـائر والصغائر والموبقات عند ابن تيمية والسلفية سنة..

ولـو أننـا بحثنـا جيـدا في مصـدر هـذه المقولـة لوجـدناهم اليهود.. فاليهود الذين تتملذ عليهم أسلاف السـلفية الأوائـل هم الذين رووا تلك الروايات الكثيرة التي استند إليهـا السـلفية في إثبات المعاصي للأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقد ورد في (سـفر الملـوك: إصـحاح 8، عـدد 46): (لأنـه ليس إنسان لا يخطئ)، وورد في (سفر أيوب: إصحاح 15، عدد 14-16) (من هـو الإنسـان حـتى يزكـو، أو مولـود المـرأة حـتى

1() مجموع الفتاوى (4/ 319)

2() منهاج السنة النبوية (2/ 435)

يتبرر؟. هوذا قديسوه لا يأتمنهم، والسماوات غير طاهرة بعينيه، فبالحري مكروه وفاسد الإنسان الشارب الإثم كالماء!)، وورد في (سفر المزامير، المزمور 14،ـ 1:53،ـ 2:53،ـ 3:53) (فسدوا ورجسوا بأفعالهم، وليس من يعمل صلاحا، الله من السماء أشرف على بني البشر لينظر: هل من فاهم طالب الله؟ كلهم قد ارتدوا معا، فسدوا. ليس من يعمل صلاحا، ليس ولا واحد)

وبناء على هذه النصوص وغيرها كثير يقصر اليهود العصمة على التبليغ، يقول ابن كمونه (وأما داود وسليمان فلم يكونا من المعصومين عن الخطأ لأنهما لم يكونا من المرسلين، وإنما يجب عصمة النبي المرسل فيما أرسل فيه، وفيما عدا ففي العصمة شك) (1).

وما ذكره ابن كمونة هو نفس ما يذكره السلفية الذين يقصرون العصمة على التبليغ، يقول الشيخ عبد العزيز بن باز: (قد أجمع المسلمون قاطبة على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام – ولاسيما محمد ﷺ – معصومون من الخطأ فيما يبلغونه عن الله عز وجل.. فنبينا محمد ﷺ معصوم في كل ما يبلغ عن الله قولاً وعملاً وتقريراً، هذا لا نزاع فيه بين أهل العلم)(2)

وقال ابن تيمية: (فإن الآيات الدالة على نبوة الأنبياء دلت على أنهم معصومون فيما يخبرون به عن الله عز وجل فلا يكون خبرهم إلا حقاً وهذا معنى النبوة وهو يتضمن أن الله ينبئه بالغيب وأنه ينبئ الناس بالغيب والرسول مأمور بدعوة الخلق وتبليغهم رسالات ربه)(3)

ولم يكتف السلفية بهذا الاقتباس من أهل الكتاب، بل راحوا في تفاصيل حديثهم عن الأنبياء يذكرون نفس ما يذكره أهل الكتاب، ويصورون الأنبياء بتلك الصورة المشوهة التي صور بها الأنبياء، مبتعدين عن الصورة الجميلة التي صورهم بها القرآن الكريم.

ومن باب الاستدلال على هذا، سنذكر نموذجا يمثل نبيا من أنبياء الله، وكيف صور في القرآن الكريم، وكيف صور في كتب السلفية التي يحثون العامة على قراءتها، وسنرى نماذج أخرى عن سائر الأنبياء وما رموا به من مثالب في الفصول اللاحقة.

والنموذج هو آدم عليه السلام، والذي نجده على ضوء القراءة

1() ابن كمونه، سعد بن منصور، تنقيح الأبحاث للملل الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام، دار الأنصار، ص، 15-18 بتصرف.
2() فتاوى ابن باز ج6/371.
3() مجموع الفتاوى ج18 / 7.

القرآنية إنسانا كاملا آتاه الله أسماء كل شيء، وأسجد له ملائكته، وأدخله الجنة، وفي الجنة نهاه أن يأكل من الشجرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هذه الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (البقرة: 35-36)

وبفهم سطحي لهذه الآيات ــ وبتفسير لها من كتب أهل الكتاب ـ تعلق السلفية الذين لم يحاولوا أن يقرؤوا هذه الآيات قراءة تنزيهية مبنية على مكانة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإنما قرؤوها بتفسير إسرائيلي ممعن في المساس بكرامة الأنبياء، ولذلك راحوا يستخدمون نفس النصوص التي استخدمها اليهود في كتبهم للتعبير عن الحادثة.

ولا بأس من سوق بعض ما ذكروه هنا مع بشاعته، ثم نذكر بعده القراءة التنزيهية للآيات الكريمة كما فهمها تلاميذ القرآن الكريم.

فقد رووا عن ابن عباس قوله: (إن عدو الله إبليس عرض نفسه على دواب الأرض: أيها تحمله حتى تدخل به الجنة حتى يكلم آدم وزوجه، فكل الدواب أبى ذلك عليه، حتى كلم الحية، فقال لها: أمنعك من بني آدم، فأنت في ذمتي إن أنت أدخلتني الجنة، فجعلته بين نابين من أنيابها ثم دخلت به، فكلمهما من فمها وكانت كاسية تمشي على أربع قوائم، فأعراها الله تعالى وجعلها تمشي على بطنها، قال ابن عباس: اقتلوها حيث وجدتموها، واخفروا ذمة عدو الله فيها)(1)

ورووا عن وهب بن منبه قوله: (.. فأكل منها آدم، فبدت لهما سوآتهما، فدخل آدم في جوف الشجرة، فناداه ربه: يا آدم، أين أنت؟ قال: أنا هذا يا رب، قال: ألا تخرج؟ قال: أستحي منك يا رب، قال: ملعونة الأرض التي خلقت منها لعنة حتى يتحول ثمارها شوكا! قال: ولم يكن في الجنة ولا في الأرض شجرة كانت أفضل من الطلح والسدر. ثم قال: يا حواء، أنت التي غررت عبدي، فإنك لا تحملين حملا إلا حملته كرها، فإذا أردت أن تضعي ما في بطنك أشرفت على الموت مرارا، وقال للحية: أنت التي دخل الملعون في بطنك حتى غر عبدي، ملعونة أنت لعنة حتى تتحول قوائمك في بطنك، ولا يكن لك رزق إلا التراب، أنت عدوة بني آدم وهم أعداؤك، حيث لقيت أحدا منهم أخذت بعقبه، وحيث لقيك شدخ رأسك)(2)

1() تاريخ الطبري (1/ 107)
2() تاريخ الطبري 1: 54، ابن كثير 1: 143.

ورووا عن سعيد بن المسيب قوله: (ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل، ولكن حواء سقته الخمر حتى إذا سكر قادته إليها، فأكل منها فلما واقع آدم وحواء الخطيئة، أخرجهما الله تعالى من الجنه وسلبهما ما كانا فيه من النعمة والكرامة، وأهبطهما وعدوهما إبليس والحية إلى الأرض، فقال لهم ربهم: اهبطوا بعضكم لبعض عدو)(1)

وهكذا خالف سلفهم القرآن الكريم في ذكره أن سبب الوسوسة هو إبليس، وأنه وسوس لآدم مباشرة، ولكن هؤلاء يجعلون حواء وسيطا.

ولم يكتفوا بذلك الأثر المروي عن سعيد، بل رووا ما هو أبشع منه عن رسول الله ﷺ، ورووه فوق ذلك في الصحيحين اللذين يعتبرونهما أصح من القرآن الكريم نفسه.

فقد رووا أن رسول الله ﷺ قال: (لولا بنو إسرائيل لم يخبث الطعام ولم يخنز اللحم ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر)(2)

بل رووا أن آدم ﵇ لم يتب إلى الله إلا بعد أن اشترط عليه أن يدخله الجنة، فقد رووا عن رسول الله ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37]: (قال آدم ﵇: أرأيت يا رب إن تبت ورجعت أعائدي إلى الجنة؟ قال: نعم)(3)

وفي رواية عن ابن عباس في تفسير الآية الكريمة: (فقال آدم يا رب ألم تخلقني بيدك؟ قيل له بلى، ونفخت في من روحكم؟ قيل له بلى، وعطست فقلت يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك؟ قيل له: بلى، وكتبت علي أن أعمل هذا؟ قيل له بلى، قال: أفرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم)(4)

بل رووا أن آدم ﵇ ـ والذي صور القرآن الكريم حزنه وألمه على الخروج من الجنة والنزول إلى الأرض ـ بصورة المتثاقل إلى الأرض، والحريص على البقاء فيها إلى الدرجة التي يجحد فيها وعدا وعده لربه، والمشكلة فوق هذا أن الرواية يرفعونها إلى رسول الله ﷺ، بل يفسرون بها القرآن الكريم.

فقد رووا عن ابن عباس أنه قال: (لما نزلت آية الدين قال رسول الله ﷺ: إن أول من جحد آدم، ﵇، أن الله لما خلق آدم، مسح ظهره فأخرج منه ما هو ذارئ إلى يوم القيامة،

1() تاريخ الطبري 1: 55 - 56.
2() رواه البخاري 6 / 261، ومسلم رقم (1470).
3() تفسير ابن أبي حاتم (1/135)
4() المستدرك (2/545)

فجعل يعرض ذريته عليه، فرأى فيهم رجلا يزهر، فقال: أي رب، من هذا؟ قال: هـو ابنـك داود. قـال: أي رب، كم عمـره؟ قـال: ستون عاما، قـال: رب زد في عمـره. قـال: لا إلا أن أزيـده من عمرك. وكان عمـر آدم ألـف سـنة، فـزاده أربعين عامـا، فكتب عليه بذلك كتابا وأشهد عليـه الملائكـة، فلمـا احتضـر آدم وأتتـه الملائكة قال: إنه قد بقي من عمـري أربعـون عامـا، فقيـل لـه: إنـك قـد وهبتهـا لابنـك داود. قـال: مـا فعلت. فـأبرز اللـه عليـه الكتاب، وأشهد عليه الملائكة)(1)

وهكــذا نجــد الروايــات الكثـيرة المنســوبة لمن يســميهم الطبري [السـلف من أهـل العلم]، الـتي لا تختلـف عن الروايـة الموجودة في سفر التكوين، إن لم تكن أبشع منها.

ففي (سفر التكوين، الإصحاح الثاني، إصحاح 2، 15-25): (وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عـدن ليعملهـا ويحفظهـا، وأوصى الرب الإله آدم قائلا: من جميـع شـجر الجنـة تأكـل أكلا، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنـك يـوم تأكـل منها موتـا تمـوت، وقـال الـرب الإلـه: ليس جيـدا أن يكـون آدم وحده، فأصنع له معينا نظيره، وجبل الرب الإلـه من الأرض كـل حيوانات البرية وكل طيور السماء، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حيـة فهـو اسـمها. فـدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البريـة. وأما لنفسه فلم يجد معينا نظيره. فأوقع الرب الإله سـباتا على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما. وبنى الرب الإلــه الضــلع الــتي أخــذها من آدم امــرأة وأحضــرها إلى آدم.. وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإلـه، فقالت للمـرأة: أحقـا قـال اللـه لا تـأكلا من كـل شـجر الجنـة؟ فقـالت المـرأة للحيـة: من ثمـر شـجر الجنـة نأكـل، وأمـا ثمـر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة: لن تموتا! بل الله عالم أنه يــوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عـارفين الخـير والشـر. فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجـة للعيـون، وأن الشجرة شهية للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضا معها فأكل. فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان. فخاطـا أوراق تين وصـنعا لأنفسـهما مـآزر. وسـمعا صـوت الـرب الإلـه ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهـار، فاختبـأ آدم وامرأتـه من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنـة. فنـادى الـرب الإلـه آدم وقال له: أين أنت؟ فقال: سـمعت صـوتك في الجنـة فخشـيت، لأني عريان فاختبأت. فقال: من أعلمك أنك عريـان؟ هـل أكلت

1() أحمد (1/251، 252)، وانظر: تفسير ابن كثير (1/ 722)

من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت. فقال الرب الإله للمرأة: ما هذا الذي فعلت؟ فقالت المرأة: الحية غرتني فأكلت. فقال الرب الإله للحية: لأنك فعلت هذا، ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك. وأضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها. هو يسحق رأسك، وأنت تسحقين عقبه. وقال للمرأة: تكثيرا أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادا. وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك. وقال لآدم: لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلا: لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك. وشوكا وحسكا تنبت لك، وتأكل عشب الحقل. بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها. لأنك تراب، وإلى تراب تعود)

وبهذا النص التوراتي الذي رواه وهب بن منبه وكعب الأحبار وتلامذتهما بعد بعض التحوير يتعلق السلفية، بل يفسرون القرآن الكريم بذلك.

فقد قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: 36] (وقد اختلف أهل التأويل في المعنيِّ بقوله: (اهبطوا)، مع إجماعهم على أن آدم وزوجته ممن عُني به. فحدثنا سفيان بن وكيع.. عن أبي صالح، قال: (آدم وحواءُ وإبليس والحية).. وحدثنا ابن وكيع.. عن السُّدّيّ: (فلعنَ الحية وقطع قوائمها وتركها تمشي على بطنها، وجعل رزقها من التراب. وأهبِط إلى الأرض آدمُ وحواء وإبليس والحية)(1)

وهكذا يمضي يذكر الروايات الكثيرة والطويلة عمن يسميهم السلف، وكان في إمكانه لو أحضر نسخة من الكتاب المقدس، وفسر بها الآيات الكريمة لكان أجدى وأقل تعبا..

ومن هنا يظهر سر تلك العشرات والمئات بل الآلاف من الكتب التي يؤلفها السلفية، فليست سوى أمثال هذا الحشو الذي لا مبرر له.

ولو أنهم بدل كل ذلك الجهل الذي يسمونه علما استفرغوا جهدهم في فهم الآيات الكريمة على ضوء كرامة الأنبياء وعصمتهم، لفتح الله ببركة تنزيههم للأنبياء ما يجعلهم يقرؤون القرآن، وكأنه أنزل عليهم.

بعد هذه القراءة السلفية للآيات الكريمة المتعلقة بآدم عليه السلام، نحب أن نقرأ الآيات نفسها على ما يقوله المنزهة أو

---

(1) تفسير الطبري (1/ 535).

المصوبة الذين يعتقدون العصمة المطلقة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وسنكتفي بنموذج منها لعلم من أعلام الإمامية المعاصرين هو الشيخ جعفر السبحاني الذي تناول تلك الآيات بطريقة علمية منهجية تنزيهية انطلق فيها من (أن النهي ينقسم إلى قسمين: مولوي وإرشادي، والفرق بين القسمين بعد اشتراكهما غالباً في أنّ كلاًّ منهما صادر عن آمر عالٍ إلى مَن هو دونه، هو أنّه الآمر قد ينطلق في أمره ونهيه من موقع المولوية والسلطة، فيأمر بما يجب أن يطاع، كما أنّه ينهى عمّا يجب أن يُجتنب.. وقد ينطلق في ذلك من موقع النصح والإرشاد، والعظة والهداية، من دون أن يتخذ لنفسه موقف الآمر، الواجبة طاعته.. وعند ذلك يترك انتخاب أحد الجانبين للمخاطب ذاكراً له ما يترتّب على نفس العمل من آثار خاصّة، من دون أن تترتّب على ذات المخالفة أيّة تبعة) (1)

ثم ضرب مثالا على ذلك بالطبيب الذي يصف دواءً لمريض ويأمره بتناوله، فلو قام المريض بالطاعة والامتثال، تترتّب عليه الصحّة والعافية، وإن خالف أمر الطبيب لم يترتّب على تلك المخالفة سوى المضاعفات المترتّبة على نفس العمل ؛ وذلك لأنّ الطبيب لم يكتب له تلك الوصفة إلاّ بما أنّه طبيب ناصح ومعالج مشفق.

وبناء على هذا ذكر السبحاني أن (مخالفة النهي عن الشجرة إنّما تُعدّ معصية بالمعنى المصطلح إذا كان النهي مولوياً صادراً عنه سبحانه على وجه المولوية، لا أمراً إرشادياً وارداً بصورة النصح، والقرائن الموجودة في الآيات تشهد بأنّه إرشادي، لا يترتّب على مخالفته سوى ما يترتّب على ذات العمل من الآثار الوضعية والطبيعية، لا مولوي حتى يترتّب عليه وراء تلك الآثار، عقاب المخالفة ومؤاخذة التمرّد)

ومن القرائن التي ذكرها على انطباق ذلك على قصة آدم ﵇(2):

1 ـ لو كان النهي عن الشجرة نهياً مولوياً يجب أن يرتفع أثره بعد التوبة والإنابة، مع أنّا نرى أنّ الأثر المترتّب على المخالفة بقي على حاله رغم توبة آدم وإنابته إلى الله سبحانه، وهذا دليل على أنّ الخروج عن الجنّة والتعرّض للشقاء والتعب، كان أثراً طبيعياً لنفس العمل، وكان النهي لغاية صيانة آدم ﵇ عن هذه الآثار والعواقب، كما إذا نهى الطبيبُ المصابَ بمرض السكر عن تناول المواد السكرية.

1() عصمة الأنبياء ص 94.

2() عصمة الأنبياء ص 96، فما بعدها.

2 ـ إنّ الآيات الواردة في سورة (طه) تكشف النقاب عن نوعية هذا النهي، وتصرّح بأنّ النهي كان نهياً إرشادياً لصيانة آدم ﷺ عمّا يترتّب عليه من الآثار المكروهة والعواقب غير المحمودة، فقد قال سبحانه: ﴿ فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (119)﴾ [طه: 117 ـ 119]، فإنّ قوله سبحانه: (فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى) صريح في أنّ أثر امتثال النهى هو البقاء في الجنّة، ونيل السعادة.

3 ـ إنّه سبحانه ــ بعد ما أكل آدم وزوجته من الشجرة وبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة ـ ناداهما: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: 22]، فإنّ هذا اللسان، لسان الناصح المشفق الذي أرشد مخاطبه لمصالحه ومفاسده في الحياة، ولكنّه خالفه ولم يسمع قوله، فعندئذٍ يعود ويخاطبه بقوله: ألم أقل لك... ألم أنهك عن هذا الأمر؟

4 ـ إنّه سبحانه يبيّن أنّ وسوسة الشيطان لهما لم يكن إلاّ لإبداء ما وُرى عنهما من سوءاتهما حيث يقول: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا ﴾ [الأعراف: 20] وهذا يكشف عن أنّ ما يترتب على الوسوسة ومخالفة آدم ﷺ بعدها لم يكن إلاّ إبداء ما وُري عنهما من السوأة، الذي هو أثر طبيعي للعمل من دون أن يكون له أثر آخر من ابتعاده عن لطفه سبحانه، وحرمانه عن قربه، الذي هو أثر المخالفة للخطابات المولوية.

5 ـ إنّه سبحانه يحكي أنّ وسوسة الشيطان لهما كانت بصورة النصح والإرشاد حيث قال: (وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ) وهذا يكشف عن أنّ خطابه سبحانه إليهما كان بصورة النصح أيضاً، وهذا واضح لمَن له أدنى إلمام بأساليب الكلام.

6 ـ أنّ الظرف الذي تلقّى فيه آدم هذا النهي (النهي عن الأكل من الشجرة) لم يكن ظرف تكليف حتى تُعدّ مخالفته عصياناً لمقتضاه، فإنّ ظرف التكليف هو المحيط الذي هبط إليه مع زوجته بعد رفض النصح، أمّا ذلك المحيط فكان مُعدّاً لتبصير الإنسان بأعدائه وأصدقائه، ودورة تعليمية لمشاهدة نتائج الطاعة وآثار المخالفة، أي ما يترتّب على قبول قوله سبحانه من السعادة، وما يترتّب على قبول قول إبليس من الشقاء، وفي مثل ذلك المحيط لا يُعدّ النهي ولا الأمر تكليفاً، بل يُعد وسيلة للتبصير وتحصيل الاستعداد لتحمّل التكاليف في

المستقبل، وكـانت تلـك الـدورة من الحيـاة دورة إعداديـة لأبي البشر وأمّهم، حتى يلمس الحقائق لمس اليد.

فهذه القرائن التي ذكرها السـبحاني وغيرهـا تـدل بوضـوح على أنّ النهي في هذا المقام كان نهياً إرشادياً لا مولوياً، وكـان الهدف تبقية آدم ﷺ بعيداً عن عوامل الشقاء والتعب، ولكنّه لم يسمع قول ناصحه فعـرّض نفسـه للشـقاء، وصـار مسـتحقّاً لأن يخاطب بقوله سبحانه: (اهْبِطُوا بَعْضُـكُمْ لِبَعْضٍ عَـدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) [البقرة: 36]

أما ما ورد من قوله تعـالى في حـق آدم ﷺ (وَعَصـى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى)، فقد أجاب عنها ـ كما أجاب كل القائلين بالعصمة ـ على أن لفظــة (عصــى) وإن كــانت مســتعملة في مصــطلح المتشـرّعة في الـذنب والمخالفـة للإرادة القطعيـة الملزمـة، ولكنّه اصطلاح مختص بالمتشـرّعة ولم يجـر القـرآن على ذلـك المصطلح، بل ولا اللغة، فإنّ الظاهر من القرآن ومعـاجم اللغـة أنّ العصـيان هـو خلاف الطاعـة، (وعلى ذلـك فيجب علينـا أن نلاحظ الأمـر الـذي خولـف في هـذا الموقـف، فـإن كـان الأمـر مولوياً إلزامياً كان العصيان ذنباً، وإذا كان أمـراً إرشـادياً أو نهيـاً تنزيهياً لم تكن المخالفة ذنباً في المصطلح، ولأجل ذلك لا يصلح التمسّك بهذا اللفظ وإثبات الذنب على آدم ﷺ(1)

أمّا اللفظة الثانية (فغوى) فأجاب عنهـا بـأن (المـراد من الغي في الآيــة هــو خيبــة آدم وخســرانه وحرمانــه من العيش الرغيد الذي كان مجرداً عن الظمأ والعرى، بـل من المنغصـات والمشـقات، وليس كـل خيبـة تتوجّـه إلى الإنسـان ناشـئة من الذنب المصطلح.. ولو سلم أنّ الغي بمعنى الضـلال في مقابـل الرشد، لكن ليس كل ضلال معصـية، فـإنّ من ضـل في طريـق الكسب أو في طريـق التعلّم يصـدق عليـه أنّـه غـوى: أي ضـل، ولكنّه لا يلازم المعصية) (2)

هذا نموذج عن كيفية قراءة النصوص المقدسة بما يتوافق مع عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهي قراءة اســتفادها السبحاني كما استفادها غيره من تلك المعاني النبيلة التي كـان ينشرها أولياء الله من أهل بيت النبوة في مواجهة ذلك الزحـف من الروايات الإسرائيلية التي راحت تخترق الرسـائل المقدسـة التي جاء القرآن الكريم لينشرها.

وسأذكر هنا نموذجا عن ولي من أولياء الله وإمام من أئمة الــدين اتفقت على ولايتــه الأمــة جميعــا، لكن منهم من اكتفى بحبه، ومنهم من راح ينهل من علمه، ويستفيد من منهجه.

---

(1) عصمة الأنبياء ص 94.
(2) عصمة الأنبياء ص 94.

وهـذا الإمـام هـو الإمـام علي الرضـا، والـذي رويت عنـه مناظرة طويلة مع القائلين بالتخطئة، نسوقها هنا باختصار، فقـد سئل ـ حسبما تنص الرواية ـ: يا ابن رسول الله أتقـول بعصـمة الأنبياء؟ قـال: بلى، قـال: فمـا تقـول في قـول اللـه عـز وجـل: (وَعَصَـى آدَمُ رَبَّهُ فَغَـوَى) وقولـه عـز وجـل: (وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْه)، وقوله في يوسف (وَلَقَـدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا)، وقوله في داود (وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاه)، وقوله في نبيـه محمـدٍ (وَتُخْفِي فِي نَفْسِـكَ مَـا اللَّهُ مُبْدِيـهِ وَتَخْشَـى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ)

فقال الإمام الرضا مخاطبا مناظره: (اتـق اللـه ولا تنسـب إلى أنبياء الله الفواحش، ولا تؤول كتاب اللـه برأيـك، فـإن اللـه عز وجل يقول(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)

ثم راح يجيبـه عن شـبهاته، فقـال: (وامـا قولـه عـز وجـل فعصى آدم ربه فغوى فـان اللـه عـز وجـل خلـق آدم حجـة في ارضه وخليفة في بلاده ولم يخلقـه للجنـة وكـانت المعصـية من آدم في الجنة لا في الأرض لتتم مقادير امر الله عز وجـل فلمـا اهبط إلى الأرض جعل حجة وخليفة عصم بقولـه عـز وجـل (إِنَّ اللّـــهَ اصْـــطَفَى آدَمَ وَنُوحًـــا وَآلَ إِبْـــرَاهِيمَ وَآلَ عِمْـــرَانَ عَلَى الْعَالَمِين).

واما قوله عزّ وجلّ (وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْه) انما ظن أن الله عز وجـل لا يضـيق عليـه الا تسـمع قول الله عز وجل (وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَه) اي ضـيق عليه ولو ظن أن الله لا يقدر عليه لكان قد كفر.

واما قوله عز وجـل في يوسـف (وَلَقَـدْ هَمَّتْ بِـهِ وَهَمَّ بِهَـا) فإنها همت بالمعصية وهم يوسـف بـدفعها ان أجبرتـه لعظم مـا داخله.

وأما داود... إنما ظن أن الله لم يخلق خلقـا هـو اعلم منـه فبعث الله إليه الملكين فتسوروا المحـراب فقـالا خصـمان بغى بعضـنا على بعض فـاحكم بيننـا بـالحق ولا تشـطط واهـدنا إلى سواء الصراط إن هذا أخي له تسـع وتسـعون نعجـة ولي نعجـة واحـدة فقـال اكفلنيهـا وعـزني في الخطـاب، فعجـل داود على المدعي عليه فقال لقد ظلمـك بسـؤال نعجتـك إلى نعاجـه ولم يسأل المـدعي البينـة على ذلـك ولم يقبـل على المـدعى عليـه فيقول ما يقول، فقال هـذه خطيئـة حكمـه لا مـا ذهبتم إليـه الا تسمع قول الله عز وجل (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَـةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِـالْحَق)...وأمـا محمـد وقـول اللـه عـز وجـلَ (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَـقُّ أَن تَخْشَاهُ) فإن اللـه عـز وجـل عـرف نبيـه أزواجـه في دار الـدنيا

وأسماء أزواجـه في الآخـرة وأنهن أمهـات المؤمـنين واحـد من سـمى لـه زينب بنت جحش وهي يومئـذ تحت زيـد بن حارثـة فـأخفى اسـمها في نفسـه ولم يبدلـه لكيلا يقـول أحـد من المنافقين انه قال في امرأة في بيت رجل أنها أحد أزواجـه من أمهات المؤمـنين وخشـي قـول المنـافقين قـال اللـه عـز وجـل (وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ) وان الله عز وجل مـا تـولى تـزويج أحـد من خلقه إلا تزويج حواء من آدم ﵇ وزينب من رسول اللـه ﷺ وفاطمة من علي ﵇)[1]

هـذا مجـرد نمـوذج عمـا ورد في القـرآن في حـق الأنبيـاء عليهم الصلاة والسـلام، والقـراءات المتعـددة لـه، وسـنرى في الفصول القادمة نماذج أكثر تفصيلا، ليتبين لنـا من خلالهـا مـدى انحـراف السـلفية عن المفهـوم الـذي عرضـه القـرآن الكـريم للنبوة.

1() بحار الأنوار، ج11، ص: 72، وانظر: قصـص الأنبيـاء عليهم السـلام - الجزائـري - ص 13 - 15..

من القضايا الكبرى التي اهتم بها التراث السلفي العقدي والحديثي والتاريخي المتعلق بالتعريف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام البحث عن عدد نساء كل نبي، وأسمائهن، وأنسابهن، وأولادهن، وفوق ذلك مدى جمالهن، ومدى تعلق النبي بهن.

لأن من ضروريات النبي التي دافع عنها السلفية كثيرا، واتهموا المخالف لها بالبدعة والهرطقة هو كون النبي قويا في شأن النساء.. وربما تكون هذه الناحية هي الوحيدة التي اعتبروا فيها النبي مخالفا للبشر العاديين.. وقد اختلفوا في مدى قوة النبي: هل هي مائة أو مائتين.. أو ألفا أو آلافا.. وربما يكون ذلك بحسب كل نبي، وبحسب ما كان له من النساء والجواري والمحظيات.

وليت التراث السلفي توقف عند هذا.. بل إننا نراه، وإمعانا في إهانة الأنبياء وتدنيسهم يتحدث عن شبقهم الدائم للنساء، وخاصة الجميلات.. فمع كثرة ما لديهم من النساء، إلا أنهم إذا ما رأوا امرأة جميلة استعملوا كل الحيل للحصول عليها.. والحيل الشرعية طبعا، والتي يبررها السلفية بكل صنوف المبررات.

بل إن السلفية أثناء حديثهم عن هذا الشبق الغريزي لهذه الجواهر المقدسة لا يبالون بأن يخالفوا القرآن الكريم في كل ما يورده عن النساء، وعلاقة الأنبياء بهن.. بل إنهم يصورون يوسف ﵇ رمز العفة والطهارة والنقاء بصورة خطيرة تجعله لا يختلف عن أي فاجر وفاسق ومنحرف.

وقد سرى ما ذكروه عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى تعديته إلى نبينا ﷺ، فذكروا في شأنه أيضا ما يستحيا من ذكره(1).

وكل ما ذكروه في هذه الناحية مخالف للقرآن الكريم.. ومخالف لرؤية الفطرة الطاهرة للإنسان الكامل.. ومخالف فوق ذلك لحياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الممتلئة بالعفاف والزهد والانشغال بالله عما سواه.

وحتى نؤكد ما ذكرنا، وحتى لا يصبح ما نسبناه للسلفية مجرد دعوى، فسنذكر هنا ثلاثة نماذج عن أنبياء الله، وعلاقتهم بالنساء في الرؤية السلفية..

والأنبياء الثلاثة هم ــ حسب الترتيب التاريخي: يوسف، وداود، وسليمان.. وقد سبق أن ذكرنا في كتابنا [رسول الله..

(1) ذكرنا الأدلة على ذلك في كتاب [رسول الله.. والقلوب المريضة]

والقلوب المريضة] ما ذكروه من هذه الناحية في حياة رسول الله ﷺ.

يوسف ﵇:

مع أن يوسف ﵇ يمثل في القرآن الكريم الكثير من القيم الإنسانية الرفيعة، التي تتناول الكثير من جوانب الحياة، والتي أشار إليها إخبار القرآن الكريم عند حديثه عن إعداده إعدادا خاصا، حيث ذكر اجتباءه من بداية حياته وصباه، وتعليمه من تأويل الأحاديث، وإتمام نعمته عليه.. إلا أن أهمها جميعا، أو أصلها جميعا هو تلك الروح الطاهرة الممتلئة بالعفاف، والتي صورها القرآن الكريم أحسن تصوير.

وأول تصوير لها هو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله ـ بعد ذكر حادثة الإغواء التي تعرض لها ـ ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24]، فقد علل الله تعالى تلك القوة التي استطاع أن يواجه بها الإغراء بكل جوانبه بكونه من المخلَصين.

فالمخلَصون هم أولئك الطاهرون الذين تخلصوا من رق أنفسهم وشهواتهم، وصاروا أحرارا بعبوديتهم لله وحده، ولذلك لا يستطيع أي شيء في الدنيا ولا في الآخرة أن يأسرهم، بعد أن فنوا في محبوبهم الأول، واستغرقوا في رحلتهم إليه.

هكذا يفهم العارفون يوسف، وهكذا أيضا يعرفون سر نجاته من ذلك الإغواء.. ولذلك أيضا لا يستغربون من فعله.. وكيف يستغربون، وهم يعلمون أن يوسف ﵇ مثله مثل سائر أنبياء الله وأولياء الله لا يغيب الله عنهم لحظة واحدة.

وكيف يغيب وهم في تلك المرتبة التي عبر عنها رسول الله ﷺ فقال: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه)؟

وكيف يعصي الله من يشعر أن الله يراه.. وكيف يعصيه من قلبه في كل لحظة يرى ربه، ويعيش معه؟

بل كيف يعصيه، ومن دونه من الناس ممن لا يصل إلى عشر معشار ما وصل إليه من فضل الله يمكنه أن يتحكم في نفسه في مواضع الإغراء، كما قال ﷺ عند ذكره للسبعة الذين يظلهم الله بظل كرمه الخاص: (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله)(1)؟

هذا هو التفسير القرآني لذلك الموقف العظيم الذي وقفه شاب جميل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى معصية الله.. بعد أن غلقت الأبواب.. وكان هو مجرد عبد من عبيدها لا يملك إلا طاعتها.. وكانت هي فوق ذلك تملك من السلطة ما تقتله أو تعذبه أو تسجنه إن هو رفض طلبها.. ولكنه مع ذلك رفض

(1) البخاري 2/ 143، ومسلم 2/ 715 - 716.

طلبها، وبكل قوة، بل لم يبد لها أي لون من ألوان القبول..
وبعد أن خلعت كل جلابيب الحياء في مرادوتها لـه، وحـتى يتخلص منها توجه إلى الله تعالى بهذا الـدعاء العظيم الـذي هـو شـعار العفـة والطهـارة: ﴿رَبِّ السِّـجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَـدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْـدَهُنَّ أَصْـبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَـاهِلِينَ﴾ [يوسف: 33]
وإنما قال يوسف ﵇ ذلك تواضعا لله وعبوديـة لـه، لأنـه لا يملك من أمره شيئا.. ولذلك ألح على الله في أن يسـجن حـتى يضمن لنفسه الخلاص منهن..
وفي الآيـة الكريمـة دليـل على أن يوسـف ﵇ لم يتعـرض لإغواء امرأة واحدة، بل تعرض لإغواء نساء كثـيرات، ومـع ذلـك أصر على موقفه العظيم في مواجهة الفتنة.
وقد شهد له بهذا النبل وهذه الغيرة امـرأة العزيـز وجميـع النسوة التي قمن بإغرائه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ مَـا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَـقُّ أَنَـا رَاوَدْتُـهُ عَنْ نَفْسِـهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّـادِقِينَ (51) ذَلِـكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْـهُ بِـالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52)﴾ [يوسف: 51، 52]
ولـو أن يوسـف ﵇ أبـدى ولـو طرفـا خفيفـا من الإجابـة لمطالبهن لما قلن هذا.. ولذكرن كل ما حصل منـه.. ولمـا كـان أصـلا طلب من العزيـز أن يـدعوهن ليشـهدن على مـا حصـل بالضبط، كما قال تعـالى: ﴿وَقَـالَ الْمَلِـكُ ائْتُـونِي بِـهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُـولُ قَـالَ ارْجِـعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْـأَلْهُ مَـا بَـالُ النِّسْـوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 50]
هـذه هي الرؤيـة القرآنيـة، وهي نفس الرؤيـة الـتي تبناهـا القائلون بالعصمة المطلقة للأنبياء عليهم السلام، كمـا عـبر عن لسانهم العلامة الطباطبائي بقوله ــ عنـد بيـان أسـرار العصـمة التي واجه بها يوسف عليهم السلام تلك الفتنة العظيمة ـ: (فقد كان يوسف رجلاً، ومن غريزة الرجال الميل إلى النسـاء، وكـان شاباً، بالغاً أشـدّه، وذاك أوان غليـان الشـهوة وفـوران الشـبق، وكان ذا جمال بديع يـدهش العقـول ويسـلب الألبـاب، والجمـال والملاحة يدعوان إلى الهوى.. هـذا من جـانب، ومن جـانب آخـر كان مستغرقاً في النعمة وهنيء العيش، محبوراً بمثـوى كـريم، وذلك من أقـوى أسـباب التهـوّس.. وكـانت الملكـة فتـاة فائقـة الجمال كما هـو الحـال في حـرم الملـوك والعظمـاء، وكـانت لا محالة متزيّنة لما يأخـذ بمجـامع كـل قلب، وهي عزيـزة مصـر ـ ومع ذلك ـ عاشقة له والهة تتوق نفسها إليه، وكانت لها سـوابق الإكـرام والإحسـان والإنعـام ليوسـف، وذلـك كلّـه ممّـا يقطـع

اللسان ويصمت الإنسان وقد تعرّضت له، ودعته إلى نفسها، والصبر مع التعرّض أصعب، وقد راودته هذه الفتّانة وأتت بما في مقدرتها من الغنج والدلال، وقد ألّحت عليه فجذبته إلى نفسها حتى قدّت قميصه، والصبر معه أصعب وأشق، وكانت عزيزة لا يرد أمرها ولا يثنى رأيها، وهي رتبة خصّها بها العزيز، وكان في قصر زاهٍ من قصور الملوك ذي المناظر الرائعة التي تبهر العيون وتدعو إلى كل عيش هنيء.. وكانا في خلوة، وقد غلّقت الأبواب وأرخت الستور، وكان لا يأمن من الشر مع الامتناع، وكان في أمن من ظهور الأمر وانتهاك الستر ؛ لأنّها كانت عزيزة، بيدها أسباب الستر والتعمية، ولم تكن هذه المخالطة فائتة لمرة بل كانت مفتاحاً لعيش هنيء طويل، وكان يمكن ليوسف أن يجعل هذه المخالطة والمعاشقة وسيلة يتوسّل بها إلى كثير من آمال الحياة وأمانيها كالملك والعزّة والمال. فهذه أسباب وأمور هائلة لو توجّهت إلى جبل لهدّته، أو أقبلت على صخرة صمّاء لأذابتها، ولم يكن هناك ممّا يتوهّم مانعاً إلاّ الخوف من ظهور الأمر، أو مناعة نسب يوسف، أو قبح الخيانة للعزيز، ولكن الكل غير صالح لمنع يوسف عن ارتكاب العمل.أمّا الخوف من ظهور الأمر فقد كان في أمن منه، ولو كان بدا من ذلك شيء لكان في وسع العزيزة أن تأوّله تأويلاً كما فعلت فيما ظهر من أمر مراودتها، فكادت حتى أرضت نفس العزيز إرضاءً، فلم يؤاخذها بشيء، وقلبت العقوبة على يوسف حتى سجن. وأمّا مناعة النسب فلو كانت مانعة لمنعت إخوة يوسف عمّا هو أعظم من الزنا وأشد إثماً.. وأمّا قبح الخيانة وحرمتها فهو من القوانين الاجتماعية، وهي إنّما تؤثّر بما تستتبعه من التبعة على تقدير المخالفة ؛ وذلك إنّما يتم فيما إذا كان الإنسان تحت سلطة القوّة المجرية والحكومة العادلة، وأمّا لو أغفلت القوّة المجرية، أو فسقت فأهملت، أو خفي الجرم عن نظرها، أو خرج من سلطانها فلا تأثير حينئذ لشيء من هذه القوانين) (1)

وبعد أن نفى كل ما يمكن أن يكون حاجزا ليوسف عليه السلام عن الوقوع في هذه الخطيئة، ذكر سر العصمة الحقيقي، فقال: (.. فلم يكن عند يوسف ما يدفع به عن نفسه ويظهر به على هذه الأسباب القوية التي كانت لها عليه، إلاّ أصل التوحيد وهو الإيمان بالله، وإن شئت قلت: المحبة الإلهية التي ملأت وجوده وشغلت قلبه، فلم تترك لغيرها محلاً ولا موضع أصبع)(2)

لكن السلفيين ـ الذين بدعوا القائلين بالعصمة المطلقة ـ

1() الميزان: 11/137 ـ 139.
2() الميزان: 11/137 ـ 139.

لم ينظروا إلى جميع هذه المعاني السامية، وكعادتهم بالتعلق بالمتشابه، وتفسيره على حساب المحكم، ركنوا إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ﴾ [يوسف: 24]، فراحوا يستغلونها أقبح استغلال في تشويه صورة هذا النبي الكريم.

فقد فسروها ـ كما فسروا اليد والساق والرجل بالنسبة لله تعالى ـ فجعلوا همها وهمه واحدا.. أي أنه همّ بالمخالطة، وأنّ همّه بها كان كهمّها به، ولولا أنه رأى برهان ربّه لفعل، وقد صانته عن ارتكاب الجريمة ـ بعد الهمّ بها ـ رؤية البرهان.

مع أنه كان يمكنهم أن يفسروها على مقتضى اللغة وعلى مقتضى عصمة الأنبياء بسهولة ويسر.. ولذلك وجوه كثيرة، وبجميعها نطق العرب.

وأبسطها أن يقدروها (لولا أن رأى برهان ربّه لهمّ بها)، لأن ذلك يدل على عدم تحقّق الهم منه لمّا رأى برهان ربّه.

و(برهان ربه) كما فسره القرآن الكريم هو تلك الحجج اليقينية التي تجلّي الحق ولا تدع ريباً لمرتاب، كما قال تعالى: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص: 32]، وقال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء: 174]، وقال: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111]

وهذا البرهان هنا هو (العلم المكشوف واليقين المشهود الذي يجر النفس الإنسانية إلى طاعة لا تميل معها إلى معصية، وانقياد لا تصاحبه مخالفة.. ذلك أن إحدى أسس العصمة هو العلم اليقين بنتائج المآثم وعواقب المخالفة علماً لا يغلب، وانكشافاً لا يقهر، وهذا العلم الذي كان يصاحب يوسف هو الذي صدّه عمّا اقترحت عليه امرأة العزيز)(1)

هذا هو تفسير القائلين بالعصمة المطلقة للهم وللبرهان.. وهو تفسير يتوافق مع القرآن الكريم كما يتوافق مع اللغة العربية.. لكن سلف السلفية لم يلتفتوا إلى هذه المعاني القرآنية واللغوية.. فراحوا يفسرون الآية بالروايات، لأن الروايات والقصص هي الوحيدة التي يسمح عقلهم الخرافي بمرورها.. فالعقل الخرافي لا يفسر الأشياء إلا بالأساطير والقصص والحكايات.

ولهذا نجد مفسرا كبيرا كالطبري عند تفسيره للآية الكريمة ينقل الروايات الكثيرة التي نقلت بعد ذلك إلى كتب التاريخ وقصص الأنبياء.. ومنها نقلت إلى كتب العقائد لتنحرف بالصورة القرآنية ليوسف ﵇ إلى الصورة اليهودية.

1() مفاهيم القرآن: 4 / 385 ـ 392..

ومن تلك الروايات ما وراه عن السدي أنه قال: قالت لــه: يا يوسف، ما أحسن شعرك! ال: هو أوَّل ما ينتــثر من جســدي. قالت: يا يوسف، ما أحسن وجهك! قال: هو للــتراب يأكلــه. فلم تزل حــتى أطمعتــه، فهمَّت بــه وهم بهــا، فــدخلا الــبيت، وغلَّقت الأبواب، وذهب ليحلّ سراويله، فــإذا هــو بصــورة يعقــوب قائمًــا في البيت، قد عضَّ على إصبعه، يقول: (يــا يوســف لا تواقعهــا)، فإنما مثلك ما لم تواقعها مثل الطير في جــو الســماء لا يطــاق، ومثلك إذا واقعتها مثله إذا مات ووقــع إلى الأرض لا يســتطع أن يدفع عن نفسه. ومثلك ما لم تواقعها مثل الثور الصعب الذي لا يُعمل عليه، ومثلــك إن واقعتهــا مثــل الثــور حين يمــوت فيــدخل النَّمل في أصــل قرنيــه لا يســتطيع أن يــدفع عن نفســه، فربــط سراويله، وذهب ليخرج يشتدُّ، فأدركته، فأخذت بمــؤخر قميصــه من خلفه فخرقته، حتى أخرجته منــه وســقط، وطرحــه يوســف واشتدَّ نحو الباب)(1)

وروى عن ابن إسحاق، قال: (أكبَّت عليه - يعــني المــرأة - تُطمعه مرة وتخيفه أخرى، وتدعوه إلى لــذّة من حاجــة الرجــال في جمالها وحسنها وملكها، وهو شاب مســتقبل يجــد من شَــبق الرجال ما يجد الرجل ; حتى رَقَّ لها مما يرى من كَلَفها به، ولم يتخوَّف منها حتى همَّ بها وهمَّت به، حتى خلــوا في بعض بُيوتــه) (2)

وروى عن ابن عباس، أنــه ســئل عن همّ يوســف مــا بلــغ؟ قال: (حَلّ الهِمْيان، وجلس منها مجلس الخاتن) (3)

وروى عن ابن أبي مليكة، قال: سألت ابن عبــاس: مــا بلــغ من همّ يوسف؟ قال: (استلقت له، وجلس بين رجليها)(4)

وبعد أن روى أمثــال هــذا الغثــاء عن جميــع ســلفهم الــذين وكلــوا لهم تفســير القــرآن الكــريم واســتنباط العقائــد منــه من أمثال مجاهــد وقتــادة وعكرمــة وغــيرهم.. طــرح هــذا الإشــكال الخطير، فقال: (فإن قال قائل: وكيف يجوز أن يوصــف يوســف بمثل هذا، وهو لله نبيّ؟)(5)

ثم أجــاب عليــه بقولــه: (قيــل: إن أهــل العلم اختلفــوا في ذلك، فقال بعضــهم: كــان من ابتلي من الأنبيــاء بخطيئــة، فإنمــا ابتلاه الله بها، ليكون من اللــه عــز وجــلّ على وَجَــلٍ إذا ذكرهــا، فيجد في طاعتــه إشــفاقًا منهــا، ولا يتّكــل على ســعة عفــو اللــه ورحمته.. وقال آخرون: بل ابتلاهم الله بــذلك، ليعــرّفهم موضــع

1() تفسير الطبري (16/ 33)، ورواه في تاريخه 1: 173.
2() تفسير الطبري (16/ 34).
3() تفسير الطبري (16/ 35).
4() تفسير الطبري (16/ 35).
5() تفسير الطبري (16/ 37).

نعمته عليهم، بصفحه عنهم، وتركه عقوبتَه عليه في الآخرة.. وقال آخرون: بل ابتلاهم بذلك ليجعلهم أئمة لأهل الذنوب في رَجاء رحمة الله، وترك الإياس من عفوه عنهم إذا تابوا)(1)

وكعادة السلفية في الجمع بين طرحهم لآرائهم، ووصفها بالسنية، ثم ذكر المخالفين لهم بغية التحذير منها، ورميها بالبدعة، فقد قال الطبري بعدما ذكر إجابات أهل العلم من السلفية عن سر تصرفات يوسف ﵇: (وأما آخرون ممن خالف أقوال السلف وتأوَّلوا القرآن بآرائهم، فإنهم قالوا في ذلك أقوالا مختلفة. فقال بعضهم: معناه: ولقد همت المرأة بيوسف، وهمَّ بها يوسف أن يضربها أو ينالها بمكروه لهمِّها به مما أرادته من المكروه، لولا أنّ يوسف رأى برهان ربه، وكفَّه ذلك عما همّ به من أذاها لا أنها ارتدعت من قِبَل نفسها. قالوا: والشاهد على صحة ذلك قوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: 24]،قالوا: فالسوء هُو ما كان همَّ به من أذاها، وهو غير الفحشاء.. وقال آخرون منهم: معنى الكلام: ولقد همت به، فتناهى الخبرُ عنها. ثم ابتدئ الخبر عن يوسف، فقيل: (وهم بها يوسف لولا أن رأى برهان ربه)، كأنهم وجَّهوا معنى الكلام إلى أنَّ يوسف لم يهمّ بها، وأن الله إنما أخبر أنَّ يوسف لولا رؤيته برهان ربه لهمَّ بها، ولكنه رأى برهان ربه فلم يهمَّ بها، كما قيل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: 83])(2)

ثم رد على هذه الأقوال التنزيهية الجارية على وفق مقتضى اللغة، بل على مقتضى القرآن الكريم، فقال: (قال أبو جعفر: ويفسد هذين القولين: أن العرب لا تقدم جواب لولا قبلها، لا تقول: (لقد قمت لولا زيد)، وهي تريد: (لولا زيد لقد قمت)، هذا مع خلافهما جميع أهل العلم بتأويل القرآن، الذين عنهم يؤخذ تأويله) (3)

ولست أدري من أين له هذا المعنى اللغوي، والذي قال به كبار علماء اللغة، وهم أدرى بها، وأكثر تخصصا منه.

وبعد أن فسر الطبري الهم راح يفسر البرهان، فقال: (أما البرهان الذي رآه يوسف، فترك من أجله مواقعة الخطيئة، فإن أهل العلم مختلفون فيه.. فقال بعضهم: نودي بالنهي عن مواقعة الخطيئة) (4)

ثم راح يسوق الروايات الدالة على ذلك(5):

1() تفسير الطبري (16/ 38).
2() تفسير الطبري (16/ 38).
3() تفسير الطبري (16/ 39).
4() تفسير الطبري (16/ 39).
5() انظر هذه الروايات في تفسير الطبري (16/ 39)، وما بعدها.

ومنها ما رواه عن ابن عباس، أنه قال: (نودي: يا يوسف، أتزني، فتكون كالطير وَقَع ريشه، فذهب يطير فلا ريش له؟)، وروى عنه: (لم يُعْطِ على النداء، حتى رأى برهان ربه، قال: تمثالَ صورة وجه أبيه عاضًّا على أصبعه، فقال: يا يوسف، تزني، فتكون كالطير ذهب ريشه؟)، وروى عنه: (نودي: يا ابن يعقوب، لا تكن كالطير إذا زنى ذهب ريشه، وبقي لا ريش له! فلم يطع على النداء، ففُزِّع)، وروى عنه: (نودي: يا ابن يعقوب لا تكونَنّ كالطائر له ريش، فإذا زنى ذهب ريشه ــ أو قعد لا ريش له ــ فلم يُعْطِ على النداء شيئًا، حتى رأى برهان ربه، ففَرِق ففرَّ)

وروى عن قتادة قوله: (نودي يوسف فقيل: أنت مكتوب في الأنبياء، تعمل عمل السفهاء؟)

وروى عن الحسن قوله: (رأى تمثالَ يعقوب عاضًّا على إصبعه يقول: يوسف! يوسف!)

وروى عن القاسم بن أبي بزة قوله: (نودي: يا ابن يعقوب، لا تكونن كالطير له ريش، فإذا زنى قَعَد ليس له ريش. فلم يُعْرِض للنداء وقعد، فرفع رأسه، فرأى وجهَ يعقوب عاضًّا على إصبعه، فقام مرعوبًا استحياء من الله، فذلك قول الله: (لولا أن رأى برهان ربه)، وجهَ يعقوب)

وروى عن سعيد بن جبير: (رأى تمثال وجه يعقوب، فخرجت شهوته من أنامله)، وروى عنه، أنه قال: (رأى صورةً فيها وجه يعقوب عاضًّا على أصابعه، فدفع في صدره، فخرجت شهوته من أنامله. فكلُّ ولد يعقوب وُلِدَ له اثنا عشر رجلا إلا يوسف، فإنه نقص بتلك الشهوة، ولم يولد له غير أحد عشر)

وهكذا أصبح إخوة يوسف ـ بالرؤية السلفية ــ أفضل من أخيهم، وأطهر منه، لأنه هم ولم يهموا، ولهذا أكرموا بالمزيد من الولد على خلافه.

بل إنهم يروون أنه رأي آيات قرآنية، وباللغة العربية، ولست أدري كيف رآها، وهل أنزلت عليه قبل أن تنزل على رسول الله ﷺ.. ولكن لأن العقل السلفي يقبل كل شيء، فقد قبل هذه الروايات أيضا.

ومن تلك الروايات: ما وراه الطبري عن محمد بن كعب، أنه قال: (رفع يوسف رأسه إلى سقف البيت حين همّ، فرأى كتابًا في حائط البيت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 32]) (1)

وروى عن أبي صخر، قال: سمعت القرظي يقول في البرهان الذي رأى يوسف: ثلاث آيات من كتاب الله: (إِنَّ عَلَيْكُمْ

1() تفسير الطبري (16/ 48).

لَحَافِظِينَ) الآية، [سورة الانفطار: 10]، وقوله: (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ) الآية، [سورة يونس: 61]، وقوله: (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) [سورة الرعد: 33]. قال نافع: سمعت أبا هلال يقول مثل قول القرظي، وزاد آية رابعة: (وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا) (1)

وبعد أن أورد الطبري جميع هذه الأقوال وغيرها، قال بورع بارد: (قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر عن همِّ يوسف وامرأة العزيز كل واحد منهما بصاحبه، لولا أن رأى يوسف برهان ربه، وذلك آيةٌ من الله، زجرته عن ركوب ما همَّ به يوسف من الفاحشة، وجائز أن تكون تلك الآية صورة يعقوب، وجائز أن تكون صورة الملك، وجائز أن يكون الوعيد في الآيات التي ذكرها الله في القرآن على الزنا، ولا حجة للعذر قاطعة بأيِّ ذلك كان من أيٍّ. والصواب أن يقال في ذلك ما قاله الله تبارك وتعالى، والإيمان به، وترك ما عدا ذلك إلى عالمه) (2)

هذا هو التفسير السلفي الذي حض عليه ابن تيمية، وحض عليه جميع أبناء المدرسة السلفية، وهو الذي لا يزال منذ ألفه مؤلفه بأكثر من ألف سنة مرجعا لطلبة العلم والباحثين ومن يحبون أن يفهموا القرآن الكريم كما فهمه سلفهم الصالح.

وعلى أساس هذا التفسير نجد تلميذا من هذه المدرسة هو أبو الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي المعروف بابن خمير (المتوفى: 614هـ) يقول في كتابه الذي ألفه للدفاع عن عصمة الأنبياء، والمسمى [تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء] يقول في الدفاع عن هم يوسف ـ كما فسره الطبري ـ: (ومنهم من قال هم هم الفحولية، وذلك أنه كان عليه السلام فحلا شابا خلت به امرأة ذات جمال وغنج وطالبته تلك المطالبة فاهتز هزة الفحل بهز ضروري غير مكتسب، فسمي ذلك الاهتزاز هما لكونه من أسباب الهم.. ويكون الهم على هذا التفسير ضروريا، ولا طلب في الضروريات، وأقول إنه إن كان هم مكتسبا لهمه ولم يفعل فلا لوم ولا ذنب، بدليل الحديث الذي منه قوله عليه السلام: (ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا) معناه لم يكتب له صغيرة ولا كبيرة، وجاء في حديث آخر: أن تارك الخطيئة من أجل الله تكتب له حسنة، بدليل قوله تعالى للملائكة: اكتبوها له حسنة فإنما تركها من جراي، أي من أجلي، وهذا ينظر إلى قول الله تعالى ﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾ وإذا كان هذا في حق الرعية فالأنبياء عليهم السلام

1() تفسير الطبري (16/ 48).
2() تفسير الطبري (16/ 48).

أولى بهذا الترك لا محالة، كيف وقد أثنى الله تعالى عليه ونزهه.. فهذا مما يدل على أنه تركها من أجل الله وأنه مأجور في تركها، وإذا كان هذا فلا ذنب ولا عتب يلحق يوسف ﷺ صغيرا ولا كبيرا، بل يكون مأجورا في الترك)(1)

وهذا الذي ذكره الأموي هو نفس ما ذكره ابن تيمية في تبريره لمعاصي الأنبياء، وبيان أن الكمال في المعصية، كما قال – أثناء رده على القائلين بالعصمة المطلقة للأنبياء-: (ونكتة أمرهم أنهم ظنوا وقوع ذلك من الأنبياء والأئمة نقصا، وأن ذلك يجب تنزيههم عنه، وهم مخطئون إما في هذه المقدمة، وإما في هذه المقدمة.. أما المقدمة الأولى فليس من تاب إلى الله تعالى وأناب إليه بحيث صار بعد التوبة أعلى درجة مما كان قبلها منقوصا ولا مغضوضا منه، بل هذا مفضل عظيم مكرم، وبهذا ينحل جميع ما يوردونه من الشبه، وإذا عرف أن أولياء الله يكون الرجل منهم قد أسلم بعد كفره وآمن بعد نفاقه وأطاع بعد معصيته، كما كان أفضل أولياء الله من هذه الأمة - وهم السابقون الأولون - يبين صحة هذا الأصل)(2)

بل نراه يحاول بكل الوسائل أن يقنع أتباعه بدور المعصية في تحقيق الكمال، فيقول: (والإنسان ينتقل من نقص إلى كمال، فلا ينظر إلى نقص البداية، ولكن ينظر إلى كمال النهاية، فلا يعاب الإنسان بكونه كان نطفة ثم صار علقة ثم صار مضغة، إذا كان الله بعد ذلك خلقه في أحسن تقويم.. فمن يجعل التائب الذي اجتباه الله وهداه منقوصا بما كان من الذنب الذي تاب منه، وقد صار بعد التوبة خيرا مما كان قبل التوبة، فهو جاهل بدين الله تعالى وما بعث الله به رسوله، وإذا لم يكن في ذلك نقص مع وجود ما ذكر فجميع ما يذكرونه هو مبني على أن ذلك نقص، وهو نقص إذا لم يتب منه، أو هو نقص عمن ساواه إذا لم يصر بعد التوبة مثله، فأما إذا تاب توبة محت أثره بالكلية وبدلت سيئاته حسنات فلا نقص فيه بالنسبة إلى حاله، وإذا صار بعد التوبة أفضل ممن يساويه أو مثله لم يكن ناقصا عنه)(3)

بل إنه فوق ذلك كله يعتبر تنزيه الأنبياء عن المعاصي غضا من مرتبتهم، وسلبا للدرجة التي أعطاهم الله، يقول في ذلك: (وجوب كون النبي لا يتوب إلى الله فينال محبة الله وفرحه بتوبته وترتفع درجته بذلك ويكون بعد التوبة التي يحبه الله منه خيرا مما كان قبلها فهذا مع ما فيه من التكذيب للكتاب والسنة

1() تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء (ص: 47).
2() منهاج السنة النبوية (2/ 430)
3() منهاج السنة النبوية (2/ 434)

غض من مناصب الأنبياء وسلبهم هذه الدرجة ومنع إحسان الله إليهم وتفضله عليهم بالرحمة والمغفرة)(1)

داود ﵇:

عندما نقرأ داود ﵇ من خلال القرآن الكريم تبدو لنا صورة جميلة لنبي عظيم ممتلئ بالشكر والعفاف والطهر، فهو منشغل بتسبيحه الجميل لله، والذي تتجاوب معه لرقته وعذوبته وطهره الجبال والطير.. وهو ـ مع الملك الذي آتاه الله، والتسخيرات العظيمة التي سخرت له ـ كان يعمل كسائر الناس بيده في تليين الحديد، ليأكل الحلال الصرف الذي لا شبهة فيه، وليكون مثلا أعلى لأمته التي كلف بقيادتها.

لقد أشار الله تعالى إلى هذه المعاني السامية في شخصية داود ﵇، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (10) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (11)﴾ [سبأ: 10، 11]، وقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (80)﴾ [الأنبياء: 79، 80]، وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (15) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: 15، 16]

بل إن القرآن الكريم يشير إلى أنه جعل داود ﵇ خليفة.. فهو خليفة بجعل إلهي، لا باختيار بشري.. وهذا يعني أنه تتوفر فيه كل صفات الخليفة النظرية والعملية، ولذلك فإنه لابد أن تتوفر فيه كل القيم النبيلة، لأن الخلافة الإلهية تقتضي ذلك، فالجور والظلم والانحراف.. كل ذلك يحول بين الخليفة وأداء وظيفته التي كلف بها.

قال تعالى: ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: 26]

وكان الأصل في المدرسة السلفية أن تحاكم كل ما ورد عن داود ﵇ من روايات في ضوء هذه الآيات المحكمات الواضحات.. لكنها لم تفعل إذ أنها راحت تبحث عن ثغرة من المتشابه يمكنها أن تشوه بها كل تلك المعاني السامية التي أراد القرآن الكريم من خلال عرضها على هذه الأمة أن يكون فيها أمثال داود من الممتلئين بالعدالة والشكر والنبل والعفاف.

1() منهاج السنة النبوية (2/ 397)

وقد وجدت تلك الثغرة في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (22) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (23) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (24) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (25)﴾ [ص: 21 - 25]

ومع أن الآيات الواضحة في دلالتها من خلال ظاهر ألفاظها، وهي تنسجم تماما مع تلك الشفافية الروحية التي وصفه الله بها.. خاصة وأن الله تعالى قدم لذلك بقوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (17) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (18) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (19)﴾ [ص: 17 - 19]

وهي آيات كريمة تشير إلى تلك الشفافية، وتشير معها إلى ذلك التحليق الروحي الجميل الذي تجاوبت له الكائنات من حوله، والذي لم يمنعه من أداء وظيفته المرتبطة بالرعية والخلافة عليها.

ولذلك بمجرد أن تسور الرجلان عليه المحراب، وأخبره أولهما بالظلم الذي لحق به، سارع فانتصر له، مثلما فعل قبل ذلك أخوه موسى ﷺ حين سارع لنصرة المستضعف.. وهنا عاتبه الله لأنه لم يستمع للثاني من الخصمين..

ولكونه أوابا وصاحب روحانية عالية، فقد تأثر لذلك العتاب تأثرا شديدا، وهوى ساجدا لله بكل رقة وعبودية وخضوع.

هذه هي الدلالة الظاهرة للقصة كما وردت في القرآن الكريم، وهذا هو تفسير القائلين بالعصمة المطلقة لها.. وهو تفسير يتوافق مع القرآن الكريم كما يتوافق مع اللغة العربية.. لكن سلف السلفية لم يلتفتوا إلى هذه المعاني القرآنية واللغوية.. فراحوا يفسرون الآيات الكريمة بالروايات والقصص.. فالعقل الخرافي لا يفسر الأشياء إلا بالأساطير والقصص والحكايات.

ومثلما فعلنا عند حديثنا عن يوسف ﷺ من الاقتصار على نموذج من النماذج المعتبرة لدى السلفية، وهو تفسير الطبري، باعتباره أهم تفسير مسند يحكي آراء السلف.. وباعتبار ثناء السلفية عليه، وخاصة ابن تيمية الذي اعتبر صحته وسنيته وسلفيته.. وباعتبار عدم استطاعتنا الإحاطة بكل ما ذكرته كتب

السلفية في هذه الناحية.
وقد قدم الطبري للروايات التي أوردها في هذا بخلاصة رأيه فيها ورأي السلف، فقال: (القول في تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾، وهذا مثل ضربه الخصم المتسوّرون على داود محرابه له، وذلك أن داود كانت له فيما قيل: تسع وتسعون امرأة، وكانت للرجل الذي أغزاه حتى قُتل امرأة واحدة; فلما قتل نكح فيما ذكر داود امرأته، فقال له أحدهما: (إِنَّ هَذَا أَخِي) يقول: أخي على ديني)[1]
ومن العجب أن الذين ينكرون القول بالمجاز والكناية وغيرها في حق الله تعالى حتى لو أدى ذلك للتجسيم، نراهم هنا يفسرون [النعجة] بالمرأة من باب الكناية، يقول الطبري: (وإنما كنى بالنعجة ها هنا عن المرأة، والعرب تفعل ذلك، ومنه قول الأعشى:
قَدْ كُنْتُ رَائِدَهَا وَشاةِ مُحَاذِرٍ... حَذرًا يُقِلُّ بعَيْنِهِ إغْفَالَهَا
يعني بالشاة: امرأة رجل يحذر الناس عليها، وإنما يعني: لقد ظلمت بسؤال امرأتك الواحدة إلى التسع والتسعين من نسائه)[2]
وهذا يرينا المكاييل المزدوجة التي يمارسها السلفية، حيث يرفضون الاستدلال بالشعر ونحوه لبيان الكناية والاستعارة ونحوها، كما عرفنا ذلك في ردهم لاستدلال المنزهة بقول الشاعر:
قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق
لكنهم عندما يحلو لهم.. أو يكون الشعر في مصلحتهم يستدلون به.. وكيف لا يستدلون به، وهم السنة والسلف الذين أحل لهم ما حرم على غيرهم.
وبعد أن مهد الطبري بكل هذه التمهيدات، فأصبح نص الآية بالفهم السلفي يدل على أن النعجة ليست سوى امرأة، وأصبح لداود ﵇ تسعة وتسعين نعجة.. عفوا امرأة.. بموجب ذلك.. وفوق ذلك لم تكفه تلك النساء جميعا، فراح يضم امرأة أخرى لرجل آخر لا يملك غيرها.
بعد أن مهد لهذا، أخذ يذكر الروايات عن السلف من أهل العلم المعتبرين التي تفسر ذلك، وقد بدأها بما رواه عن ابن عباس أنه قال: (إن داود قال: يا رب قد أعطيت إبراهيم وإسحاق ويعقوب من الذكر ما لوددت أنك أعطيتني مثله، قال الله: إني ابتُليتهم بما لم أبتلك به، فإن شئت ابتُليتك بمثل ما

1() تفسير الطبري (21/ 177).
2() تفسير الطبري (21/ 179).

ابتُليتهم به، وأعطيتك كما أعطيتهم، قال: نعم، قال لـه: فاعمـل حتى أرى بلاءك; فكان ما شاء الله أن يكون، وطال ذلـك عليـه، فكاد أن ينساه; فبينا هو في محرابه، إذ وقعت عليه حمامـة من ذهب فـأراد أن يأخـذها، فطـار إلى كـوّة المحـراب، فـذهب ليأخذها، فطارت، فاطلع من الكوّة، فرأى امرأة تغتسـل، فـنزل نبي الله صَـلَّى اللـه عَلَيْـهِ وَسَـلَّم من المحـراب، فأرسـل إليهـا فجاءتـه، فسـألها عن زوجهـا وعن شـأنها، فأخبرتـه أن زوجهـا غـائب، فكتب إلى أمـير تلـك السَّـرية أن يُـؤَمِّره على السـرايا ليهلك زوجها، ففعل، فكان يُصاب أصحابه وينجو، وربما نُصـروا، وإن اللــه عــزّ وجــلّ لمــا رأى الــذي وقــع فيــه داود، أراد أن يسـتنقذه; فبينمـا داود ذات يـوم في محرابـه، إذ تسـوّر عليـه الخصمان من قبل وجهه; فلما رآهمـا وهـو يقـرأ فـزع وسـكت، وقال: لقد استضعفت في ملكي حتى إن الناس يسـتوّرون عليّ محرابي، قالا له: (لا تَخَفْ خَصْـمَانِ بَغَى بَعْضُـنَا عَلَى بَعْضٍ) ولم يكن لنا بد من أن نأتيك، فاسمع منا; قال أحدهما: (إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً) أنثى (وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَـالَ أَكْفِلْنِيهَـا) يريـد أن يتمم بهـا مئـة، ويتركـني ليس لي شـيء (وَعَـزَّنِي فِي الْخِطَابِ) قال: إن دعوت ودعا كان أكـثر، وإن بطشـت وبطش كان أشد مني، فذلك قوله (وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ) قال لــه داود: أنت كنت أحوج إلى نعجتك منه (لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِـكَ إِلَى نِعَاجِهِ).. إلى قوله (وَقَلِيلٌ مَا هُمْ) ونسي نفسه صَلَّى الله عَلَيْـهِ وَسَلَّم، فنظر الملكان أحدهما إلى الآخر حين قال ذلك، فتبسـم أحدهما إلى الآخر، فرآه داود وظن أنما فتن (فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ) أربعين ليلة، حتى نبتت الخُضرة من دمـوع عينيـه، ثم شدّد الله له ملكه)(1)

بل رفعوا الحديث إلى رسول اللـه ﷺ، فقـد رووا عن أنس قال: سمعت رسـول اللـه ﷺ يقـول:(إن داود النـبي صـلى اللـه عليــه وســلم حين نظــر إلى المــرأة فــأهم، قطــع على بــني إسرائيل، فأوصى صاحب البعث، فقال: إذا حضر العدو، فقـرب فلانا بين يدي التابوت، وكان التابوت في ذلـك الزمـان يستنصـر به، ومن قدم بين يدي التابوت لم يرجع حتى يقتل أو يهزم عنـه الجيش، فقتل زوج المرأة ونزل الملكان على داود يقصان عليه قصته، ففطن داود فسجد، فمكث أربعين ليلة ساجدا حـتى نبت الزرع من دموعه على رأسه) (2)

وقـد قـام الأمـوي السـلفي الـذي ألـف كتابـا حـول [تنزيـه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء] ببيان التبريرات السـلفية

1() تفسير الطبري (21/ 181).
2() تفسير الطبري (21/ 187).

لهذه الاتهامات العظيمة الموجهة لنبي الله داود ﷺ.. وقد كان يمكنه بدل كل ذلك التكلف أن يرميها عرض الجدار، ولكن الخوف من الرد على السلف جعلته يتكلف تكلفا ممقوتا.

وسنسوق هنا ما قاله لنرى بأعيننا كيف يوجه السلفية الأمة أخلاقيا من خلال قصص الأنبياء.

وقد بدأ الأموي تنزيهه لداود ﷺ بقوله: (اعلموا أحسن الله إرشادنا وإياكم أن كل من تكلم في هذه القصة بما صح في حق داوود ﷺ، وبما لم يصح إنما بنوه على أس هذه الخمس كلمات التي هي ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ و ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾ و﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ﴿ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ﴾ وهي بحمد الله تخرج له على مذهب أهل الحق بأجمل ما ينبغي له وأكمله والله المستعان)(1)

ثم بدأ بالتبريرات المرتبطة بكل واحدة من تلك الكلمات:

أما الأولى، وهي ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾، فقد بررها بقوله: (فهذا بمعنى أنزل لي عنها بطلاق وأتزوجها بعدك، وهذا من القول المأذون في فعله وتركه ومباح أن يقول الرجل لأخيه أو صديقه: انزل لي عن زوجك، بإضمار إن شئت، وهذا بمثابة من يقول لصاحبه أو أخيه: بع مني أمتك إن شئت، وهذا قول مباح، ليس بمحظور في الشرع، ولا مكروه، ومن ادعى حظره أو كراهته في الشرع فعليه الدليل، ولا دليل له عليه، كيف وقد جاء في الصحيح أن النبي ﷺ لما واخى بين سعد بن الربيع وبين عبد الرحمن بن عوف قال له الأنصاري: لي كذا وكذا من المال أشاطرك فيه، ولي زوجان أنزل لك عن إحداهما، فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك، أرني طريق السوق، ووجه الاستدلال بهذا الحديث قوله بين يدي النبي ﷺ أنزل لك عن إحداهما فأقره النبي ﷺ على هذا القول، ولم ينكره عليه، وهو لا يقر على منكر، وهو المعلم الأكبر ﷺ فلم يبق إلا الإباحة، لكن تركها بمعنى الأولى والأحرى في كمال منصب النبوة كان أولى وأتم)(2)

وهكذا استطاع الأموي أن يستخرج من القصة هذه السنة، وهي أن يذهب أي رجل من الناس لأخيه أو صديقه، ويطلب منه أن يتنازل له عن زوجته، ليتزوجها.. لأنه لا حرج في ذلك.. والرواية السلفية تدل عليه.

أما الثانية، وهي ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾، فقد بررها بقوله: (أي غلبني، فنزلت له عنها، فهو غلب الحشمة، لا غلب القهر، لعظم منزلة السائل في قلب المسؤول، ولا غلب الحس بالقهر

1() تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء (ص: 31).
2() تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء (ص: 32).

المنهي عنه، فإنه ظلم منهي عنه شرعا تتحاشى عنه الأنبياء عليهم السلام كما تقدم، فإن قيل: كان داوود ﷺ خليفة وصاحب سيف، والمطلوب منه رعية، ومن شأن الرعية هيبة الملوك والمبادرة لقضاء حوائجهم لكونهم قاهرين لهم فيقضون حوائجهم باللين خوفا من العنف والإكراه، وفي سؤال داوود ﷺ حمل على المسؤول من هذا الباب، قلنا: صحيح ما اعترضت به إلا أن هذا الحمل على المسؤول لا يتصور إلا فيمن عهد منه الظلم والغصب من الأمراء، وأما من عهدناه العدل والإحسان كخلفاء الصحابة والتابعين لهم بإحسان فلا يتصور ذلك في حقهم إذا منعوا المباحات، وإذا لم يتصور ذلك في حقهم مع عدم العصمة فما ظنك بالمعصومين المنزهين عن الخطايا تنزيه الوجوب كما تقدم، فبطل اعتراض هذه القولة في حق داوود ﷺ في هذا الباب)[1]

وهكذا استطاع الأموي، وبهذه التبريرات الغريبة التي لا يقبلها إلا عقل سلفي أن يدافع عن عدالة رجل يملك تسعة وتسعين امرأة، ومع ذلك راح يطلب من صديقه وأخيه امرأته الوحيدة ليضمها إلى ما عنده من نساء، ثم يطلب من ذلك الرجل أن يصفي قلبه له باعتباره نبيا، بل يطلب منه فوق ذلك أن يصفه بالعدل، ويتنازل له باللين بدل العنف.. لأنه لا يستقيم معه العنف.

أما الثالثة، وهي ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾، فقد احتال لها لأموي بذكره ـ أولا ـ لاعتراض بشأنها نص عليه بقوله:)كيف يكون داوود ﷺ من خلف الله في أرضه ويقطع على الظلم بقول الواحد قبل أن يسمع قول الآخر؟)[2]

ثم أجاب على هذا الاعتراض بقوله: (فالجواب عن هذا يتصور من وجهين: أحدهما أنه سمع من الآخر حجة لا تخلصه، فقال للأول ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾، أو صدقه الآخر في قوله فقال للأول ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾، والثاني أن يقول ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾بإضمار إن كان حقا ما تقول، وهذا سائغ، وأما أن يقول له ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ من غير أن يسمع حجة الآخر فهذا لا نسوغه في حق عاقل منصف فكيف في حق من آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.. ألا ترى موقف يعقوب ﷺ لما جاءه بنوه عشيا يبكون وهم جماعة فقالوا ما قالوا فقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ [يوسف: 18] ولم يقبل أقوالهم ولا دموعهم بغير دليل، فكيف يقبل داوود ﷺ قول الخصم من غير حجة حتى يقول له ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ هذا لا يصح في حقه، وأما قوله

1() تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء (ص: 33)
2() تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء (ص: 34)

للخصم ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾، فعنى به بخسك وغبنك في قول كان غيره من المباحات أولى بك منه، وحد الظلم في اللسان وضع الشيء في غير موضعه، وقد قدمنا أن قول قائل لغيره أكفلني زوجك ليس بظلم منهي عنه شرعا، فلم يبق إلا ما ذكرناه في حقه)(1)

أما الرابعة، وهي ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، فقد احتال لها لأموي بقوله: (.. فيخرج البغي مخرج الظلم حرفا بحرف فإنه إذا ساغ في اللسان والمعتاد أن يسمى مالك الكثير إذا طلب من المقل قليله ظالما، فلا غرو أن يسمى باغيا، ولو أن رجلا كان له عبدان مطيعان له مستقيمان غاية ما يمكنهما من وجوه الاستقامة، فأحسن إلى أحدهما وأعطاه ووسع عليه ورفه معيشته، ولم يحسن للآخر بعين ما ألزمه الله مما يتعين للعبيد على السادة، لسمى العقلاء هذا السيد ظالما باغيا من حيث إنه أحسن لأحدهما ولم يحسن مع الآخر مع تساويهما في الطاعة والنصيحة، والسيد مع هذا التخصيص بالإحسان لأحدهما لم يأت في الشرع بمحظور ولا بمكروه، بل كل ما فعل معهما مباح له فهذا وجه من وجوه التخلص من هذه الأقوال، وأنها مباحة لقائلها وفاعل ما وقع منها من غير أن يلحقه ذم من الشرع ولا ثلب)(2)

وهكذا استطاع الأموي أن يستخرج من القصة هذه الفائدة العملية البديعة، وهي تشريع الجور ما دام الجائر يتصرف في ملكه..

أما الخامسة والأخير، فهي ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾، وقد احتال لها بقوله: (فمقصوده الأكابر الأفراد من المحسنين المؤثرين فإنهم يحسنون في المباحات كإحسانهم في المشروعات فيتعاونون في العشرة ويتناصفون في الخلطة كما قال تعالى ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: 9]، ثم قال: ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾، فإنهم الكبريت الأحمر)(3)

وهكذا استطاع الأموي أن يبرهن من خلال قصة داود ﷺ على أن من الإيثار تنازل الرجل لأخيه وصديقه عن زوجته إذا ما أعجبته.. وأن مثل ذلك في الناس كمثل الكبريت الأحمر في أهميته وندرته.

هذا مجرد مثال عن العقل السلفي، وكيف يخرب كل الأخلاق والقيم والإنسانية وكل شيء من أجل أن يحافظ على تلك الأسانيد التي يقوم عليها بنيان دينه الهش.

1() تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء (ص: 35)
2() تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء (ص: 36)
3() تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء (ص: 36)

سليمان ﵇:

يقترن اسم سليمان ﵇ مع اسم أبيه داود في القـرآن الكـريم كثيرا، ليبين القيم العظيمة التي تحكم تلك الأسرة الطيبة الممتلئـة بالروحانية، والتي استحقت أن يفتح لهـا الكثـير من الخـزائن الـتي وصدت على غيرها.

وما فتح لها ذلـك إلا بعبوديتهـا وخضـوعها للـه.. الخضـوع الـذي يتجلى في كل المواقف، والتي قص علينا القـرآن الكـريم بعضـها، فقال: ﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُـوا مَسَـاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُـلَيْمَانُ وَجُنُـودُهُ وَهُمْ لا يَشْـعُرُونَ فَتَبَسَّـمَ ضَـاحِكاً مِنْ قَوْلِهَـا وَقَـالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْـكُرَ نِعْمَتَـكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِـدَيَّ وَأَنْ أَعْمَـلَ صَـالِحاً تَرْضَـاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِـكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل:18 ـ 19)

وهنا يظهر سـليمان ﵇ الـذي سـخر اللـه لـه من كـل شـيء، متواضعا أمـام هـذه النملـة، وفي نفس الـوقت لا ينشـغل بهـا، ولا بحـديثها، بـل يتوجـه مباشـرة إلى ربـه الـذي لا يغيب عنـه لحظـة واحدة.

والقرآن الكريم يصوره كذلك بصورة الحريص على ما كلف بـه من مهـام، فهـو حـريص على رعايـة رعيتـه، وتحقيـق مطالبهـا.. بالإضافة إلى حرصه على الدعوة إلى الله.

بالإضافة إلى ذلك كله وصفه الله كما وصف والده بكونه أوابـا، بل أثنى عليه بكونه (نِعْمَ الْعَبْدُ)، قال تعـالى:﴿ وَوَرِثَ سُـلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُـلِّ شَـيْءٍ إِنَّ هَـذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (النمل:16)، وقال عنه:﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُـلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (صّ:30)، وقال عنه:﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُـلَيْمَانَ قَـالَ أَتُمِـدُّونَنِ بِمَـالٍ فَمَـا آتَـانِيَ اللَّهُ خَيْـرٌ مِمَّا آتَـاكُمْ بَـلْ أَنْتُمْ بِهَـدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ (النمل:36)

وهكذا نرى صورة سليمان ﵇ في القرآن الكريم، وليس فيهـا ـ كما في قصة أبيه ـ أي امرأة واحدة.. لكن السلفية تأبى أن تترك سـليمان من دون نسـاء، ومن دون اللهث وراءهن.. ومن دون أن يضيفوا إلى ما ذكره القرآن ما يدعم به ملكه من الأبهة والسلطان والذهب ونحوها.

فقد ذكروا في تفسير قوله تعالى ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَـا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْـرَاهِيمَ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَآتَيْنَـاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النسـاء: 54] أنّـه كـان لسـليمان ﵇ ألـف امـرأة، ثلاثمائة مهرية وسبعمائة سرية.. لأن من أهم مظاهر الملك عندهم هو تملك أكبر عدد من النساء، وقد فعوا ذلك إلى رسـول اللـه ﷺ، فقد رووا عنه أنه قال: (ألف امـرأة عنـد رجـل، ومائـة امـرأة عنـد

رجل أكثر أو تسع نسوة؟)(1)

ولم يكتفوا بذلك، بل راحـوا إلى آيـة متشـابهة كـان يمكنهم أن يفهموها وفق الأوصاف التي ذكرها القرآن الكريم، أو كـان يمكنهم أن يفوضوا علمها لله تعالى.. لكنهم لم يفعلوا.. ولذلك نسخت تلك الآية الكريمة بفهمها السـلفي كـل شخصـية سـليمان ﵇، وحولتـه من العبد الأواب الخاشع الخاضع المتواضع إلى زير نساء.. لا هم له إلا النساء حتى لو كان على حساب القيم النبيلة التي مـا اسـتخلفه الله إلا لتوفرها فيه.

والآية الكريمة التي أساءوا فهمها هي قولـه تعـالى: ﴿وَلَقَـدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَـا عَلَى كُرْسِـيِّهِ جَسَـدًا ثُمَّ أَنَـابَ﴾ [ص: 34]، فقـد راح عقلهم السلفي المغرم بالقصص والحكايات والأسـاطير يبحث عن سر تلك الفتنة.. وما هو الكرسي.. وما هو الجسد.

وبما أنهم لم يجدوا جواب ذلـك عنـد السـابقين من المهـاجرين والأنصار، فإنهم راحوا يبحثون عن جوابها عنـد كعب الأحبـار ووهب بن منبه وغيرهم من تلاميذ اليهودية.

وكـان في إمكـانهم أن يمروهـا كمـا جـاءت، كمـا يـذكرون في الصفات.. ويجعلون حكايتهـا تفسـيرها، وتفسـيرها حكايتهـا.. لكنهم لم يفعلوا، لأن عقولهم الصغيرة مغرمة بالحكايات والأساطير.

وكان في إمكانهم أن يفسروها بما فسرها بـه بعضـهم من أنـه كان لسليمان ﵇ ولد شاب ذكي، وكان يحبّـه حبّـاً شـديداً، فأماتـه الله على بساطه فجأة بلا مرض، اختباراً من الله تعـالى لـه، وابتلاءً لصبره في إماتة ولده، وألقى جسمه على كرسيّه(2).

لكنهم لم يفعلوا أيضا.. لأن هـذه القصـة ليس فيهـا أي جـوانب إثارة.. بالإضافة إلى أنه ليس فيها أي امرأة واحدة.. وهم لا يحبـون القصص التي لا تحوي على النساء من الحرائر والجواري.

ولذلك لجأوا إلى اليهود، ليلبوا لهم رغبتهم.. وقد وجدوا عنـدهم ذلـك.. حيث حكى لهم وهب بن منبـه هـذه القصـة الطويلـة الـتي سنحكيها كما رويت ببعض التصرف من باب الاختصار، لنقـارن من خلالها مدى التشويه الذي شوهت بـه المدرسـة السـلفية الصـورة القرآنية التي صور بها سليمان ﵇.

قـال وهب بن منبـه: (سـمع سـليمان بمدينـة في جزيـرة من جزائر البحر، يقال لها صيدون، بهـا ملـك عظيم السـلطان لم يكن للناس اليه سبيل، لمكانه في البحر، وكان الله قد آتى سليمان في ملكه سلطانا لا يمتنع منه شيء في بر ولا بحر، إنما يركب إليـه إذا ركب على الريح، فخرج إلى تلك المدينـة تحملـه الـريح على ظهـر الماء، حتى نزل بها بجنوده من الجن والإنس، فقتل ملكها واستفاء

1() الكشف والبيان عن تفسير القرآن (3/ 329).
2() تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى: 99.

ما فيها، وأصاب فيما أصاب ابنة لذلك الملك لم ير مثلها حسنا وجمالا، فاصطفاها لنفسه، ودعاها إلى الإسلام فأسلمت على جفاء منها وقلة ثقة، وأحبها حبا لم يحبه شيئا من نسائه، ووقعت نفسه عليها، فكانت على منزلتها عنده لا يذهب حزنها، ولا يرقأ دمعها، فقال لها، لما رأى ما بها وهو يشق عليه من ذلك ما يرى: ويحك، ما هذا الحزن الذي لا يذهب، والدمع الذي لا يرقأ! قالت: إن أبي أذكره وأذكر ملكه وما كان فيه وما أصابه، فيحزنني ذلك، قال: فقد ابد لك الله به ملكا هو أعظم من ملكه، وسلطانا هو أعظم من سلطانه، وهداك للإسلام وهو خير من ذلك كله، قالت: إن ذلك لكذلك، ولكني إذا ذكرته أصابني ما قد ترى من الحزن، فلو أنك أمرت الشياطين، فصوروا صورة أبي في داري التي أنا فيها، أراها بكرة وعشيا لرجوت أن يذهب ذلك حزني، وأن يسلي عني بعض ما أجد في نفسي، فأمر سليمان الشياطين، فقال: مثلوا لها صوره أبيها في دارها حتى ما تنكر منه شيئا، فمثلوه لها حتى نظرت إلى أبيها في نفسه، إلا أنه لا روح فيه، فعمدت إليه حين صنعوه لها فأزرته وقمصته وعممته وردته بمثل ثيابه التي كان يلبس، مثل ما كان يكون فيه من هيئة، ثم كانت إذا خرج سليمان من دارها تغدو عليه في ولائدها حتى تسجد له ويسجدن له، كما كانت تصنع به في ملكه، وتروح كل عشية بمثل ذلك، لا يعلم سليمان بشيء من ذلك أربعين صباحا..)

هذا هو الجزء الأول من القصة، وهو يظهر سليمان ﵇ بصورة المتسلط الظالم الجبار، الذي يتسلط على غيره من الملوك، ثم يأسر بناتهم.. ثم يطلب منهن أن يتعاملن معه بلطف مع أنه هو الذي قتل والدهن.. وكل هذا يقبله العقل السلفي بسهولة.. لأنه لا قيم ثابتة عنده.. فالولي عنده ولي لكون الله تولاه فقط، أما الأخلاق فشأن آخر..

وكما أن السلفية يظهرون الصحابة أعظم وأحكم من رسول الله ﷺ، فقد اجتهدوا أيضا أن يجعلوا من صاحب سليمان ﵇ أعلم وأحكم، وقد ذكر ذلك وهب، وهو يحكي قصة الجسد الملقى على الكرسي، فقال: (وبلغ ذلك آصف بن برخيا- وكان صديقا، وكان لا يرد عن أبواب سليمان أي ساعة أراد دخول شيء من بيوته دخل، حاضرا كان سليمان أو غائبا- فأتاه فقال: يا نبي الله، كبرت سني، ودق عظمي، ونفد عمري، وقد حان مني ذهاب! وقد أحببت أن أقوم مقاما قبل الموت أذكر فيه من مضى من أنبياء الله، وأثني عليهم بعلمي فيهم، وأعلم الناس بعض ما كانوا يجهلون من كثير من أمورهم، فقال: افعل، فجمع له سليمان الناس، فقام فيهم خطيبا، فذكر من مضى من أنبياء الله، فأثنى على كل نبي بما فيه، وذكر ما فضله الله به، حتى انتهى الى سليمان وذكره، فقال: ما

كـان احملـك في صـغرك، وأورعـك في صـغرك، وأفضـلك في صغرك، وأحكم أمرك في صـغرك، وأبعـدك من كـل مـا يكـره في صغرك! ثم انصرف فوجد سليمان في نفسه حتى ملأه غضبا، فلما دخل سليمان داره أرسل إليه، فقال: يا آصـف، ذكـرت من مضـى من أنبياء الله فأثنيت عليهم خيرا في كل زمـانهم، وعلى كـل حـال من أمـرهم، فلمـا ذكرتـني جعلت تثـني علي بخـير في صـغري، وسكت عما سوى ذلك من أمري في كبري، فما الذي أحـدثت في آخر أمري؟ قال: إن غير الله ليعبد في دارك منذ أربعين صباحا في هوى امرأة، فقال: في داري! فقال: في دارك، قـال: إنـا للـه وإنـا إليه راجعون! لقد عرفت أنك ما قلت إلا عن شيء بلغـك، ثم رجـع سليمان إلى داره فكسر ذلك الصنم، وعاقب تلك المرأة وولائـدها، ثم أمر بثياب الطهرة فأتي بها، وهي ثيـاب لا يغزلهـا إلا الأبكـار، ولا ينسجها الا الأبكار، ولا يغسلها إلا الأبكار، ولا تمسها امـرأة قـد رأت الـدم، فلبسـها ثم خـرج إلى فلاة من الأرض وحـده، فـأمر برمـاد ففرش له، ثم أقبـل تائبـا إلى اللـه حـتى جلس على ذلـك الرمـاد، فتمعك فيه بثيابه تذللا لله جل وعز وتضرعا إليـه.. فلم يـزل كـذلك يومه حتى أمسى، يبكي إلى الله ويتضرع إليه ويسـتغفره، ثم رجـع إلى داره- وكانت أم ولد له يقال لها: الأمينة، كان إذا دخـل مذهبـه، أو أراد إصابة امـرأة من نسـائه وضـع خاتمـه عنـدها حـتى يتطهـر، وكان لا يمس خاتمه إلا وهو طاهر، وكان ملكه في خاتمه، فوضـعه يوما من تلك الأيام عندها كما كـان يضـعه ثم دخـل مذهبـه، وأتاهـا الشيطان صاحب البحر- وكان اسمه صخرا- في صورة سـليمان لا تنكر منه شيئا، فقال: خاتمي يا أمينة! فناولته إياه، فجعله في يده، ثم خـرج حـتى جلس على سـرير سـليمان، وعكفت عليـه الطـير والجن والإنس، وخـرج سـليمان فـأتى الأمينـة، وقـد غـيرت حالتـه وهيئته عند كل من رآه، فقال: يا أمينة، خاتمي! فقالت: ومن أنت؟ قال: أنا سليمان بن داود، فقالت: كذبت، لست بسـليمان بن داود، وقد جاء سليمان فأخذ خاتمـه، وهـو ذاك جـالس على سـريره في ملكه فعرف سليمان أن خطيئته قـد أدركتـه، فخـرج فجعـل يقـف على الـدار من دور بـني إسـرائيل، فيقـول: أنـا سـليمان بن داود، فيحثون عليه التراب ويسبونه، ويقولون: انظروا إلى هذا المجنون، أي شيء يقول! يزعم أنه سليمان بن داود، فلما رأى سليمان ذلك عمد إلى البحر، فكان ينقل الحيتـان لأصـحاب البحـر إلى السـوق، فيعطونه كل يوم سمكتين، فإذا أمسى باع إحدى سـمكتيه بأرغفـة وشوى الأخرى، فأكلها، فمكث بذلك أربعين صـباحا، عـدة مـا عبـد ذلك الوثن في داره، فأنكر آصف بن برخيا وعظماء بـني إسـرائيل حكم عدو الله الشيطان في تلك الأربعين صباحا، فقـال آصـف: يـا معشر بني إسرائيل، هل رأيتم من اختلاف حكم ابن داود ما رأيت!

قالوا: نعم، قال: أمهلوني حتى أدخل على نسائه فأسألهن: هل أنكرن منه في خاصة أمره ما أنكرنا في عامة أمر الناس وعلانيته؟ فدخل على نسائه فقال: ويحكن! هل أنكرتن من أمر ابن داود ما أنكرنا؟ فقلن: اشده ما يدع امرأة منا في دمها، ولا يغتسل من جنابة، فقال: إنا لله وإنا اليه راجعون! ان هذا لهو البلاء المبين، ثم خرج إلى بني إسرائيل، فقال ما في الخاصة أعظم مما في العامة، فلما مضى أربعون صباحا طار الشيطان عن مجلسه، ثم مر بالبحر، فقذف الخاتم فيه، فبلعته سمكة، وبصر بعض الصيادين فأخذها وقد عمل له سليمان صدر يومه ذلك، حتى إذا كان العشي أعطاه سمكتيه، فأعطى السمكة التي أخذت الخاتم، ثم خرج سليمان بسمكتيه فيبيع التي ليس في بطنها الخاتم بالأرغفة، ثم عمد إلى السمكة الأخرى فبقرها ليشويها فاستقبله خاتمه في جوفها، فأخذه فجعله في يده ووقع ساجدا لله، وعكف عليه الطير والجن، وأقبل عليه الناس وعرف أن الذي دخل عليه لما كان أحدث في داره، فرجع إلى ملكه، وأظهر التوبة من ذنبه، وأمر الشياطين فقال: ائتوني به، فطلبته له الشياطين حتى أخذوه، فأتى به، فجاب له صخرة، فأدخله فيها، ثم سد عليه بأخرى، ثم أوثقها بالحديد والرصاص، ثم أمر به فقذف في البحر)(1)

هذه هي الرواية كما رواها وهب بن منبه، وهناك رواية قريبة منها رواها السدي، جاء فيها: (كان لسليمان مائة امرأة، وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة، وهي آثر نسائه عنده، وآمنهن عنده، وكان إذا أجنب أو أتى حاجة نزع خاتمه، ولا يأتمن عليه أحدا من الناس غيرها، فجاءته يوما من الأيام فقالت له: إن أخي بينه وبين فلان خصومة، وأنا أحب أن تقضي له إذا جاءك، فقال: نعم، ولم يفعل، فابتلي فأعطاها خاتمه، ودخل المحرج فخرج الشيطان في صورته، فقال: هاتي الخاتم، فأعطته، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان، وخرج سليمان بعد فسألها أن تعطيه خاتمه، فقالت: ألم تأخذه قبل؟ قال: لا، وخرج من مكانه تائها، قال: ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوما..)(2)

إلى آخر القصة التي رواها السلفية، وفسروا بها الآيات الكريمة..

وقد انبرى الأموي في كتابه [تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء] ليزيل الشبه المرتبطة بها، وسنذكر بتصرف ما قال لنرى الدروس التي يستلهمها السلفية من تلك الروايات الإسرائيلية.

وأول تنزيه بدأ به هو (قصة التمثال الذي صنع لها، وما قيل

1() تاريخ الطبري (1/ 499)
2() تاريخ الطبري (1/ 500)

أنه حكم لأخيها)، وقد خرجها الأمري وجهين، فقال: (يتصور فيها الجواز من وجهين: أحدهما أن يكون صنع التمثال مباحا له كما كان مباحا لعيسى عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ﴾ [المائدة: 110]، فصح من هذه الآية أن عيسى عليه السلام كان يصور التماثيل بإذن الله، وكذلك سليمان عليه السلام إذا صح أنه لم يحرم عليه فعله في شرعه والأظهر فيه أنه لم يحرم بدليل قوله تعالى: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ ﴾ [سبأ: 13] والتماثيل قد تكون على صور الأناسي.. وأما إن عبدت هي صنما من غير أن يشعر به سليمان عليه السلام فلا بأس عليه في ذلك، فإن الأنبياء عليهم السلام عنوا بالظواهر، وأمر البواطن إلى الله تعالى.. وأما قولهم إنها طلبت منه أن يحكم لأخيها على خصمه فقال لها: نعم، فيجوز له أن يقولها وهو يضمر في نفسه إذا كان الحق له، لا عليه، ثم طيب نفسها بنعم لكون النساء تطيب أنفسهن بمثل هذه المشتبهات لضعف عقولهن وجهلهن بالحقائق، ولا يجوز في حقه سوى هذا بدليل أنه لو أضمر في نفسه أن يحكم له والحكم عليه لوقع في كبيرة محرمة وهي أن ينوي أن يحكم بالجور وحاشاه من ذلك وهو لا يجوز عليه ذلك كما تقدم)(1)

هذه هي الشبهة الأولى التي استطاع عقله السلفي أن يتخلص منها بكل سهولة، بل استطاع أن يستخرج من خلالها سنية الاحتيال على عقول النساء، ولو بالكذب مع الإضمار في الباطن طبعا على عدم تنفيذ ما يعدهن به.

أما الشبهة الثانية، وهي (كون الشيطان يخلفه على كرسيه، ويحكم بالباطل)، فقد أجاب عليها بقوله: (ليس على نبي الله عليه السلام لو صح في ذلك دقيق ولا جليل من الإثم، وهذا بمثابة عيسى عليه السلام حين عبد من دون الله)(2)

هذا هو الوجه الأول الذي فسرت به فتنة سليمان عليه السلام، وهو وإن لقي قبولا من البعض إلا أنه لقي رفضا من آخرين..

والوجه الثاني الذي لجأ إليه من أنكر الوجه الأول لا يقل نكارة عن الوجه الأول، ومع ذلك فقد أقام أعلام السلفية الدنيا على من أنكره، لأن راوي الوجه الثاني ليس الطبري فقط، وإنما راويه هما البخاري ومسلم وهما ـ عند السلفية ـ أكثر حرمة من القرآن الكريم نفسه، بالإضافة إلى أن الراوي المباشر له عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو أبو هريرة، ولا أحد من السلفية يقبل أي نقد لأبي هريرة، فهو مثلهم الأعلى، وسلفهم الأول، حتى لو قال فيه رؤساؤهم من المحدثين ما قالوا.

1() تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء (ص: 40).
2() تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء (ص: 40).

والنص الـذي يوردونـه للدلالـة على الفتنـة الـتي وقعت لسليمان ﵇ هـو مـا رووه عن رسـول اللـه ﷺ أنـه قـال: (قـال سـليمان بن داود: لأطـوفنّ الليلـة على مائـة امـرأة ــ أو تسـع وتسعين ـ كلهن يأتي بفارس يجاهـد في سـبيل اللـه. فقـال لـه صاحبه: قل: إن شاء الله. فلم يقـل: إن شـاء اللـه. فلم تحمـل منهن إلا امرأة واحدة جـاءت بشـق رجـل. والـذي نفس محمـد بيـده لـو قـال: إن شـاء اللـه لجاهـدوا في سـبيل اللـه فرسـاناً أجمعون)(3)

وهم يستدلون بهذا الحديث في مواضـع كثـيرة أهمهـا تلـك القوة الغرائزيـة العظيمـة الـتي لا يمكن تصـورها، والـتي وهبهـا الله ـ في تصورهم ـ للأنبياء.. ربما هدية لهم على الجهـود الـتي يقومون بها في الدعوة إلى الله.

ولذلك نراهم يذكرون للأنبياء النساء الكثيرات كما في هـذا الحديث، وإن كان الخلاف قد وقع في عدد نسوته بالضـبط، لأن أبـا هريـرة أو رواة الحـديث لم يضـبطوا عـددهن جيـدا، فمـرة يـذكرون أنهن مائـة، وتـارة أنهن تسـعون، وتـارة أنهن سـبعون، وتارة أنهن ستون.

وهم معذورون في ذلك، فلم يكن في ذلـك الحين تسـجيل لعقود الزواج، وليس هناك مكاتب للأحـوال المدنيـة، ومـع ذلـك فقد حاول أعلام السلفية أن يجدوا حلا لتلك الأعـداد المتناقضـة المتضاربة.

بل إن أكبر هيئة دينيـة في السـعودية وهي اللجنـة الدائمـة للفتوى تولت التحقيق في ذلك، وقد نصوا على نتـائج التحقيـق، فقـالوا ــ ردا على من رمى الحـديث بالاضـطراب ــ: (الحـديث المضـطرب: هـو الـذي روي من طـرق مختلفـة متسـاوية في القوة، ولم يمكنـه الجمـع بينهمـا، أمـا إن كـان بعضـها أقـوى أو أمكن الجمـع فلا اضـطراب، وعلى هـذا فلا يعتـبر الاختلاف في عدد النساء في الحديث المسؤول عنه اضطرابا يرد به الحـديث لأمرين: رجحان الرواية التي ذكر فيها أن عددهن تسعون، فقــد قال البخاري في صحيحه: قال شعيب وأبو الزناد: تسعين، وهــو أصح. إمكان الجمع بين هذه الروايات، وقـد ذهب إلى ذلـك ابن حجر رحمه الله في كتابتـه على هـذا الحـديث في البـاب الـذي ذكرته في السؤال، قال رحمه الله: (فمحصل الروايـات سـتون وسـبعون وتسـعون وتسـع وتسـعون ومائـة، والجمـع بينهـا أن الستين كن حرائر، وما زاد عليهن كن سراري أو بالعكس، وأمـا السـبعون فللمبالغـة، وأمـا التسـعون والمائـة فكن دون المائـة

---

(3) صحيح البخاري (3424)، صحيح مسلم (1654)، سنن النسائي (3831)، مسند أحمد بن حنبل (2/506)

وفوق التسعين، فمن قال: تسعون، ألغى الكسر، ومن قال: مائة، جبره، ومن ثم وقع التردد في رواية جعفر)[1])[2]

وهكذا استطاع العقل السلفي أن يحل مشكلة العدد بكل سهولة.. لكن المسألة الأخرى التي عرضت لهم، والتي وردهم السؤال بشأنها أخطر، وصاحبها ربما يكون قد استعمل عقله، فقد قال لهم سائلا: (.. ولا ريب في صحة هذا الحديث باعتبار الرواة والإسناد، ولكن مفهوم الحديث خلاف للعقل والشعور صريحا، ومفهومه يعلن ويجهر أن النبي ﷺ ما قال هكذا كما نقل الراوي، بل ذكر النبي ﷺ من أباطيل وخرافات اليهود مثالا، وفهم الراوي أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله بيانا واقعيا؛ لأن كل إنسان إن حاسب في نفسه فوضح عليه أن فرض عدد الأزواج ستون 60، إن باشرهن سليمان ﷵ في ساعة 6 أزواج باشرهن كل الليل بغير توقف متواليا عشر ساعة، فهل هذا ممكن عقلا؟)[3]

لكن اللجنة الدائمة للفتوى بما لديها من عقول سلفية جبارة استطاعت أن تحل هذه المشكلة أيضا، وبكل سهولة، فقد قالوا جوابا للسائل: (دعوى مخالفة هذا الحديث للعقل الصريح دعوى باطلة؛ لبنائها على قياس الناس بعضهم على بعض في الصحة، وقوة البدن، والقدرة على الجماع، وسرعة الإنزال وبطئه، وهو قياس فاسد لشهادة الواقع بتفاوتهم فيما ذكر وفي غيره وخاصة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالنسبة لغيرهم، فقد أوتوا من قوة البدن والقدرة على الجماع مع كمال العفة وضبط النفس، وكبح جماح الشهوة ما لم يؤت غيرهم، فكانت العفة وصيانة الفرج عن قضاء الوطر في الحرام مع القدرة على الجماع وقوة دواعيه معجزة لهم عليهم الصلاة والسلام، وكان من السهل على أحدهم أن يطأ عشر نسوة في ساعة ومائة امرأة في عشر ساعات أو أقل، لتحقق الاختصاص بالقوة، وإمكان الإنزال في خمس دقائق أو أقل منها)[4]

ولأن العقل السلفي لا يحن لشيء كما يحن لكثرة النقول، وخاصة من الأئمة الحفاظ البارعين، فقد نقلوا له ما يكبح جماح عقله عن التفكير، فذكروا له من أقوال أعلام السلف والخلف ما يدل على إجماعهم على القوة الجبارة التي وهبت للنبي في هذا الجانب..

ومن تلك النقول ما نقلوه عن العيني أنه قال: (وفيه ما

1() فتح الباري (6 / 460.
2() فتاوى اللجنة الدائمة (4/ 295).
3() فتاوى اللجنة الدائمة (4/ 294).
4() فتاوى اللجنة الدائمة (4/ 296).

كان الله تعالى خص به الأنبياء من صحة البنية وكمال الرجولية، مع ما كانوا فيه من المجاهدات في العبادة. والعادة ــ في مثـل هذا لغيرهم ـ الضـعف عن الجمـاع. لكن خـرق اللـه تعـالى لهم العـادة في أبـدانهم،كمـا خرقهـا لهم في معجـزاتهم وأحـوالهم، فحصل لسليمان عليه الصلاة والسلام من الإطاقـة أن يطـأ في ليلة مائة... وليس في الأخبار ما يحفظ فيه صريحاً غـير هـذا إلا ما ثبت عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه أعطي قوة ثلاثين رجلاً في الجماع (1)... وكـان إذا صـلى الغـداة دخـل على نسـائه فطـاف عليهن بغسل واحد ثم يبيت عنـد الـتي هي ليلتها(2)، وذلـك لأنـه كان قادراً على توفية حقوق الأزواج وليس يقدر على ذلك غيره مع قلة الأكل)(3)

أما ما ورد في الحديث من ذلـك الجـزم من سـليمان ﵇، من غير إرجاع الأمر لله، مع تذكير الملاك أو غيره له، والذي قد يوهم بأن هبة الولد ليست لله، وإنما هي نتيجة الطـواف ــ كمـا ورد في الحديث ـ فقد استطاعوا حلها أيضا، وبكل سهولة.

فقد نقلـوا عن سـلفهم الطـبري قولـه: (إن النسـيان على وجهين: أحدهما: على وجه التضييع من العبد والتفريط.. والآخر: على وجه عجز الناسي عن حفظ ما استحفظ ووكل به، وضعف عقله عن احتماله.. فأما الذي يكون من العبد على وجه التضييع منه والتفريط، فهو تركٌ منه لما أمر بفعله. فـذلك الـذي يـرغب العبد إلى الله في تركه مؤاخذته به، وهو النسـيان الـذي عـاقب الله به آدم صلوات الله عليه فأخرجه من الجنة)(4)

ونقلوا عن العيني قولـه: (قولـه (فلم يقـل إن شـاء اللـه): فلم يقل سليمان إن شاء الله بلسانه، لا أنه غفل عن التفـويض إلى الله تعالى بقلبه، فإنه لا يليق بمنصب النبوة. وإنما هذا كمـا اتفق لنبينا لما سئل عن الروح والخضـر وذي القـرنين فوعـدهم أن يأتي بالجواب غداً جازماً بمـا عنـده من معرفـة اللـه تعـالى، وصدق وعده، في تصديقه وإظهار كلمته، لكنه ذهل عن النطـق بها لا عن التفويض بقلبه، فاتفق أن يتأخر الوحي عنه ورمي بما رمي به لأجل ذلك)(5)

ونقلـوا عن ابن الجـوزي قولـه في بيـان فضـل الاسـتثناء: (وهذه الكلمة لمـا أهمـل ذكرهـا سـليمان في قولـه (لأطـوفن الليلـة على مائـة امـرأة تلـد كـل امـرأة غلامـاً) لم يحصـل لـه

1() رواه عبـد الـرزاق في مصـنفه: (7 /ــ 507) رقم (14052)، وابن خزيمـة في صحيحه: (1 / 426) رقم (233)..
2() صحيح ابن خزيمة: (5 / 423) رقم (1225)
3() عمدة القاري: (21 / 244 ـ 245).
4() جامع البيان: (6 / 133)..
5() عمدة القاري: (21 / 242 ـ 243)..

مقصـوده. وإذا أطلقت على لسـان رجـل من يـأجوج ومـأجوج فقال (غداً يحفر السد إن شاء اللـه) نفعتهم فقـدر على الحفـر، فإذا فات مقصود نبي بتركها وحصل مراد كافر بقولها، فليُعـرف قدرها، وكيف لا وهي تتضمن إظهار عجز البشرية وتسليم الأمر إلى قدرة الربوبية)(1)

ولو أن هؤلاء جميعـا تخلـوا عن كبريـائهم، وراحـوا يبحثـون في القــرآن الكــريم عن كيفيــة طلب الأنبيــاء عليهم الصــلاة والسلام للولد، وهـل كـان ذلـك بالطريقـة الـتي وردت في هـذا الحــديث، أم أنهم كـانوا متواضـعين جـدا أمـام ربهم سـبحانه وتعالى، يعلمون أن الولد وغير الولد هبة من اللـه لا يمكن لأحـد أن يزعم أنه من دون الله يمكن أن ينال هذه الهبة العظيمة.

لو رجعوا إلى القرآن الكريم لوجدوا إبراهيم ﵇، وبعد تلك المعاناة الشديدة التي واجهه بها قومـه، وبعـد بلوغـه من الكـبر عتيـا، يتوجـه إلى اللـه بحيـاء عظيم يطلب منـه أن يرزقـه من الصالحين.. ولم يحدد لا عـددا ولا نوعـا.. يكفي فقـط أن يكـون من الصــالحين، كمـا قـال تعـالى: ﴿وَقَـالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101)﴾ [الصافات: 99 - 101]

وهكذا لو رجعوا إلى القرآن الكريم لوجدوا زكريا ﵇ يقف نفس موقـف جـده إبـراهيم ﵇، يطلب من اللـه الولـد بتواضـع وحياء عظيم، قال تعالى: ﴿هُنَالِـكَ دَعَـا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَـالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَـةُ وَهُوَ قَـائِمٌ يُصَـلِّي فِي الْمِحْـرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّـرُكَ بِيَحْيَى مُصَـدِّقًا بِكَلِمَـــةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَـــيِّدًا وَحَصُـــورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّـــالِحِينَ﴾ [آل عمران: 38، 39]

بل إن القرآن الكريم يشير إلى احـترام أنبيـاء اللـه لسـنن الله في الولد كاحترامهم لغيرهم من السنن، ولذلك لما بشرت الملائكة زكريا ﵇ أجابهم: ﴿ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ [آل عمران: 40]

وهكذا لو رجعوا إلى القـرآن الكـريم لوجـدوا سـليمان ﵇ العبد الشكور، وهو يلجأ إلى الله كـل حين، لا يغفـل عنـه أبـدا.. فكيف يغفل عنه، وهو يطلب ـ وفي ليلة واحدة ـ أن يرزق مائـة ولد كلهم يعيش إلى أن يجاهد في سبيل الله.

إن هـذا التـألي على اللـه يسـتحيل على عـوام النـاس من المسلمين، فكيف يقع من عبد شكور أواب ممتلئ بالطاعة للـه والعبودية لله.

هذه هي صورة الأنبياء عند السلفية، وهي صورة لا تختلـف

1() كشف المشكل من حديث الصحيحين: (1 / 332).

عن صور الملوك والمتكبرين والمتجبرين الـذين يبـاهون بكـثرة النساء والجواري، ولعله لأجل هذا لا نسـتغرب أن يجمـع الإمـام السلفي الكبير، الطبري، في اسم تاريخه بين الرسل والملـوك، حيث ســماه [تــاريخ الرســل والملــوك]، فالرســل بحســب تصـوراتهم ليسـوا سـوى ملـوك.. ولهـذا هم يحبـون الملـوك، ويجلــونهم، ويقــدرونهم، ويحرمــون نقــدهم، أو الحــديث عنهم، لأنهم لا يختلفـون عن الرسـل إلا في ناحيـة واحـدة ــ بحسـب الرؤية السلفية ـ هي ذلك الوحي الذي ينزل من السماء عليهم.

بل إن السلفية في تصوراتهم لله تعـالى ــ كمـا رأينـا ذلـك في كتـاب [السـلفية.. والوثنيـة المقدسـة]، يجعلـون اللـه ملكـا كبيرا، أو امبراطورا عظيما، لا يختلف ـ بحسـب الروايـات الـتي يوردونها ـ عن أي ملـك أو امـبراطور إلا في كونـه في السـماء، وهم على الأرض..

من الملاحظات المهمة التي يلاحظها من يقرأ التراث السلفي الخاص بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام رؤيته لذلك التعلق الشديد ــ من طرف الأنبياء كما يصورهم السلفية ـ بالحياة والحرص عليها، بل والاعتراض على الله إن أرسل إليهم ملك الموت.

وهذه الملاحظة تبدو من خلال رواياتهم الكثيرة، سواء تلك التي يسمونها صحيحة صحة مطلقة، يبدعون جاحدها، ويتهمونه بتهمهم المعروفة.. أو كانت من رواياتهم المختلف فيها.. ولكنهم على العموم يقبلونها، لأنهم يعتبرون مصدرها مصدرا سنيا سلفيا.

وهذه الملاحظة وحدها كافية للدلالة على العلاقة بين التصور اليهودي والتصور السلفي للنبوة، لأن الله تعالى أخبرنا عن المقياس الذي نقيس به عقل اليهود.. أو عقل كل محب للحياة معرض عن الله، فقال ـ مخاطبا اليهود ـ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 94] وقال: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: 6]

وهذا اختبار موجه لعوام الناس من اليهود الذين تصوروا أن لهم الدار الآخرة خالصة من دون الناس، أو أنهم أولياء لله من دون الأمم، مثلما يقول السلفيون تماما، ولذلك طلب الله تعالى منهم تصديقا لدعواهم أن يتمنوا الموت إن كانوا صادقين حقيقة في إيمانهم.. لأن من يؤمن بأن له دار السعادة الأبدية، وأنه فيها في محل الرضوان الذي لا ينقطع، وأنه في هذه الحياة الدنيا كالأسير والمسجون مقارنة بسعة الدار الآخرة.. لا محالة يطلب الدار الآخرة، ويلتمس كل السبل الصالحة للرحيل إليها.

لكن الله تعالى الخبير بنفوس اليهود، وتعلقهم بالحياة، وحرصهم عليها، أخبر أنهم لن يتمنوا ذلك: ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95)﴾ [البقرة: 95]

بل أعطى قاعدة يميز بها كل يهودي، بل كل مشرك، بل كل بعيد عن الدين الحق، وهي الحرص على الحياة، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: 96]

ولهـذا فـإن القـرآن الكـريم يجعـل من علامـات المؤمـنين العاديين تلك التضحيات العظمى في سبيل الله، وذلـك الشـوق العظيم للقاء الله، قال تعالى: مَنْ كَـانَ يَرْجُـو لِقَـاءَ اللَّهِ فَـإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّـمِيعُ الْعَلِيمُ (5) وَمَنْ جَاهَـدَ فَإِنَّمَـا يُجَاهِـدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6) [العنكبوت: 5، 6]

ولهذا، فإن المؤمن لا يخاف إلا الله، حتى لـو اجتمـع عليـه العـالمون، قـال تعـالى: الَّذِينَ قَـالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَـدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَـوْهُمْ فَـزَادَهُمْ إِيمَانًـا وَقَـالُوا حَسْـبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [آل عمران: 173]

وقـد ذكـر القـرآن الكـريم قصـة السـحرة الـذين بمجـرد إيمـانهم بموسـى ؑ تشـكلت فيهم هـذه القـوة العظمى الـتي حررتهم تحريرا تاما من الخـوف من المـوت، إلى الدرجـة الـتي صاحوا فيها في وجه فرعون قائلين: لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَـا جَاءَنَـا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَـا تَقْضِـي هَـذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِـرَ لَنَـا خَطَايَانَـا وَمَـا أَكْرَهْتَنَـا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًـا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِـهِ مُؤْمِنًـا قَـدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى [طه: 72 - 75]

وقد كـان الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسـلام ــ كمـا يصـورهم القـرآن الكـريم ــ أول من اتصـف بهـذه الصـفات، بـل أول من أعطى المثل الأعلى فيها، لأن أرواحهم كـانت معلقـة بـربهم، لا تهيم في غـيره، ولا تطلب سـواه، ولـذلك كـانت حركـاتهم كلهـا لله..

ولذلك أيضا لم يبالوا بكل أولئك المستكبرين الـذين وقفـوا في وجه دعوتهم، بل صرخوا فيهم كما صـرخ إبـراهيم ؑ بكـل قوة: أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْـرَكْتُمْ وَلَا تَخَـافُونَ أَنَّكُمْ أَشْـرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَـا لَمْ يُنَـزِّلْ بِـهِ عَلَيْكُمْ سُـلْطَانًا فَـأَيُّ الْفَـرِيقَيْنِ أَحَـقُّ بِـالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [الأنعام: 80، 81]

بل إن القـرآن الكـريم ذكـر لنـا مثـالا عن تضـحية الأنبيـاء، واستسلامهم لأمر الله في حياتهم ومماتهم، عندما ذكر لنا قصة إبراهيم ؑ، وإقدامه على ذبح ابنه إسماعيل لمجـرد رؤيـا رآهـا علم أنها وحي لله، ولم يكن موقف ابنه النبي بأقل من موقفه.. لأنه ـ ومباشرة بعد طرح الأمر عليه، ومن غير تردد ولا تفكـير ـ طلب من أبيه أن ينفذ أمر الله، قال تعالى: وَقَـالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَـيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّـالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي

أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ [الصافات: 99 - 107]

فهل يمكن لمن هذا حاله أن يكون فيه ذرة حرص على حياة، أو ذرة اعتراض على الله بسبب تقدير الموت عليه؟

هذه هي الرؤية القرآنية، وهي نفسها الرؤية السلفية المرتبطة بغير الأنبياء من الصحابة أو غيرهم، فهم يذكرون تفانيهم وتضحياتهم وحرصهم على الموت في سبيل الله، وينشدون ـ أثناء ذكرهم لفضائل الصحابة ـ بحماسة قول عمير بن الحمام في غزوة بدر، والتي قتل فيها شهيدا:

ركضاً إلى الله بغير زاد غير التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاد
إلا التقى والبر والرشاد

وينشدون معها قول عبد الله بن رواحة الذي قال وهو في خضم المعركة يسأل ربه الشهادة:

ولكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فرع تفرغ الزبدا
وطعنة بيدي حران مجهزة من رمحه تقطع الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جسدي يا أرشد الله من غازٍ وقد رشدا

وهكذا ما رووه عن بعضهم قال: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد، لطلب سعد بن الربيع، وقال: إن رأيته فأقره مني السلام، وقل له: كيف تجدك؟ قال: فأصبته وهو في آخر رمق، وبه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت: إن رسول الله ﷺ، أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ فقال: أنا في الأموات، فأبلغ رسول الله ﷺ عنّي السلام، وقل له: إن سعد بن الرّبيع يقول: جزاك الله تعالى عنّا خير ما جزى نبيّا عن أمّته، وقل له: أني أجد ريح الجنّة، وأبلغ قومك عني السلام، وقل لهم: إن سعد بن الرّبيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن يخلص إلى رسول الله ﷺومنكم عين تطرف، ثم لم يبرح أن مات، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخبره خبره (1).

ويروون أنه حينما أتى بلالا الموت، قالت زوجته: وا حزناه، فكشف الغطاء عن وجهه و هو في سكرات الموت، وقال: لا

1() الحاكم في المستدرك 3/ 201.

تقــولي واحزنـــاه، و قــولي وا فرحـــاه، ثم قـــال: غـــدا نلقى الأحبة..محمدا و صحبه(1).

وهكذا نجد رواياتهم الكثيرة التي تملأ القلوب بمحبة أوليـاء اللـه الـذين جعـل اللـه مـوقفهم من المـوت مقياسـا لصـدقهم وإيمانهم وولايتهم.

ونحن لا ننكـر عليهم هـذا، بـل نحبـذه فيهم، بـل نشـاركهم فيه، لكن المشـكلة أن هـؤلاء الـذين يقولـون هـذا هم أنفسـهم الذين يتهمون أنبياء الله بالحرص على الحياة.. فهل هـان أنبيـاء الله إلى هذه الدرجة؟ وهل يكون سعد وبلال وعمير بن الحمـام وعبـد اللـه بن رواحــة أكـثر إيمانـا من آدم وإبــراهيم وموسـى وإدريس وغيرهم من الأنبياء الذين جعلـوا من صـفاتهم الحـرص على الحياة، والخوف من الموت؟

لكن العقــل السـلفي الأسـير للروايــة والقصــة والخرافـة يتقبل كل ذلك بلا كيف.. وكيف لا يتقبل ذلـك في مخلـوق، وقـد تقبله في صفات خالقه..

بنـاء على هـذا سـنحاول هنـا أن نـذكر بعض النمـاذج عن مواقف السلفية من أنبياء الله، كل نموذج يمثل نبيا من الأنبيــاء عليهم الصلاة والسلام، وهم آدم وإدريس وإبراهيم وموسى.

آدم عليه السلام:

الصورة القرآنية لآدم عليه السلام تبدأ من ذكر اسـتخلاف اللـه لـه، وإعطائه المقومات الـتي تعينـه على ذلـك الاسـتخلاف، وأهمهـا ذلك العلم العظيم الـذي لا نـزال إلى الآن نجهـل حقيقتـه، وهـو [علم أسماء كل شيء]، والذي نص عليـه قولـه تعـالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْــمَاءَ كُلَّهَــا ثُمَّ عَرَضَــهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَــةِ فَقَــالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَـالُوا سُـبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَـا إِلَّا مَــا عَلَّمْتَنَـا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَــالَ يَــاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْـمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَـأَهُمْ بِأَسْـمَائِهِمْ قَـالَ أَلَمْ أَقُـلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَـا تُبْـدُونَ وَمَـا كُنْتُمْ تَكْتُمُـونَ﴾ [البقرة: 31 - 33]

وجناية السـلفية على هـذه الكرامـة العظيمـة الـتي وهبت لآدم عليه السلام، وبينت فضـله أمـام الملائكـة عليهم السـلام اختصـرها السلفية في (الأسماء التي يتعارف بهـا النـاس: إنسـان، ودابـة، وأرض، وسـهل، وبحـر، وجبـل، وحمـار، وأشـباه ذلـك من الأمم وغيرهـا.. حـتى الفسـوة والفسـية)(2)، وكـأن آدم عليه السلام رزق من الذاكرة القوية ما استطاع أن يحفـظ بـه أسـماء الأشـياء، بينمـا

1() ابن أبي الـــدنيا في المحتضـــرين(294)، ومن طريقـــه ابن عســـاكر في تاريخـــه (10/475)

2() تفسير ابن كثير ت سلامة (1/ 223)

عجزت الملائكة عن ذلك.

ثم كانت جنايتهم عليه بعد ذلك عندما صوروه في الجنة منشغلا بأكله وشربه ولهوه عن ربه سبحانه وتعالى.

ثم جنوا عليه بعد ذلك حينما صوروا دوافعه الإجرامية للأكل من الشجرة التي نهي عنها من غير محاولة لتأويل ما ورد عنه في ذلك ليتناسب مع جلاله وكرامته واصطفاء الله له.

ثم جنوا عليه في الأرض حينما صوروه بصورة الساعي إلى شؤونه الخاصة بعيدا عن ربه، وكأنه جاء في الدنيا لأجل أن يعيش، لا لأجل أن يؤدي وظيفة الخلافة التي كلف بها.

وكانت آخر جناية جنوها عليه هي اتهامه بالحرص على الحياة بعد أن عاش ألف سنة كاملة.. وقد رووا في ذلك الروايات الكثيرة.. والتي تعاملوا معها جميعا، وكأنها حقائق قطعية مقدسة لا يصح نقدها، ولا الكلام فيها.

ومن تلك الروايات ما رووه عن ابن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أول من جحد آدم ﵇ قالها ثلاث مرات، إن الله لما خلقه مسح ظهره فأخرج ذريته فعرضهم عليه فرأى فيهم رجلا يزهر فقال: أى رب من هذا؟ قال ابنك داود قال: كم عمره؟ قال: ستون، قال: أى رب زد فى عمره، قال: لا إلا أن تزيده أنت من عمرك، فزاده أربعين سنة من عمره فكتب الله عليه كتابا وأشهد عليه الملائكة، فلما أراد أن يقبض روحه، قال: بقى من أجلى أربعون فقيل له: إنك جعلته لابنك داود قال: فجحد، قال: فأخرج الله عز وجل الكتاب وأقام عليه البينة فأتمها لداود، ﵇، مائة سنة وأتمها لآدم ﵇ عمره ألف سنة)(1)

وفي رواية عن أبي هريرة يرفعها لرسول الله ﷺ، اتفق السلفيون على صحتها: (لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصا من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلا فأعجبه وبيص مابين عينيه، فقال: أي رب من هذا؟ قال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود، قال: رب وكم جعلت عمره؟ قال ستين سنة، قال: أي رب زده من عمري أربعين سنة. فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، قال: أو لم يبق من عمرى أربعون سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته)(2)

1() أحمد 1/251 (2270)

2() الترمذي (3076). قال الترمذي: حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الترمذي (2683) وأخرجه الحاكم في المستدرك 2 / 325 وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

وهذه الرواية العجيبة تصور آدم ﷺ بهذه الصورة الحقيرة التي لا تتناسب مع عامة الناس، فكيف بنبي كريم علمه الله أسماء كل شيء، ورضيه خليفة، وأسجد له ملائكته، ومع ذلك، وبعد أن نزل من الجنة، وتألم بآلام الأرض يصورونه وكأنه حريص على البقاء مدة أطول.

ومن الملاحظات الجديرة بالانتباه في الرواية زيادة على تشويهها لآدم ﷺ هو ما يبدو فيها من علامات اليهودية.. فالروايات بطرقها المختلفة تنص على أنه عندما عرضت ذريته جميعا عليه، بما فيهم رسول الله ﷺ، لم يشد انتباهه إلا لداود ﷺ لأنه كان مميزا بكثرة نوره.. والنور يعني القرب والكمال.. وهم بذلك يصورون داود ﷺ بأنه الأقرب والأكمل.. وهو موقف اليهود الذي لا زالوا يؤمنون به، فهم يعتبرون داود هو مثلهم الأعلى، بل يعتبرونه أكثر من موسى، لأن الهدف عندهم هو الملك، وقد تحقق في داود، ولم يتحقق في موسى عليهم السلام جميعا.

والسلفية ــ من دون وعي ــ يروون كثيرا أمثال هذه الروايات التي عليها مثل هذا الطابع، والتي تتنافى مع ما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة من كون رسول الله ﷺ هو أكرم الخلق على الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: 81، 82]

ومن تلك الروايات ما رووه عن ابن عباس قال: (كنت في حلقة في المسجد نتذاكر فضائل الأنبياء أيهم أفضل، فذكرنا نوحا وطول عبادته ربه، وذكرنا إبراهيم خليل الرحمن، وذكرنا موسى مكلم الله، وذكرنا عيسى بن مريم، وذكرنا رسول الله ﷺ، فبينا نحن كذلك إذ خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال: (ما تذكرون بينكم؟)، قلنا: يا رسول الله، ذكرنا فضائل الأنبياء أيهم أفضل، فذكرنا نوحا وطول عبادته ربه، وذكرنا إبراهيم خليل الرحمن، وذكرنا موسى مكلم الله، وذكرنا عيسى بن مريم، وذكرناك يا رسول الله، قال: (فمن فضلتم؟)، فقلنا: فضلناك يا رسول الله، بعثك الله إلى الناس كافة، وغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وأنت خاتم الأنبياء. فقال رسول الله ﷺ: (ما ينبغي أن يكون أحد خيرا من يحيى بن زكريا)، قلنا: يا رسول الله، وكيف ذاك؟ قال: (ألم تسمعوا كيف نعته في القرآن ﴿يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) وَحَنَانًا مِنْ

لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (13) وَبَـرًّا بِوَالِدَيْـهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِـيًّا (14) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِـدَ وَيَـوْمَ يَمُـوتُ وَيَـوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15) [مريم: 12 - 15] مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ [آل عمران: 39] لم يعمل سيئة ولم يهم بها)(1)

ورووا عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مـا من أحـد من ولـد آدم إلا قد أخطأ، أو هم بخطيئة ليس يحيى بن زكريا)(2)

ورووا عن عبد الله بن عمـرو قـال: قـال رسـول اللـه: (لا ينبغي لأحــد أن يقــول: أنــا خــير من يحــيى بن زكريــا، مــا هم بخطيئة، ولا عملها) (3)

ورووا عن أبي هريرة قال: قال رسول اللـه ﷺ: (كـل بـني آدم يلقى الله يوم القيامـة بـذنب، وقـد يعذبـه عليـه إن شـاء أو يرحمه، إلا يحيى بن زكريا، فإنه كان سَـيِّدًا وَحَصُـورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّـالِحِينَ [آل عمـران: 39]. وأهـوى النـبي ﷺ إلى قـذاة من الأرض فأخذها وقال: (ذكره مثل هذه القذاة)(4)

وغيرها من الروايات المسيئة لرسـول اللـه ﷺ، والمسـيئة معه ليحي عليه السلام.. والتي لا شك في كونها أثرا من آثار اليهود التي دخلت إلى الإسـلام، لتحولـه إلى المشـروع الشـيطاني، كمـا حولت اليهودية.

إدريس عليه السلام:

وهو من الأنبياء الكرام الـذين أمرنـا بـذكرهم، من دون أن تـذكر تفاصـيل ترتبـط بحيـاتهم على الأرض، كمـا قـال تعـالى: وَإِسْـمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْـلِ كُـلٌّ مِنَ الصَّـابِرِينَ (85) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ [الأنبيـاء: 85، 86]، وقـال وَاذْكُـرْ فِي الْكِتَـابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَـانَ صِـدِّيقًا نَبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا [مريم: 56، 57]

وكان الأجدى بالعقـل السـلفي أن يكتفي بهـذا، وأن يمتلئ روحانية عندما يذكرهذا الجندي المجهول من جنود اللـه، والـذي ذكر اللـه صـديقيته وصـبره وعلـو مكانتـه.. وهـذه وحـدها تكفي أولي الألباب لمعرفة قيمته وكرامتـه عنـد اللـه، وكونـه أهلا لأن يقتدى به.. لأن صديقيته وصبره هما الجناحان اللذان طـار بهمـا إلى ذلك المكان العلي.

لكن العقــل الســلفي يــرفض مثــل هــذا الطــرح، لأنــه لا يتناســب مــع مزاجــه الــذي يميــل إلى القصــص والحكايــات والأساطير.

1() رواه البزار والطبراني، انظر:مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (8/ 209)
2() أحمد [1/ 254، 292]، وأبو يعلى [4/ 418]، برقم [2544] والحاكم في المستدرك [2/ 591]، والحديث سكت عنه الحاكم وقال الذهبي: إسناده جيد.
3() رواه البزار، انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (8/ 209)
4() رواه الطبراني في الأوسط، انظر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (8/ 209)

وليته عندما فكر في أن يضع الأساطير حاول أن يلطفها بحيث لا تتناقض مع ما ذكره الله تعالى من الصديقية والصبر.. لكنه لا يهتم لذلك.. ولذلك فإن الصورة السلفية لهذا النبي الكريم متناقضة تماما مع الصورة القرآنية.

وسنورد الرواية كما فسروا ـ أو شوهوا ـ بها قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: 57]، والرواية رواها هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعبا، وأنا حاضر، فقال له: ما قول الله -عز وجل-لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: 57]، فقال كعب: أما إدريس فإن الله أوحى إليه أني أرفع لك كل يوم مثل عمل جميع بني آدم، فأحب أن يزداد عملا، فأتاه خليل له من الملائكة فقال: إن الله أوحى إلي كذا وكذا، فكلم لي ملك الموت، فليؤخرني حتى أزداد عملا فحمله بين جناحيه، حتى صعد به إلى السماء، فلما كان في السماء الرابعة تلقاهم ملك الموت منحدرا، فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس، فقال: وأين إدريس؟ فقال: هو ذا على ظهري. قال ملك الموت: فالعجب! بعثت وقيل لي: اقبض روح إدريس في السماء الرابعة، فجعلت أقول: كيف أقبض روحه في السماء الرابعة، وهو في الأرض؟ فقبض روحه هناك، فذلك قول الله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ [مريم: 57])(1)

وقد ذكر في رواية أخرى الأعمال التي كان يعملها، والتي كان يرغب في أن تستمر حياته لأجل القيام بها، وهي ما روي عن ابن عباس أنه قال: (إن إدريس كان خياطا، فكان لا يغرز إبرة إلا قال: (سبحان الله)، فكان يمسي حين يمسي، وليس في الأرض أحد أفضل عملا منه)(2)

ولسنا ندري هل هذا وصف لنبي كريم ارتقى في المقامات العالية من العرفان والتحقق، بالإضافة إلى ما كلف به من وظائف خطيرة، أم هو وصف لإنسان عادي بسيط، لا يستحق كل ذلك الثناء العظيم الذي وصفه به القرآن الكريم، والذي أمرنا من خلاله بذكره.

بالإضافة إلى هذا فإن الولاية التي تشكل الركن الأساسي في النبوة تقتضي تسليم الوجه لله، تسليما مطلقا ينتفي معه كل اختيار، وقد نقل ابن القيم ـ وهو من أعلام السلفية ــ هذا المعنى عن أولياء هذه الأمة، فنقل عن بعضهم قوله: (التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب، كانطراح الميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء. وهو ترك الاختيار، والاسترسال مع مجاري الأقدار)، ونقل عن آخر قوله: (هو ترك تدبير النفس،

1() تفسير الطبري (16/72)، وتفسير ابن كثير (5/ 240).
2() تفسير ابن كثير (5/ 241).

والانخلاع من الحول والقوة. وإنما يقـوى العبـد على التوكـل إذا علم أن الحق سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه)(1)

فهل يمكن أن يكـون هـؤلاء الأوليـاء الـذين نقـل ابن القيم كلامهم وأقرهم عليه أعرف بالله من أنبياء الله؟

إبراهيم ﵇:

يعتـبر القـرآن الكـريم إبـراهيم ﵇ نموذجـا مثاليـا للرجـل الأمة، أو الرجل الذي يشكل بمفرده أمة كاملـة من القيم، كمـا قال تعالى في وصفه: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: 120]

فهو أمة بروحانيته العميقة التي أهلتـه لأن يكـون خليلا للـه ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: 125]

وهو أمة بقنوته وخشوعه وتوحيده الخالص للـه، كمـا قـال تعـالى: ﴿مَـا كَـانَ إِبْـرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْـرَانِيًّا وَلَكِنْ كَـانَ حَنِيفًـا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: 67]، وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: 114]، وقال: ﴿إِنَّ إِبْـرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: 75]

وهو أمة بوقوفة تلك المواقف النبيلة في الدعوة إلى اللــه مع كل من لقيه ابتداء من أقاربه وقومه، كما قـال تعـالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِـذُ أَصْـنَامًا آلِهَـةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَـكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: 74]

وانتهاء بالملك المستبد الظالم، الـذي نـاظره بكـل رباطـة جأش، قال تعـالى: ﴿أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِي حَـاجَّ إِبْـرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْـرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَـالَ أَنَـا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْـرِقِ فَـأْتِ بِهَـا مِنَ الْمَغْـرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَـرَ وَاللَّهُ لَا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258]

ولذلك، تعرض للتهديد الشديد من أقاربه وقومـه، فواجهـه بكل قوة قـائلا: ﴿ أَتُحَـاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَـدْ هَـدَانِ وَلَا أَخَـافُ مَـا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَـذَكَّرُونَ (80) وَكَيْـفَ أَخَـافُ مَـا أَشْـرَكْتُمْ وَلَا تَخَـافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَـرِيقَيْنِ أَحَـقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 80، 81]

ولم يقف قومه عنـد تهديـده، بـل راحـوا يجمعـون الحطب الكثير، وراحوا يرمونه فيـه، ولم يكن يبـالي بكـل الحطب الـذي يجمع له، ولا بتلك النيران الـتي أوقـدت من أجلـه، قـال تعـالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَـا يَانَـارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَـاهُمُ

1() مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (2/ 115).

الْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: 51 - 70]

ومع ذلك كله لم يتزحزح قيد أنملة، بل ظل ثابتا.. حتى وهو في النار لم يغب ربه عنه لحظة واحدة.. فقد كان مستغرقا فيما يستغرق فيه الأنبياء من توجه للملأ الأعلى.

هذه بعض صورة إبراهيم ﷺ كما يصورها القرآن الكريم، لكن المصادر السلفية تغير على هذه الصورة، فتنحرف بها انحرافا شديدا..

إذ تجعله جبانا أمام الموت، ليس لديه ذلك الإيمان العظيم الذي واجه به قومه أو الملك أو النار.. وليس لديه ذلك اليقين العظيم الذي جعله يقدم ابنه قربانا لله..

بل جعلته ضحية لتلك المخاوف التي تعتري البسطاء عندما يعلمون بقرب الموت منهم.. وقد صوروا في ذلك مشهدا سينمائيا غريبا أدى دور البطولة فيه ملك الموت، ليحاول من خلاله أن يقنع إبراهيم ﷺ بضرورة الموت.

ونص السيناريو الذي حكى ذلك المشهد كما أخرجه الطبري وغيره، يذكر أن إبراهيم ﷺ عندما بلغ من العمر مائتي سنة، وقيل ابن مائة وخمس وسبعين سنة، جاءة ملك الموت..

ولنستمع الحكاية من السدي، فهو أبرع في التصوير، فقد قال: (كان إبراهيم كثير الطعام يطعم الناس، ويضيفهم، فبينا هو يطعم الناس إذا هو بشيخ كبير يمشي في الحره، فبعث إليه بحمار، فركبه حتى إذا أتاه أطعمه، فجعل الشيخ يأخذ اللقمة يريد أن يدخلها فاه، فيدخلها عينه وأذنه ثم يدخلها فاه، فإذا دخلت جوفه خرجت من دبره، وكان إبراهيم قد سأل ربه عز وجل ألا يقبض روحه حتى يكون هو الذي يسأله الموت، فقال للشيخ حين رأى من حاله ما رأى: ما بالك يا شيخ تصنع هذا؟ قال: يا إبراهيم، الكبر، قال: ابن كم أنت؟ فزاد على عمر إبراهيم سنتين، فقال إبراهيم: إنما بيني وبينك سنتان، فإذا بلغت ذلك صرت مثلك! قال: نعم، قال إبراهيم: اللهم اقبضني إليك قبل ذلك، فقام الشيخ فقبض روحه، وكان ملك الموت)(1)

وهكذا تصور الرواية الكيفية التي احتال بها ملك الموت على إبراهيم ﷺ ليقنعه بلقاء ربه..

ولم يكتف السلفية بهذه الرواية الدالة على حرص إبراهيم ﷺ على الحياة، بل رووا رواية أخرى أعظم خطرا، تصور إبراهيم ﷺ، وهو يضحي بزوجته في سبيل نجاته.. وهو فعل لا يقدم عليه حتى عوام الناس.. بل حتى ذكور بعض الحيوانات تضحي بنفسها في سبيل نجاة إناثها.

والمشكلة في هذه الرواية عند السلفية هو حرمة نقدها أو

(1) تاريخ الطبري، (1/ 312)

الحديث عنها لأن راويها أبو هريرة، ومخرجها البخاري ومسلم..

وسنسـرد الروايـة، ونـرى هـل يمكن أن ينتقـدها العقـل السـليم المغـذى بالرؤيـة القرآنيـة، أم أن هـذا العقـل يمكن أن يسلم لها؟

ونص الرواية كما رواها أبو هريرة، أن رسول الله ﷺ قـال: (لم يكـذب ابـراهيم ؑ غـير ثلاث: ثنـتين في ذات اللـه، قولـه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: 89]، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: 63]، وبينـا هـو يسـير في أرض جبـار من الجبـابرة، إذ نزل منزلا، فـأتى الجبـار رجـل فقـال: إن في أرضـك رجلا معـه امرأة من أحسـن النـاس، فأرسـل إليـه، فجـاء فقـال: مـا هـذه المـرأة منـك؟ قـال: هي أخـتي، قـال: اذهب فأرسـل بهـا إلي، فـانطلق إلى سـارة، فقـال: إن هـذا الجبـار قـد سـألني عنـك، فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، فإنه ليس في الأرض مسلم غـيري وغـيرك، قـال: فـانطلق بهـا وقام ابراهيم ؑ يصلي قال: فلما دخلت عليه فرآها أهوى إليها وذهب يتناولها، فأخذ أخذا شديدا، فقال: ادعي اللـه ولا أضـرك، فـدعت لـه فأرسـل فـأهوى إليهـا، فـذهب يتناولهـا، فاخـذ أخـذ شديدا، فقال: ادعى الله ولا أضرك، فدعت له فأرسل، ثم فعل ذلك الثالثة، فأخذ، فذكر مثل المرتين فأرسل قـال: فـدعا أدنى حجابه فقـال: إنـك لم تـأتني بإنسـان، ولكنـك أتيتـني بشـيطان، أخرجها وأعطها هاجر، فـأخرجت وأعطيت هـاجر، فـأقبلت بهـا، فلمـا أحس إبـراهيم بمجيئهـا انفتـل من صـلاته، فقـال: مهيم! فقالت: كفى الله كيد الفاجر الكافر! وأخدم هاجر)(1)

وقد اجتهد السلفية في نصـرة هـذه الروايـة، والـدفاع عن كل حرف من حروفها، ومن المرافعـات الـتي يـذكرها السـلفية في هذا المقام ما قاله ابن حجـر العسـقلاني، فقـد قـال: (وأمـا إطلاقـه الكـذب على الأمـور الثلاثـة؛ فلكونـه قـال قـولا يعتقـده السـامع كـذبا، لكنـه إذا حقـق لم يكن كـذبا؛ لأنـه من بـاب المعاريض المحتملة للأمرين، فليس بكذب محض، وقوله (هـذه أختي) يعتذر عنـه بـأن مـراده أنهـا أختـه في الإسـلام، قـال ابن عقيل: دلالة العقل بتصرف ظاهر إطلاق الكـذب على إبـراهيم، وذلك أن العقل قطع بأن الرسـول ينبغي أن يكـون موثوقـا بـه؛ ليعلم صدق ما جاء به عن الله، ولا ثقة مع تجويز الكـذب عليـه، فكيـف مـع وجـود الكـذب منـه، وإنمـا أطلـق عليـه ذلـك لكونـه بصورة الكذب عند السامع، وعلى تقـديره فلم يصـدر ذلـك من إبراهيم ؑ - يعني إطلاق الكذب على ذلك - إلا في حـال شـدة

1() رواه البخـاري 6 /ـ 277 -ـ 280، ومسـلم رقم (2371)، وأبـو داود رقم (2212)، والترمذي رقم (3165)، وأحمد (2/403) والنسائي في فضائل الصحابة (268)

الخوف لعلو مقامه، وإلا فالكذب المحض في مثل تلك المقامات يجوز، وقد يجب لتحمل أخف الضررين دفعا لأعظمهما، وأما تسميته إياها كذبات فلا يريد أنها تذم، فإن الكذب وإن كان قبيحا مخلا لكنه قد يحسن في مواضع وهذا منها)(1)

ونحن نوافق ابن حجر في كون إبراهيم ﵇ يستحيل أن يكذب، وما قاله من سقمه ونحو ذلك معاريض أراد منها أن يستدرج قومه لدعوتهم إلى الله كما استدرج الملك، وكما استدرج عبدة الكواكب.. وذلك كله لا حرج فيه، ولا يعتبر كذبا بحال من الأحوال.

لكن المشكلة ليس في ذلك.. المشكلة فيما أطلقوا عليه الكذبة الأخيرة.. فتلك ليست كذبة فقط.. بل هي دياثة وجبن وتصرف لا يليق بنبي كريم.. بل لا يليق بإنسان عادي بسيط.

فهل يمكن أن يقبل أي رجل في الدنيا أن يترك امرأته عند الجبارين من دون أن يدافع عنها؟ ثم كيف تنظر المرأة بعد ذلك لزوجها الذي فرط فيها من أجل نفسه أحوج ما تكون إليه؟ ثم ما الذي جعل إبراهيم ﵇ يذهب إلى ذلك المكان الذي يعلم أنه ستأخذ منه زوجته قهرا؟

ثم كيف نطبق هذه السنة الإبراهيمية في حياتنا لأن الله تعالى أمرنا بأن نتبع ملته، ونسير سيرته، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: 130]، وقال: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: 95]

بل إن رسول الله ﷺ نفسه مكلف باتباع ملة إبراهيم ﵇، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 123]

فكيف نحيي هذه السنة الإبراهيمية العظيمة كما يتصور السلفية؟

هذه هي قيمة الأنبياء عند السلفية، وهذا هو تصورهم لهم، وتدنيسهم لتلك القداسة التي بناها القرآن الكريم لهم.

موسى ﵇:

يمثل موسى ﵇ في القرآن الكريم مثل الرجل المؤمن القوي الأمين الذي أعده الله منذ صباه الباكر لنصرة المستضعفين وتخليصهم من نير المستكبرين.

ولذلك كان يملك كل مقومات الشجاعة من شبابه الباكر.. وقد ذكر القرآن الكريم موقفا من تلك المواقف الشجاعة التي

1() فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (6/ 451)

أقـدم فيهـا موسـى ﷺ على نصـرة المستضـعفين، ولـو على حساب مصالحه ومكانته في بيت فرعون، قال تعالى: ﴿ وَدَخَـلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِـيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَـدُوِّهِ فَـوَكَزَهُ مُوسَـى فَقَضَـى عَلَيْـهِ قَـالَ هَـذَا مِنْ عَمَـلِ الشَّـيْطَانِ إِنَّهُ عَـدُوٌّ مُضِـلٌّ مُبِينٌ قَـالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِـي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُـورُ الـرَّحِيمُ قَـالَ رَبِّ بِمَـا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُـونَ ظَهِـيرًا لِلْمُجْـرِمِينَ فَأَصْـبَحَ فِي الْمَدِينَـةِ خَائِفًـا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَـالَ لَـهُ مُوسَـى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُـونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَـا تُرِيـدُ أَنْ تَكُـونَ مِنَ الْمُصْـلِحِينَ ﴾ [القصص: 15 - 19]

وهذه الآيـات الكريمـة توضـح جـوانب مهمـة في شخصـية موسى ﷺ تجتمع جميعـا في إيمانـه العظيم، وقوتـه في نصـرة الحق، وعدم مهادنته لأي جهة من الجهات.

ولعل ذلك من أسـباب اختيـاره لهـذه الوظيفـة العظيمـة.. وقد دل على ذلك الواقع الذي عاشه.. حيث أنـه واجـه فرعـون بكل قوة.. ثم عنـدما أدركهم فرعـون، وخـاف قومـه، لم يخـف ولم يتزعزع، لأنه كان يملك مع قوته إيمانه العظيم، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَـالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: 61، 62]

هـذه هي الرؤيـة القرآنيـة لموسـى ﷺ وإيمانـه وقوتـه وإخلاصـه وروحانيتـه.. لكن الرؤيـة السـلفية تختلـف عن هـذه الرؤية تماما بما ترويه من حكايات وأساطير تجعلـه جبانـا أمـام الموت، حريصا على الحياة.. لا فرق بينه وبين قومه في ذلك.

وقبل أن نذكر الروايـة الـتي تصـور خـوف موسـى ﷺ من الموت، نذكر هذه الرواية التي تصـور حادثـة وفـاة هـارون ﷺ، الذي لم يكن يختلـف عن موسـى ﷺ في أي صـفة من صـفات الكمال.

والروايـة كمـا رووهـا عن عن عبـد اللـه بن مسـعود، وعن ناس من أصـحاب النـبي ﷺ تقـول: (ثم إن اللـه تبـارك وتعـالى أوحى إلى موسى، أني متوف هارون، فـأت بـه جبـل كـذا وكـذا فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل، فإذا هما بشجرة لم ير مثلها، وإذا هما ببيت مبني، وإذا همـا فيـه بسـرير عليـه فـرش، وإذا فيه ريح طيبة، فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل والبيت وما فيـه أعجبـه، فقـال: يـا موسـى إني لأحب أن أنـام على هـذا السرير، قال له موسى: فنم عليه، قال: إني أخاف أن يأتي رب

هذا البيت فيغضب علي، قال له موسى: لا ترهب أنا أكفيك رب هذا البيت فنم، قال: يا موسى بل نم معي، فإن جاء رب البيت غضب علي وعليك جميعا، فلما ناما أخذ هارون الموت، فلما وجد حسه قال: يا موسى خدعتني، فلما قبض رفع ذلك البيت وذهبت تلك الشجرة ورفع السرير إلى السماء، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل، وليس معه هارون قالوا: فان موسى قتل هارون وحسده لحب بني إسرائيل له، وكان هارون أكف عنهم وألين لهم من موسى، وكان في موسى بعض الغلظ عليهم، فلما بلغه ذلك قال لهم: ويحكم! كان أخي، أفترونني أقتله! فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ثم دعا الله فنزل بالسرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدقوه ثم إن موسى بينما هو يمشي ويوشع فتاه إذا أقبلت ريح سوداء، فلما نظر إليها يوشع ظن أنها الساعة والتزم موسى، وقال: تقوم الساعة وأنا ملتزم موسى نبي الله، فاستل موسى من تحت القميص وترك القميص في يد يوشع، فلما جاء يوشع بالقميص أخذته بنو إسرائيل، وقالوا: قتلت نبي الله! قال: لا والله ما قتلته، ولكنه استل مني، فلم يصدقوه وأرادوا قتله قال: فإذا لم تصدقوني فأخروني ثلاثة أيام، فدعا الله فأتي كل رجل ممن كان يحرسه في المنام، فأخبر أن يوشع لم يقتل موسى، وأنا قد رفعناه إلينا، فتركوه ولم يبق أحد ممن أبى أن يدخل قرية الجبارين مع موسى إلا مات، ولم يشهد الفتح)[1]

هذه الأسطورة تصور أنبياء الله الكرام، وهم خائفون وجلون من الموت إلى الدرجة التي فاقوا فيها أدنى العوام من الناس.

لكنا مع ذلك لا نركز عليها كثيرا، لأنه ليس من رواتها أبو هريرة، وليس من مخرجيها البخاري ومسلم.. ولذلك سنذكر ما رواه أبو هريرة، وما خرجه الشيخان، فهم أصحاب الثقة المطلقة التي لا يصح أن يشك فيها أحد.

والرواية التي رواها أبو هريرة وأخرجها الشيخان ونسبوها جميعا إلى رسول الله ﷺ هي: (أرسل ملك الموت إلى موسى، فلما جاءه صكه ففقأ عينه، فرجع إلى ربه، فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت، فرد الله إليه عينه، فقال: ارجع إليه، فقل له: يضع يده على متن ثور فله بكل ما غطت يده من شعرة سنة، قال: أي رب، ثم ماذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن، فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، قال رسول الله ﷺ: فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق

---

(1) تاريخ الطبري، (1/ 432)

عند الكثيب الأحمر)[1]

وقد لقي هذا الحديث ــ مع التشويهات العظيمة التي يحملها في حق الأنبياء والملائكة عليهم السلام ــ اهتماما كبيرا من لدن السلفية في القديم والحديث، حتى أنهم رووا عن أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه أنهما سئلا عن هذا الحديث في جملة من أحاديث الصفات، فقال أحمد: كل هذا صحيح، وقال إسحاق: (هذا صحيح ولا يدفعه إلا مبتدع أو ضعيف الرأي)[2]

بل إن الحافظ عبد الغني المقدسي جعل الإيمان بما في هذا الحديث من عقائد أهل السنة، فمن أنكره خرج عنهم مذؤوما مدحورا، فقال: (.. ونؤمن بأن ملك الموت أرسل إلى موسى - ﵇ - فصكه ففقأ عينه، كما صح عن رسول الله ﷺ، ولا ينكره إلا ضال مبتدع أو ضعيف الرأي)[3]

وقد برروا كل ما ورد فيه حرفا حرفا..

فبرروا تمثل ملك الموت في صورة بشر، بأنه أمر غير مستغرب ولا ممتنع؛ فقد دلت نصوص القرآن والسنة على ظهور الملائكة في صورة البشر بما يخفي حالهم على الأنبياء - فضلا عن عموم الناس - ولا يلزم من ذلك خروج الملك عن ملكيته، وفقوء موسى لعين الصورة البشرية التي تمثل فيها ملك الموت رد فعل طبيعي يتصف بالشرعية مع رجل غريب اقتحم بيته بغير إذنه يطلب روحه.

وبرروا كراهية موسى ﵇ للموت بأنه أمر جبلي فطر الله الناس عليه، لأن الله سمى الموت في القرآن مصيبة وبلاء.

وبرروا لطم موسى - ﵇ - لملك الموت بأنه ليس اعتراضا من موسى على قضاء الله؛ بل لأن ملك الموت قد أتى موسى ﵇ في صورة بشرية، ولم يعرفه فلطمه لأنه رآه آدميا قد دخل داره بغير إذنه يريد نفسه، فدافع موسى عن نفسه مدافعة أدت إلى فقوء عين ملك الموت، وقد أباح الشارع فقوء عين الناظر في دارغيره بدون إذنه.

قال ابن حبان: (كان مجيء ملك الموت إلى موسى على غير الصورة التي كان يعرفه موسى - ﵇ - عليها، وكان موسى غيورا، فرأى في داره رجلا لم يعرفه، فشال يده فلطمه، فأتت لطمته على فقوء عينه التي في الصورة التي يتصور بها، لا الصورة التي خلقه الله عليها... ولما كان من شريعتنا أن من فقأ عين الداخل داره بغير إذنه، أو الناظر إلى بيته بغير أمره،

1() أحمد (2/269). والبخاري (2/113) وفي (4/191) ومسلم (7/99) والنسائي (4/118)

2() انظر: الشريعة، أبو بكر الآجري، (2/ 94). التمهيد، (7/ 147، 148).

3() أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين، ص533..

أنه لا جناح على فاعله، ولا حرج على مرتكبه، للأخبار الجمة الواردة فيه... كان جائزا اتفاق الشريعة بشريعة موسى، بإسقاط الحرج عمن فقأ عين الداخل داره بغير إذنه، فكان استعمال موسى هذا الفعل مباحا له، ولا حرج عليه في فعله، فلما رجع ملك الموت إلى ربه، وأخبره بما كان من موسى فيه، أمره ثانيا بأمر آخر، هو أمر اختبار وابتلاء، فلما علم موسى كليم الله أنه ملك الموت، وأنه جاءه بالرسالة من عند الله، طابت نفسه بالموت، ولم يستمهل، وقال: الآن، فلو عرف موسى في المرة الأولى أنه ملك الموت، لاستعمل ما استعمل في المرة الأخرى عند تيقنه وعلمه به)(1)

بل إنهم ـ ولأهمية المسألة عندهم ـ بنوا الكثير من العقائد على هذا الحديث، حتى أن بعضهم ـ وهو السلفي الكبير محمد بن أحمد العلوي ــ ألف في ذلك كتابا بعنوان [توضيح طرق الرشاد لحسم مادة الإلحاد في حديث صك الرسول المكلم موسى ﵇ للملك الموكل بقبض أرواح العباد]

وقد حاول فيه أن يبين أن الملاك الذي فقأ موسى ﵇ هو ملاك الموت، وأن عينه فقئت حقيقة، ولولا أن الله ردها عليه لبقي أعور.. يقول في ذلك: (إن ملك الموت جاء في صورة يمكن فقء البشر لعينها، والمعهود في مجيء الملك للبشر هو مجيئه له على صورة البشر، كما قال تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم: 17]، وكما أفادته النصوص القرآنية التي ذكر فيها مجيء الملائكة لإبراهيم وللوط وداود، وكذا نصوص الأحاديث التي ذكر فيها مجيء جبريل - ﵇ - لنبينا ﷺ، وبه تبين أن فقأ العين هنا هو على ظاهره، وأنه وقع في الصورة البشرية التي جاء ملك الموت عليها، وهو ممكن غير متعذر إلا في الصورة الملكية الأصلية النورانية البعيدة عن ذلك، إذ لم يعهد مجيء الملائكة للبشر فيها. أما رؤية نبينا ﷺ لجبريل على صورته الأصلية في السماء مرة، وبين السماء والأرض أخرى، فهي خارجة عن مجيء الملك الذي عليه مدار الحديث هنا، وبمجموع هذا الذي قررناه يكون قد حل استشكال صك موسى لعين الملك، وحصول فقء عين الملك من أثره)(2)

ثم فسر دوافع موسى ﵇ لفقء عين ملك الموت، فقال: (وعلى هذا فإن موسى لما رأى رجلا لا يعرفه قد دخل عليه بغتة، وقال ما قال، حمله حب الحياة على الاستعجال بدفعه، ولولا شدة حب الحياة لتأنى وقال: من أنت وما شأنك؟ ونحو ذلك، ووقوع الصكة وتأثيرها كان على ذاك الجسد العارض، ولم

1() صحيح ابن حبان (14/ 112)..
2() توضيح طرق الرشاد، ص196 بتصرف.

ينل الملك بأس. فأما قوله في القصة: (فرد الله عليه عينه)، فحاصله: أن الله تعالى أعاد تمثيل الملك في ذاك الجسد المادي سليما، حتى إذا رآه موسى قد عاد سليما مع قرب الوقت، عرف لأول وهلة خطأه أول مرة)(1)

أما مسألة القصاص بين موسى ﵇ وملك الموت، وكيف لم يطلب الملاك القصاص من موسى ﵇، فقد أجابوا عليها بقولهم: (ومن قال: إن الله لم يقتص لملك الموت من موسى، فهذا دليل على جهله، ومن أخبره أن بين الملائكة وبين الآدميين قصاص؟! ومن قال: إن ملك الموت طلب القصاص من موسى، فلم يقاصصه الله منه، وقد أخبرنا الله تعالى أن موسى قتل نفسا، ولم يقاصص الله منه لقتله!)(2)

أما القول بأن العين التي فقأها موسى ﵇ (إنما هي تمثيل وتخييل، لا حقيقة لها؛ لأن ما تنتقل الملائكة إليه من الصور ليس على الحقائق، وإنما هو تمثيل وتخييل، فالجواب عنه: أن هذا يقتضي أن كل صورة رآها الأنبياء من الملائكة فإنما هي مجرد تمثيل وتخييل لا حقيقة لها، وهذا باطل، فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد رأى جبريل على صورته التي خلق عليها سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض)(3)

والعجب من العقل السلفي الذي يورد أمثال هذه الروايات، ويدافع عنها جميعا، ثم هو نفسه يروي روايات أخرى تناقضها، ثم يأمر عقول الناس بأن تستسلم لها جميعا من غير كيف.

ومن تلك الروايات التي تكفي وحدها للرد عليهم ما رواه الشيخان عن عائشة قالت: (كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده في الجنة، ثم يحيا أو يخير. فلما اشتكى وحضره القبض، ورأسه على فخذ عائشة، غشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت، ثم قال: اللهم في الرفيق الأعلى. فقلت: إذا لا يجاورنا، فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا، وهو صحيح)(4)

وفي رواية قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة. وكان في شكواه الذي قبض فيه أخذته بحة شديدة، فسمعته يقول: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69]، فعلمت أنه خير) (5)

1() الأنوار الكاشفة، ص215..
2() أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين، ص538.
3() أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين، ص538.
4() رواه البخاري 8 / 15 ومسلم رقم (2444) أحمد (6/274)
5() رواه البخاري 8 / 15 ومسلم رقم (2444) أحمد (6/274)

ونكتفي بهذا الرد من رسول الله ﷺ على تلـك التحريفـات والتشويهات التي أثارهـا السـلفية باسـم رسـول اللـه ﷺ.. وهـو منها براء.

قسوة.. وغلظة

من أهم صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ــ كما يذكر القرآن الكريم ـ تلك الرحمة العظيمة التي ملأ الله بها قلوبهم، والتي تجلت في كل التضحيات التي ضحوا بها من أجل هداية أقوامهم، وكل ذلك الصبر الذي صبروه تجاه تلك المواجهات الشرسة التي ووجهوا بها، وقد ورد في الحديث عن عبد الله بن مسعود قوله: (كأنِّي أنظر إلى النَّبي ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء، ضربه قومه فأدْمَوه، فهو يمسح الدَّم عن وجهه، ويقول: ربِّ اغفر لقومي، فإنَّهم لا يعلمون)(1)

وهذه المقولة التي وصف بها رسول الله ﷺ تمثل كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فكلهم رحمة ولطف وهداية.. ومن أساء إلى أي واحد منهم في هذه الناحية فقد أساء إليهم جميعا، كما ورد في الحديث: (الأنبياء إخوة بنو علات(2) أمهاتهم شتى، ودينهم واحد)(3)

وهذه الأخوة تتفق في جميع القيم الإنسانية الرفيعة.. لأن أول صفات النبي أن يتصف بكل مستلزمات الكمال الإنساني.. ومن أهم تلك الكمالات الرحمة واللطف واللين، كما قال تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159]

وذكر حرصه الشديد على إيمان الناس رحمة بهم، فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: 128]

وهذه الرحمة التي جعلها الله في قلب النبي لا تقتصر فقط على أصحابه والمقربين منه، بل تتعداه إلى أعدائه الذين يشفق عليهم ويحرص على هدايتهم، كما قال تعالى ذاكرا حزن رسوله ﷺ الشديد على إعراض قومه: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: 3]

وقد حكى القرآن الكريم قصة إبراهيم عليه السلام، وهو يجادل عن قوم لوط، مع عتوهم وطغيانهم، فقال: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (74) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (75) يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (76)﴾ [هود: 74 - 76]

1() أحمد (1/380) (3611) والبخاري (4/213، 9/20) ومسلم (5/179)

2() علة: يقال: هم بنو علات إذا كان أبوهم واحدا وأمهاتهم شتى الواحدة علة مثل جنات وجنة. المصباح المنير 2/583..

3() ابن عساكر (47/372)، وانظر: صحيح الجامع،: 1452.

وحكى عنه وهو يخاطب قريبه(4) بتلك اللغة الممتلئة بالرقة واللطف والأدب والحرص الشديد، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45)﴾ [مريم: 41 - 45]

وعندما رد عليه بذلك الرد القاسي قائلا: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: 46]

أجابه إبراهيم ﷺ بلطف وأدب قائلا: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: 47، 48]

وهكذا نرى تلك الرحمة من لوط ﷺ، وهو يبدي كل ذلك الحرص على ضيوفه الذين أتوه من دون أن يعرفهم، ومع ذلك استعمل كل الوسائل لحمايتهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ (79) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ (80) قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81) ﴾ [هود: 78 - 81]

وهكذا نرى يعقوب ﷺ، وبعد كل تلك المعاناة التي عاناها بسبب تصرف أولاده، ومع ذلك عفا عنهم بل وعدهم أن

---

4) ذكرنا هنا [قريبه] بدل أباه، كما يدل عليه ظاهر القرآن الكريم لأن الله تعالى أخبر أن إبراهيم عليه السلام تبرأ من استغفاره لهذا القريب الذي ذكر المفسرون أنه عمه، قال تعالى: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ } [التوبة: 114]، وفي نفس الوقت نرى القرآن الكريم يذكر عن إبراهيم عليه السلام وفي مرحلة متقدمة من عمره ــ أي بعد بنائه البيت ـ يستغفر لوالده، قال تعالى: { رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} [إبراهيم: 41]، وهذا يدل دلالة واضحة وقطعية على أن الأب المذكور في سورة مريم والتوبة ليس والدا لإبراهيم عليه السلام.. وذلك أن الأب في اللغة يطلق على الأب الحقيقي والعم، بخلاف الوالد الذي لا يطلق إلا على الأب الحقيقي، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: { أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [البقرة: 133]، فقد اعتبر أولاد يعقوب إسماعيل أبا له مع كونه كان عما ولم يكن أبا حقيقيا.

يستغفر لهم، قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَاأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (97) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: 97، 98]

وهكذا نرى يوسف ﷺ، ومع كل تلك الإساءات التي قام بها إخوته تجاهه، ولكنه مع ذلك عفا عنهم بكل سهولة ويسر، قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (89) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92) ﴾ [يوسف: 89 - 93]

هكذا يتحدث القرآن الكريم عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكيف كانت أخلاقهم الرفيعة وآدابهم العالية وإنسانيتهم السامية.

لكن الرؤية السلفية ـ بفعل الأساطير التي سطرتها في كتب التفسير والحديث والعقيدة ـ نسخت هذه الصورة الجميلة، ووضعت بدلها صورة قاتمة ممتلئة بالغلظة والقسوة لا تتناسب حتى مع أجلاف الناس وغلاظهم.

وسنذكر هنا ثلاثة نماذج عن تلك الصورة التي رسمتها السلفية عن ثلاثة من أنبياء الله العظام هم: موسى وسليمان ويونس عليهم السلام مقارنة بالصورة القرآنية التي صورت لهم.

موسى ﷺ:

كما ذكرنا سابقا فإن موسى ﷺ ـ بالإضافة إلى كونه نبيا كريما من أنبياء الله ــ كلف بإمامة قومه، وقبل ذلك كلف بإخراجهم من نير الاستعباد الذي كانوا يعانون منه.

وقد ذكر القرآن الكريم المواصفات التي استحق أن ينال بها رتبة المخلص لأمته، وأولها تلك القوة في الحق، والتي جعلته يقوم بما يقوم به من أعمال قد يكون في ظاهرها بعض الشدة، ولكن باطنها مملوء بالرحمة واللطف.

وكمثال على ذلك يتعلق به المخطئة عادة، ويشوهون به صورة هذا النبي العظيم قتله للقبطي، مع أن القرآن الكريم لم يذكر هذا ليجرمه، وإنما ذكره ليبين قوة موسى ﷺ في نصرة الحق.. وليس في النص المقدس ما يدل على معاتبة الله أو توبيخه.. وما حصل من موسى ﷺ من استغفار شيء طبيعي بالنسبة لأرواح الأنبياء الشفافة شديدة الحساسية التي تستغفر في كل حين، ولكل شيء، حتى لو لم يكن معصية.

ولهذا نرى شيخ الأنبياء نوحاً ﷺ يقول:﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي

وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً (نوح: 28)

ويقتفيه إبراهيم ﵇ ويقول: رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (ابراهيم:41)

وعلى أثرهم يقول النبي ﷺ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (البقرة:285)

والمنشأ الوحيد لهذا الطلب مرّة بعد أُخرى هو وقوفهم على أنّ ما قاموا به من الأعمال والطاعات وإن كانت في حد ذاتها بالغة حدّ الكمال لكن المطلوب والمترقّب منهم أكمل وأفضل منه.

وهذا ما فسر به منزهة الأنبياء من تفسيرهم لقوله ﷺ:(إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله، وفي لفظ: وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة)(1).. فقد قال أبو الحسن الشاذلي في الحديث: رأيت رسول الله ﷺ فسألته عن حديث: (إنه ليغان على قلبي)، فقال: (يا مبارك ذلك غين الأنوار)

وقال الشيخ شهاب الدين السهروردي: (لا تعتقد أن الغين حالة نقص، بل هو حالة كمال.. فذلك مثل جفن العين حين يمسح الدمع القذى عن العين، فإنه يمنع العين عن الرؤية، فهو من هذه الحيثية نقص، وفي الحقيقة هو كمال.. فهكذا بصيرة النبي ﷺ متعرضة للأغبرة الثائرة من أنفاس الأخيار، فدعت الحاجة إلى ستر حدقة بصيرته، صيانة لها، ووقاية عن ذلك)

وقال أبو سعيد الخراز: (الغين شئ لا يجده إلا الأنبياء وأكابر الأبرار والأولياء، لصفاء أسرارهم، وهو كالغيم الرقيق الذي لا يدوم)

وقال آخر: (لم يزل ﷺ مترقيا من رتبة إلى رتبة، فكلما رقي درجة التفت إلى ما خلفها، وجد منها وحشة لقصورها بالإضافة إلى التي انتهى إليها، وذلك هو الغين، فيستغفر منه)(2)

وقد أورد الشريف المرتضى ـ وهو من الذين اعتبرهم ابن تيمية مبتدعة بسبب قولهم بالعصمة المطلقة للأنبياء ـ الإشكال الذي يورده المخطئة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام حول قتل موسى ﵇ للقبطي، فقال: (فإن قيل: فما الوجه في قتل موسى ﵇ للقبطي وليس يخلو من أن يكون مستحقا للقتل أو غير مستحق، فإن كان مستحقا فلا معنى لندمه ﵇، وقوله: هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ [القصص: 15] وقوله: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي [القصص: 16]، وإن كان غير

1() مسلم رقم (2702)، وأبو داود رقم (1515)

2() انظر هذه الأقوال وغيرها في: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (7/ 64)

مستحق فهو عاص في قتله، وما بنا حاجة إلى أن نقول إن القتل لا يكون صغيرة لأنكم تنفون الصغير والكبير من المعاصي عنهم عليهم السلام)(1)

ثم أجاب على ذلك بقوله: (مما يجاب به عن هذا السؤال إن موسى ﷺ لم يعتمد القتل ولا أراده، وإنما اجتاز فاستغاث به رجل من شيعته على رجل من عدوه بغى عليه وظلمه وقصد إلى قتله، فأراد موسى ﷺ أن يخلصه من يده ويدفع عنه مكروهه، فأدى ذلك إلى القتل من غير قصد إليه، فكل ألم يقع على سبيل المدافعة للظالم من غير أن يكون مقصودا فهو حسن غير قبيح ولا يستحق عليه العوض به، ولا فرق بين أن تكون المدافعة من الانسان عن نفسه، وبين أن يكون عن غيره في هذا الباب والشرط في الأمرين أن يكون الضرر غير مقصود، وأن يكون القصد كله إلى دفع المكروه والمنع من وقوع الضرر. فإن أدى ذلك إلى ضرر فهو غير قبيح)(2)

وقد ربط السبحاني في الرد على المخطئة في هذا بين فعل موسى ﷺ والواقع الذي كان يعيشه، لأن للواقع دورا كبيرا في التمييز بين الجريمة وغيرها، فقال: (قبل توضيح هذه النقاط نلفت نظر القارئ الكريم إلى بعض ما كانت الفراعنة عليه من الأعمال الإجرامية، ويكفي في ذلك قوله سبحانه: (إِنَّ فِرْعَونَ عَلا فِي الأرضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِساءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (1)، ولم يكن فرعون قائماً بهذه الأعمال إلاّ بعمالة القبطيين الذين كانوا أعضاده وأنصاره، وفي ظل هذه المناصرة ملكت الفراعنة بني إسرائيل رجالاً ونساءً، فاستعبدوهم كما يعرب عن ذلك قوله سبحانه: (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ).. وعلى ذلك فقتل واحد من أنصار الطغمة الأثيمة التي ذبحت مئات بل آلاف الأطفال من بني إسرائيل واستحيوا نساءهم، لا يعد في محكمة العقل والوجدان عملاً قبيحاً غير صحيح، أضف إلى ذلك أنّ القبطي المقتول كان بصدد قتل الإسرائيلي لو لم يناصره موسى كما يحكي عنه قوله: (يقتتلان)، ولو قتله القبطي لم يكن لفعله أيّ ردّ فعل ؛ لأنّه كان منتمياً للنظام السائد الذي لم يزل يستأصل بني إسرائيل ويريق دماءهم طوال سنين، فكان قتله في نظره من قبيل قتل الإنسان الشريف أحد عبيده لأجل تخلّفه عن أمره)(3)

ومما شوه به السلفية موسى ﷺ مما يتعلق بغضبه في

1() تنزيه الأنبياء، ص 101.
2() تنزيه الأنبياء، ص 102.
3() عصمة الأنبياء للسبحاني، ص156.

الحق، ما فسروا به قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151)﴾ [الأعراف: 150، 151]

فقد رووا أن موسى ﷺ ألقى الألواح بشدة إلى أن تكسر ستة أسباعها، وقد رووا عن ابن عباس:(صام موسى أربعين يوما فلمّا ألقى الألواح فتكسّرت صام مثلها فردّت عليه وأعيدت له في لوحين مكان الذي انكسر)(1)

مع أنه ليس في النص المقدس ما يدل على أي شيء من ذلك، وقد أورد الشريف المرتضى قول المخطئة في استدلالهم بهذا على معاصي الأنبياء عليهم السلام، فقال ـ موردا شبهتهم بصيغة تساؤل ـ (ما وجه قوله تعالى حكاية عن موسى ﷺ: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 150] أوليس ظاهر هذه الآية يدل على أن هارون ﷺ أحدث ما أوجب إيقاع ذلك الفعل منه؟ وبعد فما الاعتذار لموسى ﷺ من ذلك وهو فعل السخفاء والمتسرعين وليس من عادة الحكماء المتماسكين؟)(2)

ثم أجاب على هذه الشبهة بقوله: (ليس فيما حكاه الله تعالى من فعل موسى وأخيه عليهما السلام ما يقتضي وقوع معصية ولا قبيح من واحد منهما، وذلك أن موسى ﷺ أقبل وهو غضبان على قومه لما أحدثوا بعده مستعظما لفعلهم مفكرا منكرا ما كان منهم، فأخذ برأس أخيه وجره إليه كما يفعل الانسان بنفسه مثل ذلك عند الغضب وشدة الفكر. ألا ترى أن المفكر الغضبان قد يعض على شفيته ويفتل أصابعه ويقبض على لحيته؟ فأجرى موسى ﷺ أخاه هارون مجرى نفسه، لأنه كان أخاه وشريكه وحريمه.. وأما قوله: لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، فليس يدل على أنه وقع على سبيل الاستخفاف، بل لا يمتنع أن يكون هارون ﷺ خاف من أن يتوهم بنو إسرائيل لسوء ظنهم أنه منكر عليه معاتب له.. وقال قوم إن موسى ﷺ لما جرى من قومه من بعده ما جرى اشتد حزنه وجزعه، ورأى من أخيه هارون ﷺ مثل ما كان عليه من الجزع والقلق،

1() الكشف والبيان عن تفسير القرآن (4/ 287)
2() تنزيه الأنبياء، ص117.

أخذ برأسه إليه متوجعا له مسكنا له، كما يفعل أحدنا بمن تنالـه المصيبة العظيمة فيجزع لها ويقلق منها)(1)

ومما شوه به السلفية موسى ﵇ مما يتعلق بهذا الجـانب، ما رووه تفسير قوله تعـالى: ﴿فَخَسَـفْنَا بِـهِ وَبِـدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَـا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصـص: 81]، فمـع أن الآيـة واضـحة في أن اللـه تعـالى هـو الذي خسـف بقـارون، وهـو الـذي عاقبـه بـذلك إلا أن السـلفية يروون بأن موسى ﵇ هو الذي فعل ذلك، وأنه كـان قاسـيا في عقابة لقارون، وأن الله عاتبه على تلك القسوة.

فقد رووا عن عن ابن عباس، قال: (لما نـزلت الزكـاة أتى قارون موسى، فصالحه على كل ألـف دينـار دينـارا، وكـل ألـف شيء شيئا، أو قال: وكل ألف شاة شاة [الطـبري يشـك] قـال: ثم أتى بيته فحسبه فوجده كثيرا، فجمع بني إسرائيل، فقال: يـا بني إسرائيل، إن موسى قد أمركم بكل شيء فـأطعتموه، وهـو الآن يريد أن يأخذ من أموالكم، فقالوا: أنت كبيرنا وأنت سـيدنا، فمرنا بما شئت، فقال: آمركم أن تجيئوا بفلانـة البغي، فتجعلـوا لها جعلا فتقذفه بنفسها، فدعوها فجعل لها جعلا على أن تقذفـه بنفسها، ثم أتى موسـى، فقـال لموسـى: إن بـني إسـرائيل قـد اجتمعـوا لتـأمرهم ولتنهـاهم، فخـرج إليهم وهم في بـراح من الأرض، فقـال: يـا بـني إسـرائيل من سـرق قطعنـا يـده، ومن افترى جلدناه، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة، ومن زنى وله امرأة جلدناه حتى يموت، أو رجمناه حـتى يمـوت [الطـبري يشك] فقال له قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا، قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة. قال: ادعوها، فإن قالت، فهو كما قالت; فلمـا جـاءت قـال لهـا موسـى: يـا فلانـة، قالت: يا لبيك، قـال: أنـا فعلت بـك مـا يقـول هـؤلاء؟ قـالت: لا وكذبوا، ولكن جعلـوا لي جعلا على أن أقـذفك بنفسـي، فـوثب، فسجد وهو بينهم، فأوحى الله إليه: مر الأرض بما شـئت، قـال: يا أرض خذيهم! فأخذتهم إلى أقدامهم. ثم قال: يا أرض خذيهم، فأخـذتهم إلى ركبهم. ثم قـال: يـا أرض خـذيهم، فأخـذتهم إلى حقيهم، ثم قال: يا أرض خـذيهم، فأخـذتهم إلى أعنـاقهم؛ قـال: فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، ويتضرعون إليـه. قـال: يـا أرض خذيهم، فـانطبقت عليهم، فـأوحى اللـه إليـه: يـا موسـى، يقول لك عبادي: يا موسى، يا موسى فلا ترحمهم؟ أما لـو إيـاي دعوا، لوجدوني قريبا مجيبا)(2)

ومما شوه به السلفية موسى ﵇ مما يتعلق بهـذا الجـانب

1() تنزيه الأنبياء، ص118.

2() تفسير الطبري (19/ 629)

ما رووه عن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (نـزل نـبي من الأنبياء(1) تحت شجرة فلدغَتْـهُ نملـةٌ، فـأمر بجهـازه فـأخرج من تحتها، ثم أمر ببيتهـا فـأُحرق بالنـار، فـأوحى اللـه إليـه: فهلا نملةٌ واحدة؟)(2) وفي رواية لمسلم: (فأوحى اللــه إليــه أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح؟)

وهــذه روايــة خطــيرة لا تتوافــق أبــدا مــع رحمــة الأنبيــاء ولطفهم وأخلاقهم العاليــة.. وقــد ذكــر القــرآن الكــريم ذلــك التواضـع الـذي تواضـع بـه سـليمان عليه السلام أمـام النملـة، ومـا كـان لموسى عليه السلام أن يختلف عن سليمان عليه السلام في ذلك.

وقد ورد في الحديث عن عبد الله بن مسعود قال: كنا مـع رسول الله ﷺ في سفر، فـانطلق لحاجتـه، فرأينـا حمـرة معهـا فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمـرة، فجعلت تعـرش، فلمـا جاء رسول الله ﷺ قال: من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليهـا، ورأى قرية نمل قد أحرقناها، فقال: من أحرق هذه؟ قلنا: نحن، قال: إنه لا ينبغي أن يعذب بعذاب النار إلا رب النار(3).

هــؤلاء هم الأنبيــاء كمــا يصــورهم القــرآن الكــريم، وكمــا تصــورهم الســنة النبويــة، لا كمــا يصــورهم الســلفية، وســلف السلفية، وما كـان موسـى عليه السلام ليختلـف عن إخوانـه من الأنبيـاء عليهم الصلاة والسلام في ذلك وغيره.

سليمان عليه السلام:

خلافـا للصـورة القرآنيـة الـتي تصـور سـليمان عليه السلام بصـورة النبي الأواب الشكور المتواضع نرى التصوير السلفي لهذا النبي الكــريم، والمتنــاقض تمامــا مــع مــا ورد في القــرآن الكــريم، والمتفق ـ في نفس الوقت ـ مع الرواية الإسرائيلية التي تصــور سليمان عليه السلام ملكا لا نبيا.

ومن تلك الروايات التي يوردونها عنه عليه السلام مـا رووه عن ابن عباس، قال: كان سليمان ابن داود يوضع له ستمائه كرسي، ثم يجيء أشــراف الإنس فيجلســون ممــا يليــه، ثم يجيء أشــراف الجن فيجلسون مما يلي الإنس، قال: ثم يـدعو الطـير فتظلهم، ثم يــدعو الــريح فتحملهم، قــال: فتســير في الغــداة الواحــدة مسيرة شهر)(4)

وهذا مخالف لما ورد في القرآن الكريم من تقريب الأنبياء للمستضعفين أكـثر من تقـريبهم لأعيـان النـاس ووجهـائهم كمـا

1() روى الحكيم الترمذي في النوادر أنه موسـى عليه السلام وبـذلك جـزم الكلابـاذي في معـاني الأخبار والقرطبي في التفسير، انظر: فتح الباري لابن حجر (6/ 358)

2() أحمد (2/402) والبخاري (4/75) ومسلم (7/43)

3() أحمد (1/396)ـ (3763) وفي (1/423)ـ (4018) والبخـاري في «الأدب المفـرد» (382) وأبو داود (2675 و 5268)

4() تفسير الطبري (19/ 441)

تنص الرواية.

وهو مخالف كـذلك لمـا ورد في القـرآن الكـريم من النهي عن الترف.. فما كان سليمان ﷺ ليستخدم ما أعطـاه اللـه من طاقات في سبيل تحقيق رغبات النفوس المترفة.

وليت روايات السلفية توقفت عند هذا الحد، بل إنها تـروي أن سليمان ﷺ كان يغـزو كـل حين.. لا لشـيء إلا لأجـل الغـزو والغنيمة.. ومن الروايات الـتي أوردوهـا في هـذا، والـتي تصـور سـليمان ﷺ بصـورة المسـتبد القاسـي، مـا بـوب لـه الطـبري بقوله: [ذكر غزوته أبا زوجته جرادة وخبر الشـيطان الـذي أخـذ خاتمه](1)

وقد ذكرنا سـابقا قصـته في ذلـك.. وهي بالإضـافة إلى مـا ذكرناه من تشويهها له ﷺ في ذلك الجـانب، فإنهـا تسـيء إليـه أيضا في هذا الجانب.. ذلك أنهم يصورون أنه تـزوج ابنـة الملـك الذي قتله، ثم يعاتبون تغيرها عليه رغم حبـه الشـديد لهـا، فقـد ورد في الرواية: (فقتل ملكها واسـتفاء مـا فيهـا، وأصـاب فيمـا أصاب ابنة لذلك الملك لم يـر مثلهـا حسـنا وجمـالا، فاصـطفاها لنفسه، ودعاها إلى الإسلام فأسلمت على جفاء منها وقلة ثقـة، وأحبها حبا لم يحبه شيئا من نسائه، ووقعت نفسه عليها، فكانت على منزلتها عنده لا يذهب حزنها، ولا يرقأ دمعها، فقال لها، لما رأى ما بها وهو يشـق عليـه من ذلـك مـا يـرى: ويحـك، مـا هـذا الحـزن الـذي لا يـذهب، والـدمع الـذي لا يرقـأ! قـالت: إن أبي أذكره وأذكر ملكه وما كان فيه وما أصابه، فيحزنني ذلك، قـال: فقد ابد لك الله به ملكا هو أعظم من ملكه، وسلطانا هو أعظم من سلطانه، وهداك للإسلام وهو خير من ذلك كله) (2)

وهذا الجـواب الـذي أوردوه على لسـان ﷺ عجيب.. فهـل هنـاك من يـؤثر السـطان والجـاه على الوالـد.. وهـل يمكن لأي مال أو جاه أو سلطان أن يعوض المرأة عن أبيها؟

وهم لا يكتفون كـذلك بهـذا التشـويه.. بـل يفسـرون قولـه تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْـرَ فَقَـالَ مَـا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُـدَ أَمْ كَـانَ مِنَ الْغَــائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَــذَابًا شَــدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَــأْتِيَنِّي بِسُـلْطَانٍ مُبِينٍ (21)﴾ [النمـل: 20،ـ 21]، والظـاهر فيهـا أن سليمان ﷺ قال ذلك بقصد التهديد.. لكن سلف السلفية حولـوا منها قصة طويلة..

فقد رووا عن ابن عباس، في قوله: (لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا) قال: نتف ريشه، ورووا عنه أن عذابـه: نتفـه وتشميسـه، ورووا عن مجاهد: (نتف ريش الهدهد كله، فلا يغفـو سـنة)، ورووا عن

1() تاريخ الطبري (1/ 496)

2() تاريخ الطبري (1/ 496)

ابن زيد: قيل لبعض أهل العلم: هذا الذبح، فما العذاب الشديد؟. قال: نتف ريشه بتركه بضعة تنزو(1).

وبذلك استطاع السلفية أن يشرعنوا تعذيب الحيوانات، ويجعلوا من سليمان ﵇ قدوتهم في ذلك.. كما جعلوا من موسى ﵇ قدوتهم في حرق النمل.

ولم يكتفوا بذلك أيضا، بل راحوا يفسرون قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (30) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (31) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (32) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ [ص: 30 - 33] بما يتناسب مع الغلظة والخشونة التي صوروا بها الأنبياء عليهم السلام.

فقد ذكروا في تفسير الآيات الكريمة أن سليمان ﵇ عرض عليه الخيل الجياد في وقت العصر، فألهاه هذا العرض عن صلاة العصر، فلما اقترب المغرب غضب وطلب من الله أن يرد الشمس بعد أن غربت ليصلي العصر فردت.. وكصورة من غضبه على الخيل لأنها كانت السبب في فوات العصر وألهته عن الصلاة قام وقطع سوقها وأعناقها مسحاً بالسيف(2).

ومن العجيب أن الطبري ـ وخلافا لعادته ـ رد هذا القول على الرغم من أن القائلين به من أعلام السلف، وانتصر لرواية لابن عباس يقول فيها: (جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها: حبا لها)، والتي علق عليها بقوله: (وهذا القول الذي ذكرناه عن ابن عباس أشبه بتأويل الآية، لأن نبي الله ﷺ لم يكن إن شاء الله ليعذب حيوانا بالعرقبة، ويهلك مالا من ماله بغير سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنطر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها)(3)

لكن هذه الحسنة، أو هذا الموقف الطيب للطبري لم يعجب السلفية، فقد أورده ابن كثير ورد عليه بقوله: (وهذا القول اختاره ابن جرير، واستدل له بأنه لم يكن سليمان ﵇ ليعذب حيوانا بالعرقبة، ويهلك مالا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها.. وهذا الذي رجح به ابن جرير فيه نظر؛ لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا، ولا سيما إذا كان غضبا لله عز وجل بسبب أنه شغل بها حتى خرج وقت الصلاة؛ ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عوضه الله تعالى ما هو خير منها وهي الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب غدوها شهر ورواحها شهر، فهذا أسرع وخير من الخيل) (4)

هذه الرؤية السلفية.. أما الرؤية التنزيهية للأنبياء عليهم

1() انظر الروايات التي أوردوها في ذلك في: تفسير الطبري (19/ 443)
2() تفسير الطبري (21/ 195).
3() تفسير الطبري (21/ 196).
4() انظر: تفسير ابن كثير: 7/65.

السلام التي يبدعها السلفية، فقد فسرت الآية على وفق مقتضى اللغة تفسيرا جميلا ينطلق من كمال الرسل عليهم السلام، ويدل على مكانتهم الرفيعة، فقد قال السبحاني في الآية الكريمة بعد أن أورد الوجوه النحوية في كل كلمة منها: (وتقدير الجملة: أحببت الخير حبّاً ناشئاً عن ذكر الله سبحانه وأمره، حيث أمر عباده المخلصين بالإعداد للجهاد ومكافحة الشرك وقلع الفساد بالسيف والخيل ؛ ولأجل ذلك قمت بعرض الخيل، كل ذلك امتثالاً لأمره سبحانه لا إجابة لدعوة الغرائز التي لا يخلو منها إنسان كما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران: 14]) (1)

وانطلاقا من هذا المعنى فسر قوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: 33] (أي شرع بمسح أعراف خيله وعراقيبها بيده تقديراً لركّابها ومربّيها الذين قاموا بواجبهم بإعداد وسائل الجهاد)

ثم قرب ما حصل بطريقة عصرية، فقال: (إلى هنا اتضح مفاد مفردات الآية وجملها، وعلى هذا تكون الآيات هادفة إلى تصوير عرض عسكري قام به أحد الأنبياء ذوي السلطة والقدرة في أيّام ملكه وقدرته، وحاصله: إنّ سليمان النبي الذي أشار القرآن إلى ملكه وقدرته وسطوته وسيطرته على جنوده من الإنس والجن، وتعرّفه على منطق الطير، إلى غير ذلك من صنوف قدرته وعظمته التي خصّها به بين الأنبياء قام في عشيّة يوم بعرض عسكري، وقد ركب جنوده من الخيل السراع، فأخذت تركض من بين يديه إلى أنْ غابت عن بصره، فأمر أصحابه بردّها عليه، حتّى إذا ما وصلت إليه قام تقديراً لجهودهم بمسح أعناق الخيل وعراقيبها، ولم يكن قيامه بهذا العمل صادراً عنه لجهة إظهار القدرة والسطوة أو للبطر والشهوة، بل إطاعة لأمره سبحانه وذكره حتى يقف الموحّدون على وظائفهم، ويستعدّوا للكفاح والنضال ما تمكّنوا، ويهيّئوا الأدوات اللازمة في هذا المجال، وهذا هو الذي تهدف إليه الآيات وينطبق عليها انطباقاً واضحاً، فهلّم معي ندرس المعنى الذي فُرض على الآيات، وهي بعيدة عن تحمّله وبريئة منه)(2)

يونس ﷺ:

1() عصمة الأنبياء في القرآن الكريم، ص175.

2() عصمة الأنبياء في القرآن الكريم، ص175، وقد ذكر أن هذا التفسير اختاره السيد المرتضى في تنزيه الأنبياء: 95 ـ 97، والرازي في مفاتيح الغيب: 7/136، والمجلسي في البحار: 14/103 ـ 104.

وهو من الأنبياء الكرام الذين ذكروا في القرآن الكريم في عداد الرسل الكرام الذين قيل فيهم بعد ذكرهم في سورة الأنعام: رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا [النساء: 165]

وهي شهادة من الله تعالى على أداء هذا الرسول الكريم لوظيفته العظيمة، بالإضافة إلى دلالتها على القرب العظيم من الله، والذي يتحلى به كل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بدون استثناء.

وقد ذكر الله تعالى أيضا أن قومه من الأقوام القلائل الذين آمنوا بعد أن كاد العذاب ينزل بهم، كما قال تعالى: فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ [يونس: 98]

وقد أخبر الله تعالى بالإضافة إلى ذلك أنه، وبعد أن أدى الدور الدعوي الذي كلف به كسائر الرسل، خرج من بين قومه غاضبا من إعراضهم عن الله، ظانا أنه قد أدى ما عليه من واجب رسالي، لكن الله ابتلاه بعد ركوبه البحر بأن يلتهمه الحوت، ولا ينجو منه إلا بذكر الله كما قال تعالى: وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88) [الأنبياء: 87، 88]، وقال: وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (139) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (140) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (141) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (142) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (143) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (144) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (145) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (146) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (147) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (148) [الصافات: 139 - 148]

وذكر الله تعالى لهذا الموقف العظيم الذي وقفه يونس عليه السلام دليل على مدى تعمق الإيمان في قلوب الأنبياء عليهم الصلاة.. إذ أنه وفي تلك الحالة العظيمة لم ينس أن يذكر الله ويسبحه ويستغفره إلى الدرجة التي استحق بها أن يحصل له خارق الإنجاء.

وهذا هو موضع الهدي في هذه القصة القرآنية.. وهي ما أشار إليه قوله تعالى: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ [الأنبياء: 88]

خاصة وأن هذه الآيات الكريمة قرنت بالآيات التي تبين استجابة الله لرسله وأنبيائه، فقد جاء بعدها قوله تعالى:

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ [الأنبياء: 89، 90]

وجاء قبلها قوله تعالى: وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (84) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (85) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ [الأنبياء: 83 - 86]

وختمت جميعا بقوله تعالى يصف هؤلاء الأنبياء جميعا: إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ [الأنبياء: 90]

هذه هي الصورة القرآنية ليونس ﵇.. لكن السلفية لم ينظروا إلى تلك الآيات جميعا، وراحوا إلى آيات متشابهات، يطبقونها وحدها على يونس ﵇ لينحرفوا بصورته كما انحرفوا بصور سائر الأنبياء عليهم السلام، وهذه الآية هي قوله تعالى: فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ [القلم: 48 - 50]

ومن الروايات التي صوروا بها الحادثة ما رووه عن ابن عباس، قال: (بعثه الله، يعني يونس إلى أهل قريته، فردوا عليه ما جاءهم به وامتنعوا منه، فلما فعلوا ذلك أوحى الله إليه: إني مرسل عليهم العذاب في يوم كذا وكذا، فاخرج من بين أظهرهم، فأعلم قومه الذي وعده الله من عذابه إياهم، فقالوا: ارمقوه، فإن خرج من بين أظهركم فهو والله كائن ما وعدكم، فلما كانت الليلة التي وعدوا بالعذاب في صبحها أدلج ورآه القوم، فخرجوا من القرية إلى براز من أرضهم، وفرقوا بين كل دابة وولدها، ثم عجوا إلى الله، فاستقالوه، فأقالهم، وتنظر يونس الخبر عن القرية وأهلها، حتى مر به مار، فقال: ما فعل أهل القرية؟ فقال: فعلوا أن نبيهم خرج من بين أظهرهم، عرفوا أنه صدقهم ما وعدهم من العذاب، فخرجوا من قريتهم إلى براز من الأرض، ثم فرقوا بين كل ذات ولد وولدها، وعجوا إلى الله وتابوا إليه، فقبل منهم، وأخر عنهم العذاب، قال: فقال يونس عند ذلك وغضب: والله لا أرجع إليهم كذابا أبدا، وعدتهم العذاب في يوم ثم رد عنهم، ومضى على وجهه مغاضبا)(1)

وهذا حديث خطير، فهو يصور يونس ﵇ بصورة الغاضب من ربه، لأنه لم ينفذ العذاب عليهم.. ويصورونه فوق ذلك

(1) تفسير الطبري (18/ 512).

بصورة الغليظ القاسي الذي لم يفرح بإيمان قومه، بل يصورونه حزينا لأجل إيمانهم.

بل ورد في كثير من رواياتهم أن غضب يونس كان من الله.. والعجب أن الله يختار نبيا يغضب عليه، وممن قال بذلك كما يروي أعلام السلفية سعيد بن أبي الحسن، فقد قال ـ يحكي عن سلفه ـ: (بلغني أن يونس لما أصاب الذنب، انطلق مغاضبا لربه، واستزله الشيطان)

ومثله قال الشعبي في قوله (إذ ذهب مغاضبا) قال: (مغاضبا لربه)

ومثله عن سلمة، وزاد فيه: (فخرج يونس ينظر العذاب، فلم ير شيئا، قال: جربوا علي كذبا، فذهب مغاضبا لربه حتى أتى البحر) [1]

بل رووا عن عن وهب بن منبه، أنه قال: (إن يونس بن متى كان عبدا صالحا، وكان في خلقه ضيق، فلما حملت عليه أثقال النبوة، ولها أثقال لا يحملها إلا قليل، تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل، فقذفها بين يديه، وخرج هاربا منها، يقول الله لنبيه ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ [الأحقاف: 35] ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: 48]: أي لا تلق أمري كما ألقاه) [2]

وقد علق الطبري على هذه الروايات وغيرها بقوله: (وهذا القول، أعني قول من قال: ذهب عن قومه مغاضبا لربه، أشبه بتأويل الآية، وذلك لدلالة قوله ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: 87] على ذلك، على أن الذين وجهوا تأويل ذلك إلى أنه ذهب مغاضبا لقومه، إنما زعموا أنهم فعلوا ذلك استنكارا منهم أن يغاضب نبي من الأنبياء ربه، واستعظاما له، وهم بقيلهم أنه ذهب مغاضبا لقومه قد دخلوا في أمر أعظم ما أنكروا، وذلك أن الذين قالوا: ذهب مغاضبا لربه اختلفوا في سبب ذهابه كذلك، فقال بعضهم: إنما فعل ما فعل من ذلك كراهة أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الخلف فيما وعدهم، واستحيا منهم، ولم يعلم السبب الذي دفع به عنهم البلاء، وقال بعض من قال هذا القول: كان من أخلاق قومه الذين فارقهم قتل من جربوا عليه الكذب، عسى أن يقتلوه من أجل أنه وعدهم العذاب، فلم ينزل بهم ما وعدهم من ذلك، وقد ذكرنا الرواية بذلك في سوره يونس، فكرهنا إعادته في هذا الموضع. وقال آخرون: بل إنما غاضب ربه من أجل أنه أمر بالمصير إلى قوم لينذرهم بأسه، ويدعوهم إليه، فسأل ربه أن ينظره،

1() تفسير الطبري (18/ 512).
2() تفسير الطبري (18/ 513).

ليتأهب للشخوص إليهم، فقيل له: الأمر أسرع من ذلك، ولم ينظر حتى شاء أن ينظر إلى أن يأخذ نعلا ليلبسها، فقيل له نحو القول الأول، وكان رجلا في خلقه ضيق، فقال: أعجلني ربي أن آخذ نعلا فذهب مغاضبا. وممن ذكر هذا القول عنه: الحسن البصري)(1)

ثم حاول كعادة السلفية أن يبرر غضبه على ربه بهذه المقولة التي لا يقبلها إلا عقل سلفي، فقد قال: (وليس في واحد من هذين القولين من وصف نبي الله يونس صلوات الله عليه شيء إلا وهو دون ما وصفه بما وصفه الذين قالوا: ذهب مغاضبا لقومه، لأن ذهابه عن قومه مغاضبا لهم، وقد أمره الله تعالى بالمقام بين أظهرهم، ليبلغهم رسالته، ويحذرهم بأسه، وعقوبته على تركهم الإيمان به، والعمل بطاعتك لا شك أن فيه ما فيه، ولولا أنه قد كان صلى الله عليه وسلم أتى ما قاله الذين وصفوه بإتيان الخطيئة، لم يكن الله تعالى ذكره ليعاقبه العقوبة التي ذكرها في كتابه، ويصفه بالصفة التي وصفه بها)(2)

هذه هي الرؤية السلفية التي نص عليها الطبري، والتي انتصر لها ابن تيمية وغيره من أعلام السلفية..

أما الرؤية التنزيهية التي اعتبرها ابن تيمية والسلفية بدعة، فقد نظرت إلى قصة يونس ﵇ وفق الرؤية القرآنية، ووفق مكانة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.. ولذلك فسرتها بما يتناسب مع تلك المكانة الرفيعة.

وسنقتبس هنا ـ مثلما فعلنا سابقا ـ نصا قاله عالم من علماء المنزهة هو الشريف المرتضى في الانتصار ليونس ﵇.. وقد ساق كعادته الشبهة بشكل تساؤل قبل أن يجيب عليها، فقال: (فإن قيل فما معنى قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (88)﴾ [الأنبياء: 87، 88] وما معنى غضبه وعلى من كان غضبه وكيف ظن أن الله تعالى لا يقدر عليه؟ وذلك مما لا يظنه مثله؟ وكيف اعترف بأنه من الظالمين والظلم قبيح؟)(3)

ثم أجاب على ذلك بقوله: (قلنا أما من يونس ﵇ خرج مغاضبا لربه من حيث لم ينزل بقومه العذاب، فقد خرج في الافتراء على الأنبياء عليهم السلام وسوء الظن بهم عن الحد، وليس يجوز أن يغاضب ربه إلا من كان معاديا له وجاهل بأن

1() تفسير الطبري (18/ 513).
2() تفسير الطبري (18/ 513).
3() تنزيه الأنبياء، ص141.

الحكمة في سائر أفعاله، وهذا لا يليق باتباع الأنبياء ﵇ من المؤمنين فضلا عمن عصمه الله تعالى ورفع درجته، أقبح من ذلك ظن الجهال وإضافتهم إليه ﵇ أنه ظن أن ربه لا يقدر عليه من جهة القدرة التي يصح بها الفعل. ويكاد يخرج عندنا من ظن بالأنبياء عليهم السلام مثل ذلك عن باب التمييز والتكليف. وإنما كان غضبه ﵇ على قومه لبقائهم على تكذيبه وإصرارهم على الكفر ويأسه من إقلاعهم وتوبتهم، فخرج من بينهم خوفا من أن ينزل العذاب بهم وهو مقيم بينهم) (1)

ثم فسر قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: 87]، وهو أعلم باللغة من الطبري، بل من كل أعلام السلفية، فقال: (معناه أن لا نضيق عليه المسلك ونشدد عليه المحنة والتكليف، لأن ذلك مما يجوز أن يظنه النبي، ولا شبهة في أن قول القائل قدرت وقدرت بالتخفيف والتشديد معناه التضييق، قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ﴾ [الطلاق: 7]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: 26] أي يوسع ويضيق، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ [الفجر: 16] أي ضيق، والتضييق الذي قدره الله عليه هو ما لحقه من الحصول في بطن الحوت وما ناله في ذلك من المشقة الشديدة إلى أن نجاه الله تعالى منها) (2)

ومثل ذلك فسر قوله تعالى: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87] فهو على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى والخشوع له والخضوع بين يديه، لأنه لما دعاه لكشف ما امتحنه به وسأله أن ينجيه من الظلمات التي هي ظلمة البحر وظلمة بطن الحوت وظلمة الليل، فعل ما يفعله الخاضع الخاشع من الانقطاع والاعتراف بالتقصير، وليس لأحد أن يقول كيف يعترف بأنه كان من الظالمين ولم يقع منه ظلم، وهل هذا إلا الكذب بعينه؟ وليس يجوز أن يكذب النبي ﵇ في حال خضوع ولا غيره، وذلك أنه يمكن أن يريد بقوله إني كنت من الظالمين، أي من الجنس الذي يقع منهم الظلم، فيكون صدقا، وإن ورد على سبيل الخضوع والخشوع لأن جنس البشر لا يمتنع منه وقوع الظلم) (3)

ثم أورد الشبهة التي يتعلق بها السلفية، فقال: (فإن قيل: فأي فائدة في أن يضيف نفسه إلى الجنس الذي يقع منهم الظلم إذا كان الظلم منتفيا عنه في نفسه؟)

1() تنزيه الأنبياء، ص142.
2() تنزيه الأنبياء، ص142.
3() تنزيه الأنبياء، ص143.

ثم أجاب عليها بذكره لشفافية الرسل وحساسية أوراحهم وأدبهم العظيم مع الله، فقال: (قلنا: الفائدة في ذلك التطامن لله تعالى والتخاضع ونفي التكبر والتجبر، لأن من كان مجتهدا في رغبة إلى مالك قدير، فلا بد من أن يتطأطأ، ويجتهد في الخضوع بين يديه، ومن أكبر الخضوع أن يضيف نفسه إلى القبيل الذي يخطئون ويصيبون كما يقول الانسان، إذا أراد أن يكسر نفسه وينفي عنها دواعي الكبر والخيلاء: إنما أنا من البشر ولست من الملائكة، وأنا ممن يخطئ ويصيب. وهو لا يريد إضافة الخطأ إلى نفسه في الحال، بل يكون الفايدة ما ذكرناها) (4)

هذه مقارنة بين صورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما وردت في القرآن الكريم، وكما يراها المنزهة.. وبين الصورة التي يصورهم بها السلفية، ولا عجب أن تثمر كل صورة ما يتناسب معها.

ولا عجب بعد هذا من أخلاق السلفية الممتلئة بالخشونة والغلظة عندما نعلم أن صفات أنبيائهم ــ كصفات ربهم ــ لم يقتبسوها من القرآن الكريم، ولم يقتبسوها من مشاعل الهداية التي أوصى بها النبي ﷺ.. وإنما اقتبسوها من إخوانهم من اليهود الذين انحرفوا بهم في التيه الذي وقعوا فيه.

4() تنزيه الأنبياء، ص143.

من أهم النواحي التي يصور بها القرآن الكريم أنبياء الله، بل يكاد يكون كل التركيز عليها، هو المهام التي كلفوا بها من دعوة الخلق إلى الله، وبذل كل أنواع الجهود في سبيل تحقيق ذلك.

كما أعطى القرآن الكريم نموذجا مفصلا على ذلك بنوح ﵇، الذي قضى ذلك العمر الطويل مع قومه، لا هم له إلا دعوتهم مستعملا كل الوسائل في ذلك.. لا يكل ولا يمل، ولا يبالي بما يلاقيه قومه به من أنواع السخرية.

وقد ذكر القرآن الكريم تلك الجهود الذي بذلها نوح ﵇، ومثله كل الرسل عليهم الصلاة والسلام في صورة تقرير أو مناجاه رفعها نوح إلى ربه سبحانه وتعالى، وكأنه يعتذر إليه من تلك القسوة التي ووجه بها، والتي حالت بينه وبين النجاح في تحقيق ما طلب منه.

قال تعالى ـ حاكيا على لسانه ما قام به من جهود ـ: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: 5 - 9]

ثم ذكر المعاني الجليلة التي كان يدعوهم إليها، وهي قاصرة على العبودية الخالصة لله، الخالية من كل غرض، قال تعالى ـ حاكيا على لسانه ـ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (15) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (16) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (18) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (19) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: 10 - 20]

وبعد كل تلك السنوات الطويلة، وبعد أن بذلك كل تلك الجهود، وبعد أن أخبره ربه سبحانه وتعالى بأنهم لن يؤمنوا، كما قال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [هود: 36]

حينها فقط طلب من الله تعالى أن يريح الأرض منهم، لينشأ بدلهم قوم يعبدونه ولا يشركون به شيئا، قال تعالى ـ

حاكيا عن نوح ﷺ ـ:﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ [نوح: 26 - 28]

هذا نموذج يذكره القرآن الكريم، ويذكر أمثاله عن هود وصالح وإبراهيم وكل الأنبياء عليهم السلام الذين لا نعرف في القرآن الكريم من تفاصيل حياتهم إلا تلك الجهود العظيمة التي قاموا بها في الدعوة إلى الله متجردين من كل غرض، فكلهم كان يردد ما كان يردده هود ﷺ: ﴿ يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: 51]

هذه هي الرؤية القرآنية لتكاليف الأنبياء، والابتلاءات العظيمة التي ابتلوا بها في طريق الدعوة إلى الله، وأداء دورهم الرسالي.

لكن المدرسة السلفية ــ بسبب انحرافها إلى التصوير اليهودي ـ للأنبياء عليهم السلام، تحرف هذه الصورة المقدسة تحريفا شديدا، فتحول الأنبياء عليهم السلام إلى أقزام مقارنة بتلك الصورة القرآنية الجميلة.

وسنذكر هنا أربعة نماذج على ذلك، هي: إبراهيم، ويعقوب، وأيوب، وسليمان عليهم الصلاة والسلام.

إبراهيم ﷺ:

مع أن القراءة القرآنية لحياة إبراهيم ﷺ ترينا شخصا لا يكل ولا يمل وهو يدعو إلى الله كل من لقيه ابتداءه من أقاربه الأدنين، وانتهاء بالملك إلا أن الرؤية السلفية تجعله يتقاعد عن هذه المهام العظيمة التي قضى حياته من أجلها، ركونا إلى الدنيا.

ومن الروايات التي أوردوها في هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: 55] عن السدي، أن ابراهيم ﷺ احتاج- وقد كان له صديق يعطيه ويأتيه- فقالت له سارة: لو أتيت خلتك فأصبت لنا منه طعاما! فركب حمارا له، ثم أتاه، فلما أتاه تغيب منه، واستحيا إبراهيم أن يرجع إلى أهله خائبا، فمر على بطحاء، فملأ منها خرجه، ثم أرسل الحمار إلى أهله، فأقبل الحمار وعليه حنطة جيده، ونام ابراهيم ﷺ فاستيقظ، وجاء إلى أهله، فوجد سارة قد جعلت له طعاما، فقالت: ألا تأكل؟ فقال: وهل من شيء؟ فقالت: نعم من الحنطة التي جئت بها من عند خليلك، فقال: صدقت، من عند خليلي جئت بها، فزرعها فنبتت له، وزكا زرعه وهلكت زروع الناس، فكان أصل ماله منها، فكان الناس يأتونه فيسألونه فيقول: من قال: لا إله

إلا الله فليدخل فليأخذ، فمنهم من قال فاخذ، ومنهم من أبى فرجع، وذلك قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: 55] فلما كثر مال إبراهيم ومواشيه احتاج إلى السعة في المسكن والمرعى، وكان مسكنه ما بين قرية مدين- فيما قيل- والحجاز إلى أرض الشام، وكان ابن أخيه لوط نازلا معه، فقاسم ماله لوطا، فأعطى لوطا شطره فيما قيل، وخيره مسكنا يسكنه ومنزلا ينزله غير المنزل الذي هو به نازل، فاختار لوط ناحية الأردن فصار إليها، وأقام إبراهيم ﵇ بمكانه، فصار ذلك فيما قيل سببا لآثاره بمكة وإسكانه إياها إسماعيل، وكان ربما دخل أمصار الشام)(1)

وهكذا تصور الرواية إبراهيم ﵇ منشغلا بماله بعد أن كثر لديه، وبعد أن أعطى جزءا منه للوط ﵇.

والخطر ليس في هذا التقاعد الذي منحوه لإبراهيم ﵇ فقط، وإنما في ذلك المنهج الغريب الذي صوروه يدعو إلى الله به.. وهو الدعاء بالقمح والشعير، فقد ذكروا في الرواية أن الناس كانوا يأتونه بعد أن اغتنى، فيسألونه فيقول: من قال: لا إله إلا الله فليدخل فليأخذ، فمنهم من قال فاخذ، ومنهم من أبى فرجع.. وكأن الدعوة إلى الله مختصرة في كلمة تقال، وليس في حياة تغير تغيرا تماما.

ومثل هذا الاختزال أيضا لذلك المنهج الدعوي العظيم الذي مارسه إبراهيم السلام، والذي أمرنا بالاقتداء به فيه، ذلك التفسير العجيب لقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: 124]، وهي الآية الكريمة التي تشهد لإبراهيم ﵇ بالوفاء بجميع ما تتطلبه الدعوة إلى الله من جهود، كما شهد له قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: 37]

فقد اختصروا الابتلاء بالكلمات التي تعني كل أنواع البلاء التي تعرض لها ابتداء بالنفي، وانتهاء بالحرق، في هذا التفسير الذي يروونه عن أئمتهم.

فقد رووا عن ابن عباس، أنه قال: (ابتلاه الله بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد. في الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرق الرأس. وفي الجسد: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط والبول بالماء)(2)

1() تاريخ الطبري (1/ 308)

2() تفسير الطبري (2/ 9)، ورواه الحاكم 2: 266، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.ورواه عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في سننه.

ورووا عن قتادة قال: (ابتلاه بالختان، وحلق العانة، وغسل القبل والدبر، والسواك، وقص الشارب، وتقليم الأظـافر، ونتـف الإبط) قال أبو هلال: ونسيت خصلة(1).

ورووا عن أبي الخلد قـال: (ابتلي إبـراهيم بعشـرة أشـياء، هن في الإنسان: سنة: الاستنشـاق، وقص الشـارب، والسـواك، ونتف الإبـط، وقلم الأظفـار، وغسـل الـبراجم، والختـان، وحلـق العانة، وغسل الدبر والفرج) (2)

بل ذكروا في الروايـة الـتي يرفعونهـا إلى رسـول اللـه ﷺ اختصار الكلمات في بعض الأذكار، فقد رووا عن أنس قال: كان النـبي ﷺ يقـول: (ألا أخـبركم لم سـمى اللـه إبـراهيم خليلـه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: 37]، لأنه كان يقول كلما أصبح وكلمـا أمسـى: ﴿فَسُـبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُـونَ وَحِينَ تُصْـبِحُونَ ﴾ [الروم: 17] حتى يختم الآية)(3)

أو في بعض الركعات، كمـا رووا عن عن أبي أمامـة قـال: قال رسول الله ﷺ:﴿وَإِبْـرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: 37]، قـال، أتـدرون مـاوفى؟ قـالوا: اللـه ورسـوله أعلم، قـال: وفي عمـل يومه، أربع ركعات في النهار)(4)

أما الإمامة الـتي هي مرتبطـة عظيمـة في الـدين، تشـمل جميع مناحي الحيـاة، فقـد اختصـروها في الإمامـة في الحج(5)، وكـأن رسـالة إبـراهيم عليه السلام كلهـا مختصـرة في أن يقص شـاربه ويقلم أظافره، وينتف إبطه، ثم يقـوم بعـد ذلـك بإمامـة النـاس بالحج.

يعقوب عليه السلام:

وهو من الأنبياء العظام الـذي بشـر اللـه بهم نبيـه إبـراهيم عليه السلام، وهو الذي ذكر قصته مـع يوسـف عليه السلام، وذكـر كـذلك وصـيته لأبنائه في حال احتضاره كمـا قـال تعـالى: ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُـهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَـالَ لِبَنِيـهِ مَـا تَعْبُـدُونَ مِنْ بَعْـدِي قَـالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْـرَاهِيمَ وَإِسْـمَاعِيلَ وَإِسْـحَاقَ إِلَهًـا وَاحِـدًا وَنَحْنُ لَـهُ مُسْـلِمُونَ﴾ [البقـرة: 133]، وهـذا يـدل على حرصـه الشديد وإلى آخر لحظة من حياته على الدعوة إلى الله.

وكل ما ورد عنه يدل على معرفته باللـه، كمـا قـال تعـالى حكاية عنه: ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: 86]، وقال: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَـاءَ الْبَشِـيرُ أَلْقَـاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُـلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَـا

1() تفسير الطبري (2/ 9)
2() تفسير الطبري (2/ 10)
3() رواه أحمد في المسند: 15688 ج 3 ص 439.
4() تفسير الطبري (2/ 16).
5() تفسير الطبري (2/ 10)

لَا تَعْلَمُونَ [يوسف: 96]

لكن سلف السلفية استعملوا كل ما لديهم من مواريث الحقدة على الأنبياء، ليشوهوا هذا النبي الكريم ابتداء من ميلاده، وانتهاء بوفاته.. بل يشوهون معه النبوة، فيجعلوها أمرا هامشيا سهلا، يمكن لأي محتال أن يحصل عليه.

فمن الروايات التي يوردونها في قصته ما رووه عن السدي، قال: تزوج إسحاق امرأة فحملت بغلامين في بطن، فلما أرادت أن تضعهما اقتتل الغلامان في بطنها، فأراد يعقوب أن يخرج قبل عيص، فقال عيص: والله لئن خرجت قبلي لأعترضن في بطن أمي ولأقتلنها، فتأخر يعقوب، وخرج عيص قبله، وأخذ يعقوب بعقب عيص، فخرج فسمي عيصا لأنه عصى، فخرج قبل يعقوب، وسمي يعقوب لأنه خرج آخذا بعقب عيص، وكان يعقوب أكبرهما في البطن، ولكن عيصا خرج قبله، وكبر الغلامان، فكان عيص أحبهما إلى أبيه، وكان يعقوب أحبهما إلى أمه، وكان عيص صاحب صيد، فلما كبر إسحاق، وعمي، قال لعيص: يا بني أطعمني لحم صيد واقترب مني أدع لك بدعاء دعا لي به أبي، وكان عيص رجلا أشعر، وكان يعقوب رجلا أجرد، فخرج عيص يطلب الصيد، وسمعت أمه الكلام فقالت ليعقوب: يا بني، اذهب إلى الغنم فاذبح منها شاة ثم اشوه، والبس جلده وقدمه إلى أبيك، وقل له: أنا ابنك عيص، ففعل ذلك يعقوب، فلما جاء قال: يا أبتاه كل، قال: من أنت؟ قال: أنا ابنك عيص، قال: فمسه، فقال: المس مس عيص، والريح ريح يعقوب، قالت أمه: هو ابنك عيص فادع له، قال: قدم طعامك، فقدمه فأكل منه، ثم قال: ادن مني، فدنا منه، فدعا له أن يجعل في ذريته الأنبياء والملوك، وقام يعقوب، وجاء عيص فقال: قد جئتك بالصيد الذي أمرتني به، فقال: يا بني قد سبقك أخوك يعقوب، فغضب عيص وقال: والله لأقتلنه، قال: يا بني قد بقيت لك دعوة، فهلم أدع لك بها، فدعا له فقال: تكون ذريتك عددا كثيرا كالتراب ولا يملكهم أحد غيرهم، وقالت أم يعقوب ليعقوب: الحق بخالك فكن عنده خشية أن يقتلك عيص، فانطلق إلى خاله، فكان يسري بالليل ويكمن بالنهار، ولذلك سمي إسرائيل، وهو سري الله، فأتى خاله وقال عيص: أما إذ غلبتني على الدعوى فلا تغلبني على القبر، أن أدفن عند آبائي: إبراهيم وإسحاق، فقال: لئن فعلت لتدفنن معه. ثم ان يعقوب ع هوى ابنة خاله- وكانت له ابنتان- فخطب إلى أبيهما الصغرى منهما، فأنكحها إياه على أن يرعى غنمه إلى أجل مسمى، فلما انقضى الأجل زف إليه أختها ليا، قال يعقوب: إنما أردت راحيل، فقال له خاله: إنا لا ينكح فينا الصغير

قبل الكبير، ولكن ارع لنا أيضا وأنكحها، ففعل فلما انقضى الأجل زوجه راحيل أيضا، فجمع يعقوب بينهما، فذلك قول الله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: 23]، يقول: جمع يعقوب بين ليا وراحيل، فحملت ليا فولدت يهوذا، وروبيل، وشمعون وولدت راحيل يوسف، وبنيامين، وماتت راحيل في نفاسها ببنيامين، يقول: من وجع النفاس الذى ماتت فيه. وقطع خال يعقوب ليعقوب قطيعا من الغنم، فأراد الرجوع إلى بيت المقدس، فلما ارتحلوا لم يكن له نفقة، فقالت امرأة يعقوب ليوسف: خذ من أصنام أبي لعلنا نستنفق منه فأخذ، وكان الغلامان في حجر يعقوب، فأحبهما وعطف عليهما ليتمهما من أمهما، وكان أحب الخلق اليه يوسف عليه السلام، فلما قدموا أرض الشام، قال يعقوب لراع من الرعاة: إن أتاكم أحد يسألكم: من أنتم؟ فقولوا: نحن ليعقوب عبد عيص، فلقيهم عيص فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن ليعقوب عبد عيص، فكف عيص عن يعقوب، ونزل يعقوب بالشام، فكان همه يوسف وأخوه، فحسده إخوته لما رأوا من حب أبيه له)(1)

هذه هي القصة التي يوردونها عن يعقوب عليه السلام، وهي لا تختلف كثيرا عن مثيلتها في كتب اليهود، وذلك دليل على ما ذكرنا من أن السلفية تمثل الاختراق اليهودي للإسلام.. أو هي النسخة اليهودية من الإسلام.

أيوب عليه السلام:

وهو من الأنبياء الذين وصفهم القرآن الكريم بالصبر على أنواع البلاء، وجعلهم مثالا يقتدى به في ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: 83ـ 84]، وقال: ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (42) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (43) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 41، 44]

هذا كل ما ورد في القرآن الكريم عنه، والذي ركز فيه على المعارف الإيمانية لأيوب عليه السلام من ذكره لرحمة ربه، والتجائه إليه، ونحو ذلك.

لكن سلف السلفية راحوا يحولون من هذا البلاء قصة طويلة.. وكأن ما ذكر في القرآن الكريم لم يشف غليلهم، فراحوا للأساطير يشفون بها غليلهم.

(1) تاريخ الطبري (1/ 319)

ومن القصص التي فسروا بها تلك الآيات الكريمة ما رووه عن عبد الرحمن بن جبير، قال: (لما ابتلي نبي الله أيوب ﵇ بماله وولده وجسده، وطرح في مزبلة، جعلت امرأته تخرج تكسب عليه ما تطعمه، فحسده الشيطان على ذلك، وكان يأتي أصحاب الخبز والشوي الذين كانوا يتصدقون عليها، فيقول: اطردوا هذه المرأة التي تغشاكم، فإنها تعالج صاحبها وتلمسه بيدها، فالناس يتقذرون طعامكم من أجل أنها تأتيكم وتغشاكم على ذلك; وكان يلقاها إذا خرجت كالمحزون لما لقي أيوب، فيقول: لج صاحبك، فأبى إلا ما أتى، فوالله لو تكلم بكلمة واحدة لكشف عنه كل ضر، ولرجع إليه ماله وولده، فتجيء، فتخبر أيوب، فيقول لها: لقيك عدو الله فلقنك هذا الكلام، ويلك، إنما مثلك كمثل المرأة الزانية إذا جاء صديقها بشيء قبلته وأدخلته، وإن لم يأتها بشيء طردته، وأغلقت بابها عنه! لما أعطانا الله المال والولد آمنا به، وإذا قبض الذي له منا نكفر به، ونبدل فيره! إن أقامني الله من مرضي هذا لأجلدنك مئة، قال: فلذلك قال الله: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [ص: 44])(1)

وخطورة هذه الرواية ليس في صورة البلاء الذي صورت لأيوب ﵇ فقط، بحيث طرح في المزابل لأجل المرض الذي حل به، وإنما خطورتها في تلك الرعونة والقسوة التي صوروا بها أيوب ﵇، وهو يخاطب زوجته التي نصحته أن يدعو الله، فأجابها بذلك الفحش الذي ننزه أنبياء الله عنه.

ومن الروايات التي رووها في هذا ما رووه عن الحسن، قال: (لقد مكث أيوب ﵇ مطروحا على كناسة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهرا، ما يسأل الله عز وجل أن يكشف ما به.. فما على وجه الأرض أكرم على الله من أيوب، فيزعمون أن بعض الناس، لو كان لرب هذا فيه حاجة ما صنع به هذا! فعند ذلك دعا)(2)

وخطورة هذه الرواية أيضا في تصويرهم لأيوب ﵇، وكرامته على الله بسبب عدم دعائه، وهذا يتناقض مع ما ذكر في القرآن الكريم من كثرة دعوات الأنبياء لله تعالى..

بل إن الله تعالى ذكر قصة أيوب في سورة الأنبياء من هذا الباب باب الدعاء والتضرع إلى الله.. ولم يحدد القرآن أي زمن لذلك.. ومن المجازفة تحديد الزمن.

ثم ما هو الدرس التربوي الذي يريدون من خلال حكاية قول الحسن أن يوجهوه للأمة هل هو ترك دعاء الله حتي ينالوا

1() تفسير الطبري (21/ 212).
2() تاريخ الطبري (1/ 322).

المكانة من الله؟ وهل هذا يتناسب مع ما ورد في النصوص المقدسة من حب الله لدعاء عباده وتضرعهم له؟

ومن الروايات الخطيرة في هذا ما رووه عن وهب بن منبه ـ مع إقرار ابن تيمية لهذه الرواية ـ أن أيوب لم يقل تلك الكلمة التي ذكرها القرآن الكريم عنه، وإنما قال بدلها: (رب لأي شيء خلقتني ليتني إذ كرهتني لم تخلقني يا ليتني قد عرفت الذنب الذي أذنبت، والعمل الذي عملت، فصرفت به وجهك الكريم عني لو كنت أمتني فألحقتني بآبائي الكرام، فالموت كان أجمل بي ألم أكن للغريب دارا وللمسكين قرارا ولليتيم وليا وللأرملة قيما، إلهي أنا عبدك إن أحسنت فالمن لك وإن أسأت فبيدك عقوبتي، وجعلتني للبلاء عرضا وللفتنة نصبا وقد وقع علي بلاء لو سلطته على جبل لضعف عن حمله، فكيف يحمله ضعفي وإن قضاءك هو الذي أذلني وإن سلطانك هو الذي أسقمني وأنحل جسمي، ولو أن ربي نزع الهيبة التي في صدري وأطلق لساني حتى أتكلم بملء فمي بما كان ينبغي للعبد أن يحاج عن نفسه لرجوت أن يعافيني عند ذلك مما بي ولكنه ألقاني وتعالى عني فهو يراني ولا أراه ويسمعني ولا أسمعه فلا نظر إلي فيرحمني ولا دنا مني ولا أدناني فأدلي بعذري وأتكلم ببراءتي وأخاصم عن نفسي)(1)

وخطورة هذه الكلمات ليس في مخالفتها للقرآن الكريم فقط، وإنما لتصويرها أن أيوب ﵇ يتعامل مع ربه بتلك الشدة، بل يتهم رحمته، ويطلب منه أن يدنو منه حتى يخاصم عن نفسه.. ولست أدري من يخاصم؟

وهم يروون أن الله تعالى أجابه بخلاف ما ذكره القرآن الكريم: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: 42]، وإنما أجابه بنزوله على الغمام وخطابه له، قال وهبه بن منبه: (فلما قال ذلك أيوب وأصحابه عنده أظله غمام حتى ظن أصحابه أنه عذاب أليم، ثم نودي يا أيوب إن الله عز وجل يقول: ها أنا قد دنوت منك ولم أزل منك قريبا ثم فأدل بعذرك وتكلم ببراءتك وخاصم عن نفسك واشدد إزارك، وقم مقام جبار يخاصم جبار إن استطعت، فإنه لا ينبغي أن يخاصمني إلا جبار مثلي ولا شبه لي لقد منتك نفسك يا أيوب أمرا ما تبلغه بمثل قوتك أين أنت مني يوم خلقت الأرض فوضعتها على أساسها هل كنت معي تمد بأطرافها وهل علمت بأي مقدار قدرتها أم على أي شيء وضعت أكنافها أبطاعتك حمل الماء الأرض أم بحكمتك كانت الأرض للماء غطاء أين كنت مني يوم

1() تفسير البغوي - إحياء التراث (3/ 306).

رفعت السماء سقفا محفوظافي الهواء..)(1) إلى آخر ما ذكره.

والعجيب أن ابن تيمية استدل بهـذه القصـة على دنـو اللـه من خلقـه، فقـال: (..وقـد جـاء أيضـاً من حـديث وهب بن منبـه وغيره من الاسرائيليات قربـه من أيـوب ﵇ وغـيره من الأنبيـاء عليهم السلام. ولفظه الذي سـاقه البغـوى أنـه أظلـه غمـام ثم نودى يا أيوب أنا الله، يقول أنا قد دنوت منك أنزل منـك قريبـا)(2)

وهذا أكبر رد على من يصور ابن تيمية بصورة الورع الـذي ينفي الإسرائيليات، وكيف ينفيها، وهو يـدعو إلى قـراءة القـرآن من خلالها.. وكيف ينفيها وكل البنيان العقدي الوثني الذي دافـع عنه مؤسس عليها؟

بل إن السلفية لم يكتفوا بهذا، فراحوا يصـورون أيـوب ﵇ بصورة الحريص على الدنيا، المتكالب على متاعها، فقـد رفعـوا إلى رسول الله ﷺ قوله ـ في حديث اجتمع على روايته البخاري ومسلم وغيرهما ـ: (بينما أيـوب عليـه الصـلاة والسـلام يغتسـل عريانا، خر عليه جـراد من ذهب، فجعـل يحـثي في ثوبـه، قـال: فناداه ربه عز وجل: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك؛ قـال: بلى. يـارب ولكن لا غنى بي عن بركاتك)(3)

ولست أدري ما جـدوى أن يصـور النـبي عريانـا، ثم يصـور حرصـه على الـذهب، وكلاهمـا تصـويران يحـرص اليهـود على وصف الأنبياء بهما.

والمشكلة في الحـديث فـوق هـذا أن أيـوب ﵇، وبعـد أن سقط عليه جراد الذهب وهو عريان أخذ يحثي بثوبه؟

لكن لأن الحديث موجه للعقل السلفي.. فلا حرج أن يقبـل كل شيء خاصة إذا كان مخرج الرواية البخاري ومسلم.

في مقابـل هـذه الصـورة السـلفية عن أيـوب ﵇، وسـبب بلائه، وكيف تعامل معـه، نـرى المدرسـة التنزيهيـة تنحى منحى مختلفا تمامـا، فهي تقـرأ أيـوب كمـا تقـرأ جميـع الأنبيـاء عليهم الصلاة والسلام من خلال الصورة القرآنيـة، ومن خلال العصـمة المطلقة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقـد أورد الشـريف المرتضـى الشـبهة الـتي يتعلـق بهـا المخطئة حـول أيـوب ﵇، فقـال: (فـإن قيـل: فمـا قـولكم في الأمراض والمحن التي لحقت أيوب ﵇ أوليس قد نطق القـرآن بأنها كانت جزاء على ذنب في قوله: ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْـبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: 41]، والعذاب لا يكون إلا جـزاء كالعقـاب والآلام الواقعة على سبيل الامتحان لا تسـمى عـذابا ولا عقابـا، أوليس

1() تفسير البغوي (3/ 303).
2() كتب ورسائل ابن تيمية في العقيدة 5/464.
3() أحمد 2/314 (8144). والبخاري 1/78 (278). النسائي 1/200

قد روى جميع المفسرين أن الله تعالى إنما عاقبه بذلك البلاء لتركه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقصته مشهورة يطول شرحها؟)(1)

ثم أجاب على هذه الشبهة بقوله: (أما ظاهر القرآن فليس يدل على أن أيوب ﷺ عوقب بما نزل به من المضار، وليس في ظاهره شئ مما ظنه السائل، لأنه تعالى قال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص: 41] والنصب هو التعب.. والتعب هو المضرة التي لا تختص بالعقاب، وقد تكون على سبيل الامتحان والاختبار. وأما العذاب فهو أيضا يجري مجرى المضار التي يختص إطلاق ذكرها بجهة دون جهة. ولهذا يقال للظالم والمبتدئ بالظلم أنه معذب ومضر ومؤلم، وربما قيل معاقب على سبيل المجاز. وليست لفظة العذاب بجارية مجرى لفظة العقاب، لأن لفظة العقاب يقتضي ظاهرها الجزاء لأنها من التعقيب والمعاقبة، ولفظة العذاب ليست كذلك. فأما إضافته ذلك إلى الشيطان، وإنما ابتلاه به فله وجه صحيح، لأنه لم يضف المرض والسقم إلى الشيطان، وإنما أضاف إليه ما كان يستضر به من وسوسته ويتعب به من تذكيره له ما كان فيه من النعم والعافية والرخاء، ودعائه له إلى التضجر والتبرم مما هو عليه، ولأنه كان أيضا يوسوس إلى قومه بأن يستقذروه ويتجنبوه ويستخفوه لما كان عليه من الأمراض) (2)

ثم ذكر تلك الصورة البشعة التي لفقها مفسرو السلفية عنه، فقال: (فأما ما روي في هذا الباب عن جملة جهلة المفسرين فمما لا يلتفت إلى مثله، لأن هؤلاء لا يزالون يضيفون إلى ربهم تعالى وإلى رسله عليهم السلام كل قبيح ومنكر، ويقذفونهم بكل عظيم. وفي روايتهم هذه السخيفة ما إذا تأمله المتأمل علم أنه موضوع الباطل مصنوع، لأنهم رووا أن الله تعالى سلط إبليس على مال أيوب ﷺ وغنمه وأهله، فلما أهلكهم ودمر عليهم ورأى من صبره ﷺ وتماسكه، قال إبليس لربه يا رب إن أيوب قد علم أنك ستخلف عليه ماله وولده فسلطني على جسده، فقال تعالى قد سلطتك على جسده كله إلا قلبه وبصره، قال فأتاه فنفخه من لدن قرنه على قدمه فصار قرحة واحدة، فقذف على كناسة لبني إسرائيل سبع سنين وأشهرا تختلف الدواب على جسده، إلى شرح طويل نصون كتابنا عن ذكر تفصيله، فمن يقبل عقله هذا الجهل والكفر كيف يوثق بروايته، ومن لا يعلم أن الله تعالى لا يسلط

1() تنزيه الأنبياء، ص90.
2() تنزيه الأنبياء، ص90.

إبليس على خلقه، وأن إبليس لا يقدر على أن يقرح الأجساد ولا يفعل الأمراض كيف يعتمد روايته؟)(1)

ثم فسر سبب البلاء بحسب ما يليق بحقهم من العصمة، فقال: (فأما هذه الأمراض العظيمة النازلة بأيوب عليه السلام فلم تكن إلا اختبارا وامتحانا وتعريضا للثواب بالصبر عليها والعوض العظيم النفيس في مقابلتها، وهذه سنة الله تعالى في أصفيائه وأوليائه عليهم السلام. فقد روي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال وقد سئل أي الناس أشد بلاء فقال: (الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل من الناس)، فنظهر من صبره عليه السلام على محنته وتماسكه ما صار به إلى الآن مثلا، حتى روي أنه كان في خلال ذلك كله صابرا شاكرا محتسبا ناطقا بما له فيه المنفعة والفايدة، وأنه ما سمعت له شكوى ولا تفوه بتضجر ولا تبرم، فعوضه الله تعالى مع نعيم الآخرة العظيم الدائم أن رد عليه ماله وأهله وضاعف عددهم في قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: 84] وفي سورة ص ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 43]، ثم مسح ما به من العلل وشفاه وعافاه وأمره على ما وردت به الرواية، بأن أركض برجلك الأرض فظهرت له عين فاغتسل منها فتساقط ما كان على جسده من الداء. قال الله تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: 42])(2)

ثم رد على سلف السلفية في ادعائهم لتلك الأمراض المنفرة التي أصابت عليه السلام، والتي جعلت محل استقذار من قومه، فقال: (فإن قيل، أفتصححون ما روي أن الجذام أصابه حتى تساقطت أعضاؤه؟ قلنا: إن العمل المستقذرة التي ينفر من رآها وتوحشه كالبرص والجذام فلا يجوز شئ منها على الأنبياء عليهم السلام.. لأن النفور ليس بواقف على الأمور القبيحة، بل قد يكون من الحسن والقبيح معا. وليس ينكر أن يكون أمراض أيوب عليه السلام وأوجاعه. ومحنته في جسمه ثم في أهله وماله بلغت مبلغا عظيما يزيد في الغم والألم على ما ينال المجذوم، وليس ننكر تزايد الألم فيه عليه السلام، وإنما ننكر ما اقتضى التنفير)(3)

وهذا هو الفهم السليم للنبوة والأنبياء.. لأن الأنبياء كلفوا بأدوارهم التربوية والدعوية مع أقوامهم ولهذا يستحيل عليهم أي آفة أو مرض أو علة تجعل الناس ينفرون منهم.

هذه مقارنة بسيطة بين الرؤية القرآنية ومن يمثلها من

1() تنزيه الأنبياء، ص90.

2() تنزيه الأنبياء، ص90.

3() تنزيه الأنبياء، ص90.

مدرسة آل بيت النبوة الذين يبدعهم السلفية، وبين الرؤية السلفية التي تأخذ دينها ومواقفها من كتب اليهود ورجال اليهود.

مع العلم أن الشريف المرتضى صاحب تلك الجواهر في عصمة الأنبياء وفي الرد على الدسائس الإسرائيلية عاش بين (355 هـ - 436 هـ)، أي لم يكن بعيدا عن الوقت الذي كان فيه الطبري وغيره من أعلام التفسير الذين يستند إليهم السلفية.

سليمان ﵇:

مع كثرة التشويهات التي أصاب بها السلفية جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا أن سليمان ﵇ كان أكثرهم حظا منها، حتى أنهم ــ كما ذكرنا سابقا ــ صوروه ملكا أكثر من تصويره نبينا، وصوروه زير نساء أكثر مما صوروه عابدا زاهدا.

وبما أن غرضنا في هذا الفصل هو إخلاء السلفية للنبوة والرسالة من معناها الحقيقي، وهو ذلك الدور الذي كلف به النبي لهداية قومه، فإنا سنتحدث هنا عن ذلك التشويه لهذا الدور من خلال قصة منهج من مناهج الدعوة ذكر القرآن الكريم ممارسة سليمان ﵇ له، لكن السلفية حولوه من منهج دعوة إلى أسطورة.. بل إلى قصة غرامية.. ليضيفوا لنساء سليمان الألف امرأة أخرى.

وتبدأ الآيات الكريمة التي حرفوها بتفسيرهم لها بحكاية الهدهد عن ملكة سبأ التي وجدها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: 23 - 26]

فالهدهد لم يذكر جمال الملكة، ولا أصلها ولا فصلها كما ذكر السلفية، وإنما اهتم لدينها ونوع الإله الذي تعبده، وقد استنكر ـ وهو هدهد ـ ذلك أيما استنكار، فلذلك راح يشكوهم لسليمان ﵇.

وبما أن وظيفة سليمان ﵇ هي الدعوة إلى الله، فقد أرسل إليهم يدعوهم إلى الحضور عنده، ليبلغهم دعوة ربه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28) قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ

وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31) ﴾ [النمل: 27 - 32]
وكان لذكاء ملكة سبأ دوره في ذهابها إلى سليمان ﷺ.. وكان سليمان ﷺ يعرف المدخل الذي يدخل به إليها وإلى قومها.
فقد رأى حبهم للترف.. بدليل أنه كان لها عرش عظيم.. فلذلك راح يبين لهم أنهم بإسلامهم وجوههم لله لن يفقدوا ذلك النعيم الذي كانوا يعيشونه.
ولذلك فإن ذكر الله تعالى ما أظهر لسليمان ﷺ لملكة سبأ من مظاهر الملك الذي أعطاه الله له لم يكن غرضه منه الفخر عليها، وإنما كان غرضه تعريفها بالله، لأنها انشغلت بالعرش العظيم الذي كان لها عن الله، فلذلك كان أول ما لاقاها به سليمان ﷺ هو عرشها الذي حجبها عن الله، وعن التسليم له، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾(النمل:42)
فلما قالت ذلك، وفي غمرة انبهارها بما رأت أخبرها سليمان ﷺ بأنه مع هذا الملك كان مسلما لله، فلم يحجب به عن الله، فقال تعالى على لسانه:﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ)
فلما رأى سليمان ﷺ حاجتها إلى المزيد من الأدلة، أحضرها إلى الصرح الممرد من القوارير، وقد كان من الجمال بحيث لا يساوي عرشها الذي شغلها عن الله شيئا بجانبه، وحينذاك لم تملك إلا أن تسلم لله، قال تعالى:﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (النمل:44)
وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى حين ذكر ذكاء ملكة سبأ الذي استطاعت به أن تميز به الملوك من المؤمنين، فقد أرسلت بهدية قيمة لسليمان ﷺ لتختبر موقفه من المال، قال تعالى على لسانها:﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾ (النمل:35)
لكن سليمان ﷺ نظر إلى ما أعطاه الله من الإيمان والفضل فوجده أعظم بكثير من أن ينحجب بهديتهم، فقال: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ (النمل:36)
ولعله لأجل هذا ورد في القرآن الكريم ذلك الطلب الغريب من سليمان ﷺ والذي أساء السلفية فهمه، وشوهوه بسببه أيما تشويه، وهو طلبه من ربه سبحانه وتعالى أن يعطيه ملكا لم يعطه أحدا من عباده، كما نص على ذلك قوله تعالى: ﴿

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [ص: 35]

مع أن سليمان ﷺ ـ بحسب ما يدل عليه النص القرآني ـ ما طلب ذلك الملك، وبتلك الصورة التي لا ينازعه فيها أحد إلا ليكون حجة على من شغله ملكه عن الله، وكأن سليمان ﷺ يقول لربه:(يارب هب لي من الملك ما تشاء.. بل هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي أن يحصل عليه.. فإن هذا الملك مهما كان عظيما.. وذلك الفضل مهما كان وفيرا لن يحجباني عنك، ولن يبعدا قلبي عن الرغبة فيك.. فإني لا أرى الأشياء مهما كثرت إلا منك.. ولا أرى نفسي إلا بك.. فكيف أحجب بهداياك الواصلة إلي.. أم كيف أنشغل بفضلك عنك؟)

وقد أشار الشريف المرتضى في رده على المخطئة ما وصموا به نبي الله سليمان ﷺ في هذا الجانب إلى قريب من هذا المعنى الذي ذكرناه، فقال: (قد ثبت أن الأنبياء عليهم السلام لا يسألون إلا ما يؤذن لهم في مسألته، لا سيما إذا كانت المسألة ظاهرة يعرفها قومهم. وجائز أن يكون الله تعالى أعلم سليمان ﷺ أنه إن سأل ملكا لا يكون لغيره كان أصلح له في الدين والاستكثار من الطاعات، وأعلمه أن غيره لو سأل ذلك لم يجب إليه من حيث لا صلاح له فيه. ولو أن أحدنا صرح في دعائه بهذا الشرط حتى يقول اللهم اجعلني أيسر أهل زماني وارزقني مالا يساويني فيه غيري إذا علمت أن ذلك أصلح لي وأنه أدعى إلى ما تريده مني، لكان هذا الدعاء منه حسنا جميلا وهو غير منسوب به إلى بخل ولا شح. وليس يمتنع أن يسأل النبي هذه المسألة من غير إذن إذا لم يكن شرط ذلك بحضرة قومه، بعد أن يكون هذا الشرط مرادا فيها، وإن لم يكن منطوقا به)(1)

ثم ذكر وجها آخر أكثر دلالة، فقال: (ووجه آخر: وهو أن يكون ﷺ إنما التمس أن يكون ملكه آية لنبوته ليتبين بها عن غيره ممن ليس نبيا. وقوله ﴿لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: 35] أراد به لا ينبغي لأحد غيري ممن أتى مبعوث إليه، ولم يرد من بعده إلى يوم القيامة من النبيين ﷺ. ونظير ذلك أنك تقول للرجل أنا أطيعك ثم لا أطيع أحدا بعدك، تريد ولا أطيع أحدا سواك. ولا تريد بلفظة بعد المستقبل، وهذا وجه قريب)(2)

ثم ذكر وجها ثالثا محتملا، فقال: (وقد ذكر أيضا في هذه الآية ومما لا يذكر فيها مما يحتمله الكلام أن يكون ﷺ إنما سأل ملك الآخرة وثواب الجنة التي لا يناله المستحق إلا بعد

1() تنزيه الأنبياء، ص140.
2() تنزيه الأنبياء، ص140.

انقطاع التكليف وزوال المحنة، فمعنى قوله لا ينبغي لأحد من بعدي أي لا يستحقه بعد وصولي إليه أحد من حيث لا يصح أن يعمل ما يستحق به لانقطاع التكليف. ويقوي هذا الجواب قوله: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ [ص: 35] وهو من أحكام الآخرة. وليس لأحد أن يقول إن ظاهر الكلام بخلاف ما تأولتم، لأن لفظة بعدي لا يفهم منها بعد وصولي إلى الثواب. وذلك أن الظاهر غير مانع من التأويل الذي ذكرناه، ولا مناف له. لأنه لا بد من أن تعلق لفظة بعدي بشئ من أحواله المتعلقة به، وإذا علقناها بوصوله إلى الملك كان ذلك في الفايدة ومطابقة الكلام كغيره مما يذكر في هذا الباب. ألا ترى أنا إذا حملنا لفظة بعدي على نبوتي أو بعد مسألتي أو ملكي، كان ذلك كله في حصول الفائدة به، يجري مجرى أن تحملها إلى بعد وصولي إلى الملك. فإن ذلك مما يقال فيه أيضا بعدي. ألا ترى أن القائل يقول دخلت الدار بعدي ووصلت إلى كذا وكذا بعدي، وإنما يريد بعد دخولي وبعد وصولي وهذا واضح بحمد الله)(1)

هذا هو تفسير القائلين بالعصمة المطلقة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام لقصة سليمان ﵇ مع ملكة سبأ.. أما السلفية، فقد راحوا برواياتهم يفسرون الآيات الكريمة تفسيرا مختلفا تماما، حيث جعلوا من هدف سليمان ﵇، بل من هدف تلك الآيات الكريمة التي حكت عنه، أن يتزوج من تلك الملكة، ويظهر لها سلطانه وسطوته، ويفتخر عليها بذلك.

وتبدأ حكاية السلفية مع ملكة سبأ من تعريفهم بها، فقد ذكروا أنها بلقيس بنت شراحيل.. وقد ذكر الثقاة منهم أنه ولدها أربعون ملكا، آخرهم أبوها.. وكان أحد أبويها من الجن(2)..

والسلفية يذمونها ذما شديدا، ويذمون معها أهل اليمن بسبب توليتهم لامرأة، وقد رووا عن سلفهم الصالح خالد بن صفوان أنه قال واصفا أهل اليمن: (هم من بين دابغ جلد، وسايس قرد، وحائك برد، ملكتهم امرأة، ودل عليم هدهد وغرقتهم فأرة)(3)

وقد استطاع السلفية ــ بالإضافة إلى هذا ــ الاطلاع على الهدية التي أرسلتها، فقد ذكرت مصادرهم الموثوقة أنها كانت مائة غلام، ومائة جارية.. وقيل أنها أرسلت إليه مائتي غلام ومائتي جارية، وكان بعضهم يشبه البعض في الصورة والصوت والهيئة، وقالت للرسول: قل له: ليميز بين الغلمان

____

1() تنزيه الأنبياء، ص141.
2() تفسير السمعاني (4/ 89)
3() تفسير السمعاني (4/ 90)

والجواري(1).

وقد استطاع السلفية أن يجدوا حلا لهذا اللغز المحير الذي أوقعته فيه ملكة سبأ، فقد رووا أنه أنه أمـرهم بـالجلوس ودعـا بالغلمـان والجـواري بـأن يتوضـئوا، فمن صـب المـاء على بطن ساعده قـال: هي جاريـة، ومن صـب المـاء على ظهـر سـاعده قال: هو غلام..

وذكر آخرون منهم أنه جعل من بـدأ بـالمرفق في الغسـل غلاما، ومن بدأ بالزند في الغسل جارية.. وذكر آخرون أنه جعـل من أغرف الأناء غلاما، ومن صب على يده جارية.

أما قصة القصر الممرد من قوارير، فقد ذكروا أن سليمان ﷷ جعل تحته تماثيل من الحيتـان والضـفادع، وكـان الواحـد إذا رآه ظنه ماء.. وقد أمـر سـليمان - ﷷ – أن يوضـع سـريره في وسـط الصـرح، ثم دعـا بلقيس إلى مجلسـه، فلمـا وصـلت إلى الصرح ونظرت ظنت أنه ماء، فكشفت عن سـاقيها لتـدخل في الماء، فصاح سليمان: ﴿ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَـرَّدٌ مِنْ قَـوَارِيرَ ﴾ [النمـل: 44]

أما سبب تكلفـه لبنائـه أو لصـناعته، فقـد ذكـروا أنـه قيـل لسليمان ﷷ أن على رجليها شعرا كثيرا.. أخبرتـه الجن بـذلك.. فأراد أن يتأكد، فوجدوا الأمر كما ذكروا.

ولهـذا ذكـروا أن سـليمان ﷷ قـال للشـياطين: مـا الـذي يـذهب الشـعر؟ فاتخـذوا النـورة، وهـو أول من اتخـذ الحمـام والنورة.

أما سبب اسـتقدامها لقصـره.. فهـو واضـح.. فقـد أراد أن يتزوج بها، ولذلك قصد أن ينظر إلى ساقيها(2).

هـذا هـو التشـويه السـلفي لقصـص الأنبيـاء في القـرآن الكريم.. ليتحول الأنبياء من دعـاة إلى اللـه، ومضـحين بكـل مـا يملكون في سبيل ذلك إلى طلاب دنيا، وترف، ونساء.

---

(1) تفسير السمعاني (4/ 96)
(2) تفسير السمعاني (4/ 102)

مع كون كل ما ذكرناه سابقا مسيئا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومشوها لمكانتهم الرفيعة، ومدنسا لمقاماتهم العالية، وحجابا عظيما بينهم وبين كونهم منارات هداية لهذه الأمة ولغيرها من الأمم.. إلا أن الأخطر من ذلك كله هو تحويل قصصهم من قصص قرآني مملوء بالمعاني السامية إلى قصص يهودي مملوء بالأساطير والخرافات.

وهذا للأسف ما حصل في تاريخنا الطويل بفعل تلك الروايات الشنيعة التي قبل السلفية رواتها، واعتبروهم أئمة للدين، بل وضعوا ذلك الهراء الذي قالوه في كتب التفسير والحديث والعقائد، ليرغم على قراءتها عوام الناس وخواصهم، فتنقدح معانيها المسمومة فيهم شعروا أو لم يشعروا.

ولا يفيد بعد كل ما ذكروه أن يقولوا عن تلك الأحاديث بعد روايتها بتفاصيلها وطرقها: موقوف على كعب الأحبار.. ولعله من الإسرائيليات.. فما تفيد هذه العبارة التي قد لا يلتفت لها القارئ أصلا بعد أن يشحن خياله تماما بأحداث القصة، وبعد أن تمحى كل تلك الصورة الجميلة التي صوروا بها الأنبياء عليهم السلام.

وخطر الدور الذي قام به السلفية في هذا هو تشجيعهم على مطالعة كتب أعلامهم الأوائل كالطبري والبغوي والسمعاني والثعلبي وغيرها.. في نفس الوقت الذي كانوا ولا زالوا يحذرون من كتب القائلين بالعصمة المطلقة، ككتاب الشريف المرتضى في تنزيه الأنبياء كما ذكرنا سابقا.

ولهذا، فإن السلفية، استطاعت أن تمارس الدور اليهودي في هذه الأمة، لا بتحريف ألفاظ القرآن الكريم، وإنما بتحويل معانيه.. وكلاهما خطير.. بل الأخطر هو تحريف المعاني، لأن المعاني هي المقصودة بالذات، وما الألفاظ إلا كسوتها.

وقد استعملت ـ كما ذكرنا مرات متعددة ــ ذلك الحديث الذي جعلوه مفتاحا لإدخال اليهودية في الإسلام بتجسيمها وأساطيرها وخرافاتها وكل أنواع ضلالها.

ومن الروايات العجيبة لذلك الحديث ما رووه عن أبى سعيد، قال: كنا قعودا نكتب ما نسمع من النبى ﷺ فخرج علينا، فقال: ما هذا تكتبون؟ فقلنا: ما نسمع منك، فقال: أكتاب مع كتاب الله؟ أمحضوا كتاب الله وأخلصوه، قال: فجمعنا ما كتبنا فى صعيد واحد، ثم أحرقناه بالنار، قلنا: أى رسول الله أنتحدث عنك؟ قال: نعم تحدثوا عنى، ولا حرج، ومن كذب على متعمدا

فليتبوأ مقعده من النار. قال: فقلنا: يا رسول الله، أنتحـدث عن بنى إسرائيل؟ قـال: نعم، تحـدثوا عن بـنى إسـرائيل، ولا حـرج، فإنكم لا تحدثوا عنهم بشىء إلا وقد كان فيهم أعجب منه(1).

فهم بهـذا الحـديث وأمثالـه مهـدوا للنسـخة اليهوديـة من الإسـلام.. فهـو ينهى عن الكتابـة عن رسـول اللـه ﷺ حـتى لا يختلط حديث رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم، وفي نفس الوقت يأذن بالحديث عن بني إسرائيل، وكأن أحاديث بني إسـرائيل لن تختلط بكتاب الله.

بل في الحديث ما هو أخطر من ذلك.. وهو الإقرار بأن كل ما يذكرونه عنهم صحيح، فقـد ورد فيـه (فـإنكم لا تحـدثوا عنهم بشىء إلا وقد كان فيهم أعجب منه)

ولو أن الذين نشروا أمثال هذه الأحاديث وراحوا يسـتدلون بهـا، بـل راحـوا يفعلونهـا في حيـاتهم بـالبحث عن أهـل الكتـاب والرواية عنهم قرأوا القرآن الكريم بصـدق وإخلاص لكـان فيهم من الورع ما يحول بينهم وبين ذلك.

فالقرآن الكـريم عنـدما يـورد أي قصـة من القصـص يخـبر الرسول ﷺ أن هذه القصة من الله، وأن الغيب للـه، وقـد كـان في إمكانـه أن يقـول لرسـول اللـه ﷺ: إن شـئت المزيـد من التفاصـيل فاقصـد أحبـار اليهـود، أو اقصـد الـذين أسـلموا منهم ليعطوك تلك التفاصيل.. لكنه لم يفعل، بل ورد النهي عن ذلك.

ومن الأمثلـة على ذلـك قولـه تعـالى: ﴿وَمَـا كُنْتَ بِجَـانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْـلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنْتَ بِجَـانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَـةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْـذِرَ قَوْمًـا مَـا أَتَـاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: 44 - 46]

فهذه الآيات الكريمة تبين المنهج العلمي الذي يحتاجه كـل من يريد الحديث عن الوقائع التاريخية السـابقة، وهي إمـا خـبر المعصوم كما أخبر الله تعالى نبيه ﷺ، أو هي الحضـور المباشـر للمكان والزمان الذي وقعت فيه الحادثة.. أما خبر الذين اختلط صدقهم بكذبهم فلن يزيد الباحث إلا ضلالة.

ومثل تلك الآيـة آيـات كثـيرة ترسـخ هـذا المنهج القـرآني، ومنها قولـه تعـالى بعـد ذكـره لقصـة نـوح ؑ: ﴿تِلْـكَ مِنْ أَنْبَـاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُـكَ مِنْ قَبْـلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: 49]

ومثلها قوله بعد ذكره لقصة مـريم عليهـا السـلام: ﴿ ذَلِـكَ

1() رواه ابن حجر في غاية المقصد فى زوائد المسند (1/ 101)، وقال: هو فى الصحيح باختصار وبغير هذا السياق أيضا..

مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: 44]

ومثلها قوله بعد ذكره لقصة يوسف ﷺ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: 102]

ومثلها قوله بعد ذكره لمجموعة من قصص الأنبياء عليهم السلام: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: 100]

بل إن القرآن الكريم لا يقصر هذا المنهج على القصص، بل يعممه في كل شيء، فلا يصح أن نتعلم أي علم من غير مصادره الصحيحة الموثوقة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: 36]

لأن كل علم لا يستند إلى مصدر صحيح موثوق هو دجل وكذب وضلالة، قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: 28]، وقال: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: 5]

لكن السلفية غفلوا عن كل هذه الآيات الكريمة، وتصوروا أن الأمر سهل، فليس في تلك الروايات سوى المزيد من التفاصيل التي تتوق لها نفوس الناس، ونسوا أن الأمر مرتبط بالقرآن الكريم الذي هو رسالة الله إلى عباده ليتدبروه، ويعيشوا معانيه.. فإذا ما اختلطت تلك المعاني بالتحريفات الإسرائيلية، فسيصبح القرآن الكريم حينها متنا، وتصبح تلك التحريفات شرحا له.. والناس لا يفهمون المتن إلا بشرحه، وقد يقتصرون على الشرح، ويغفلون عن المتن.

والخطر الأكبر الذي جره السلفية وسلفهم إلى القصص القرآني هو تلك التفاصيل الكثيرة التي لا مبرر للبحث فيها، بل قد نهينا عن البحث عنها.

فقد نهانا الله تعالى عن البحث عن التفاصيل التي لا نحتاج إليها، حتى لو وردتنا من مصادر موثوقة، لأن المهم هو العبرة، وليس تفاصيل الأحداث، كما قال تعالى عند ذكره لفتية أهل الكهف، والاختلاف في عددهم: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 22]

ومع أن الله تعالى نهى رسول الله ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يسأل أي أحد عن حقيقة عدد أهل الكهف، أو التفاصيل المرتبطة بهم.. لكن السلفية شحنوا كتبهم بأمثال هذه المسائل، بل إن الأمر وصل بهم إلى التعرف على اسم كلب أهل الكهف نفسه.

قال الطبري ــ شيخ مفسريهم ومصدرهم الأول ــ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: 18]: (اختلف أهل التأويل في الذي عنى الله بقوله: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ ﴾، فقال بعضهم: هو كلب من كلابهم كان معهم، وقد ذكرنا كثيرا ممن قال ذلك فيما مضى، وقال بعضهم: كان إنسانا من الناس طباخا لهم تبعهم)(1)

وهكذا تحول [الكلب] المعروف لغة واصطلاحا من العامة والخاصة إلى قضية مثيرة للجدل بين أهل التأويل.. والأكثر غرابة أن يتحول الكلب إنسانا، ثم يعتبر قائل هذا الغثاء من أهل التأويل.

وهكذا نرى ابن أبي حاتم الذي يعتبر مصدرا من مصادر السلفية في قبول الرواة ورفضهم، يفسر تلك الآيات الكريمة بأمثال هذه الروايات: (.. عن مجاهد قال: اسم كلبهم قطمور.. وعن الحسن قال: اسم كلب أصحاب الكهف، قطمير.. وعن ابن جريج قال: قلت لرجل من أهل العلم: زعموا إن كلبهم كان أسدا، قال: لعمر الله ما كان أسدا، ولكنه كان كلبا أحمر خرجوا به من بيوتهم يقال له، قطمور.. ومن طريق سفيان قال: قال رجل بالكوفة يقال له: عبيد وكان لا يتهم بكذب قال: رأيت كلب أصحاب الكهف أحمر كأنه كساء انبجاني)(2)

ثم لم يتعقب ابن أبي حاتم الذي تكلم في كل الرواة هذه الروايات بأدنى نقد.. بل تركها كما هي، غافلا عما ورد في القرآن الكريم من النهي عن البحث عن أمثال هذه التفاصيل.

انطلاقا من هذا سنورد هنا بعض النماذج التي تحولت بها قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى أساطير وخرافات لا تتناقض فقط مع القرآن الكريم، بل تتناقض قبل ذلك وبعده مع العقل السليم الفطري الذي يطالبه السلفية دائما بأن يعتقد ولا ينتقد.

نوح عليه السلام:

مع أن القرآن الكريم اعتبر نوحا عليه السلام مثالا للداعية الصابر المحتسب الذي استعمل كل الوسائل لهداية قومه، لكنه لم يلق منهم إلا الرد الشديد، وهذا وحده كاف ليملأ القلوب محبة

1() تفسير الطبري (17/ 624).
2() تفسير ابن أبي حاتم (7/ 2352).

له، ولمنهجه، ثم يطبع السلوك بعد ذلك بالقيم الرفيعة التي يحملها، بل يمثلها أحسن تمثيل.

لكن سلف السلفية استطاعوا أن يحجبوا هذه الصورة الجميلة بإغراق قصته بالخرافات والأساطير.. فأصبح نوح ﷺ بسبب روايات سلفهم مادة للخرافة والأسطورة، لا مادة للصبر والتضحية.

فمن الروايات التي يوردونها في تفاسيرهم السلفية التي ملأوا العالم ثناء عليها ما رووه عن ابن عباس، قال: قال الحواريون لعيسى ابن مريم: لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فحدثنا عنها! قال: فانطلق بهم حتى انتهى بهم إلى كثيب من تراب، فأخذ كفا من ذلك التراب بكفه، قال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا كعب حام بن نوح. قال: فضرب الكثيب بعصاه، قال: قم بإذن الله! فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب، قال له عيسى: هكذا هلكت؟ قال: لا ولكن مت وأنا شاب، ولكني ظننت أنها الساعة، فمن ثم شبت. قال: حدثنا عن سفينة نوح. قال: كان طولها ألف ذرع ومائتي ذراع، وعرضها ست مائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات، فطبقة فيها الدواب والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطير. فلما كثر أرواث الدواب، أوحى الله إلى نوح أن اغمز ذنب الفيل، فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الروث. فلما وقع الفأر بجرز السفينة يقرضه، أوحى الله إلى نوح أن اضرب بين عيني الأسد، فخرج من منخره سنور وسنورة، فأقبلا على الفأر، فقال له عيسى: كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر، فوجد جيفة فوقع عليها، فدعا عليه بالخوف، فلذلك لا يألف البيوت قال: ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجليها، فعلم أن البلاد قد غرقت قال: فطوقها الخضرة التي في عنقها، ودعا لها أن تكون في أنس وأمان، فمن ثم تألف البيوت. قال: فقلنا يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلينا، فيجلس معنا، ويحدثنا؟ قال: كيف يتبعكم من لا رزق له؟ قال: فقال له: عد بإذن الله، قال: فعاد ترابا(1).

وهكذا استطاع العقل السلفي ـ بفضل هذه الرواية ــ أن يتعلم الكثير من العلوم المرتبطة بأصل الأنواع التي احتار فيها علماء البيولوجيا.. بالإضافة لمعرفته بطول السفينة وعرضها وارتفاعها.

ومن الروايات التي يوردونها في تفسير الآيات التي ذكرت السفينة ما رووه عن ابن عباس، قال: كان أول ما حمل نوح

1() تفسير الطبري، (15/ 312)

في الفلك من الدواب الذرة، وآخر ما حمل الحمار، فلما أدخل الحمار وأدخل صدره، تعلق إبليس بذنبه، فلم تستقل رجلاه، فجعل نوح يقول: ويحك ادخل! فينهض فلا يستطيع. حتى قال نوح: ويحك ادخل وإن كان الشيطان معك! قال: كلمة زلت عن لسانه، فلما قالها نوح خلي الشيطان سبيله، فدخل ودخل الشيطان معه، فقال له نوح: ما أدخلك علي يا عدو الله؟ فقال: ألم تقل: ادخل وإن كان الشيطان معك؟ قال: اخرج عني يا عدو الله! فقال: ما لك بد من أن تحملني! فكان، فيما يزعمون، في ظهر الفلك(1).

وهكذا يصورون الشيطان، وهو يحتال على نوح ﵇ كما احتال على أبيه من قبل، ومن العجب أن يصوروا الشيطان خائفا من الطوفان، أو محتاجا لأن يركب الفلك، مع أنهم يروون أن رسول الله ﷺ قال:(إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة، أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئا، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه، ويقول: نعم أنت)(2)

وفي رواية: (عرش إبليس على البحر، يبعث سراياه، فأعظمهم عنده منزلة، أعظمهم فتنة)(3)

بل إنهم يروون عن رسول الله ﷺ أن (سفينة نوح طافت بالبيت وصلّت خلف المقام ركعتين)(4)

هذه بعض الروايات التي رويت في كتب التفسير والتاريخ لتحجب تلك الصورة الجميلة التي صور بها القرآن الكريم نوحا ﵇، وتضع بدلها هذه الخرافات والأساطير.

موسى ﵇:

مثلما شوه السلفية قصة نوح ﵇ بما أوردوه من خرافات وأساطير، فكذلك فعلوا بموسى ﵇، حيث تحولت قصته من قصة داعية ومخلص إلى قصة خرافية أسطورية تسلي أصحاب العقول السلفية البسيطة.

والخطورة في هذه الأساطير أنها تتخذ القرآن الكريم مطية لها، فهي تزعم تفسيرها للقرآن، والخطر الأكبر أن ترفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، لتجعل منه حكواتيا لا نبيا.

ومن الروايات التي يوردونها في هذا، ويتشددون مع منكرها أو منتقدها قصة فرار الحجر بثوب موسى ﵇، ذلك أن

1() تفسير الطبري (15/ 314).
2() أحمد 3/314 (14430) ومسلم 8/138 (7207).
3() أحمد 3/332 (14608) ومسلم 8/138 (7209).
4() تفسير البغوي - طيبة (4/ 179)

مخرجها هما المعصومان اللذان يستحيل عليهما الخطأ: البخاري ومسلم.. وراويها هو أبو هريرة الذي جمع بين المدرستين: الإسلامية واليهودية، كما جمع بين الأستاذين: رسول الله وكعب الأحبار.. وكفاه بذلك شرفا.

ونصها هو (كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة، وينظر بعضهم إلى سواة بعض، وكان موسى يغتسل وحده، فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر، قال: فذهب مرة يغتسل، فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، قال: فجمع موسى ﵇ بإثره يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سوأة موسى فقالوا: والله ما بموسى من بأس، فقام الحجر حتى نظر إليه، قال: فأخذ ثوبه، فطفق بالحجر ضربا) قال أبو هريرة: والله إن بالحجر ستة أو سبعة، ضرب موسى بالحجر(1).

ومع أن الرواية تخلو من أي حكم تربوي أو توجيهي، بل هي لم تزد سوى أن تسيء لنبي الله موسى ﵇ بتصويره عريانا يراه بنو إسرائيل أجمعون، وكل ذلك لتنفي عنه تلك الآفة الخلقية التي اتهموه بها، والتي فسر السلفية على أساسها قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: 69]، وكأن بني إسرائيل لم يؤذوا موسى ﵇ إلا بتلك التهمة التي لا قيمة لها.

إلا أن السلفية انشغلوا بالدفاع عن هذه الرواية دفاع المستميت، بل وانشغلوا بتبديع كل منكر لها، وسأنقل هنا ـ باختصار ـ نموذجا عن ذلك الدفاع من رجل من عقلاء السلفية المعاصرين، لنعلم أنه يستحيل أن يجمع الإنسان بين العقل والسلفية.. لأنهما خطان متوازيان لا يلتقيان أبدا.. فأول شرط لدخول المرء في عصبة السلفية أن يلقي بعقله في البحر.

والعاقل السلفي المعاصر هو د. الشريف حاتم بن عارف العوني، عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى، فقد أجاب على سؤال أثاره بعض العقلانيين الممقوتين من السلفية، ونصه: (دعيت من أحد الأصدقاء لأنضم إلى جماعة إيمانية، كلامهم مبهر وجميل، لكن ما أثار شكوكي أنهم يشككون بحديث شريف، وهو الحديث الذي يتحدث عن موسى ﵇ عندما نزل ليغتسل في النهر، ووضع ثيابه على حجر ففر الحجر ليبرأ موسى من تهم بني إسرائيل، فأنا أريد أن أعرف درجة هذا الحديث هل هو صحيح أم لا؟)(2)

1() البخاري (1/107)، مسلم (1/267، 4/1841)، أحمد (2/315)

2() حديث فرار الحجر بثوب موسى ﵇، د. الشريف حاتم بن عارف العوني، رقم

فأجاب الشيخ السلفي العاقل بقوله: (الحديث الـذي سـأل عنه السائل حديث صحيح وارد في صـحيحي البخـاري ومسـلم، اللذين هما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى.. والحديث مع كونه مما قد صححه البخاري ومسلم، وكفى بتصحيحهما ثقـة؛ لشـدة احتياطهما، وقوة شرطهما في التصحيح؛ ولأن الأمة قـد أجمعت على صحة كتابيهما، إلا أحاديث يسـيرة خـالف في صـحتها بعض أئمـة الحـديث؛ لكن لم يكن هـذا الحـديث أحـد تلـك الأحـاديث المختلـف فيهـا، فإسـناده من أصـح الأسـانيد، فهـو من نسـخة التابعي الثقة الجليل همام بن منبّه(1) التي كتبها عن أبي هريـرة مباشــرة، حــتى لقّب العلمــاء هــذه الصــحيفة بـــ (الصــحيفة الصحيحة).. وبذلك يتبيّن أنه لا مجـال للتشـكيك في صـحة هـذا الحديث عن رسولنا ﷺ، ولا أدري لماذا تجرّأ هؤلاء الفضلاء على هذا الحديث؟! فثبوت اللفظ عن النبي ﷺ لا شك فيه) (2)

وبعـد أن أثبت صـحة الحـديث سـندا، راح يتكلـف لإثباتـه معنى، فقال: (وأما المعنى فلا أدري ما المشكل فيه عند هـؤلاء الفضـلاء؟! ولكـني سـأحاول تفهُّمَ الإشـكالات المحتملـة في الحديث، وأجيب عنها. والذي بدا لي منها إشـكالان فقـط، همـا: الأول: أن في الحديث إخبارا عن أمـر غـير معقـول، وهـو جـري الحجر. وجوابه: أن هذا لا يستشـكله إلا من لا يـؤمن بمعجـزات الأنبياء، وبخوارق العادات التي يجريها اللـه تعـالى على أيـديهم، والـتي ثبتت في القـرآن الكـريم والسـنة المطهـرة المتواطئـة عليهـا. فليس جـري الحجـر بـأعجب من شـق البحـر، ولا إحيـاء الموتى، ولا جعل النار بردا وسلاما، وغيرها من معجزات الأنبياء الثابتة في القرآن قبل السنة!!.. الثاني: أن كشـف العـورة أمـرٌ سيّءٌ، ولا يتمنـاه أحـدٌ لنفسـه، فكيـف يقـدّره اللـه تعـالى على موسى عليه السلام؟! وجوابه: أن الحديث بيّنَ أن سبب ذلـك هـو اتهـام بني إسرائيل لموسى عليه السلام بأنه إنمـا كـان يسـتر عورتـه لمرضـه، وعلم الله تعالى أن مفسدة هذه التهمة على موسـى عليه السلام وعلى رسالته مفسدةٌ أشدُّ وأعظم من مفسدة ظهـور عـورة موسـى عليه السلام، وأن الأذى الذي سيصيب موسى عليه السلام جراء انكشاف عورتـه أخفّ من الأذى الذي اتّهمه به قومُه. وقد حكى الله تعالى علينـا في القـرآن الكـريم من سـوء خلـق بـني إسـرائيل ومن شـدة عنادهم وتلكّؤهم عن الطاعـة وسـرعة انقلابهم مـا لا نسـتغرب معه أن يكونوا قـد بلغـوا بـأذى موسـى عليه السلام على هـذا الأمـر مـا يستوجب دَفْعَه عنـه، ولـو بكشـف العـورة. ويبقى أن هـذا ابتلاء

السؤال 174330، موقع الألوكة، المجلس العلمي.

1() مع العلم أن هذا الرجل يهودي، وهو أخو وهب بن منبه، ومعقـل بن منبـه، وغيلان بن منبه، الذين تروى عنهم الروايات الإسرائيلية.

2() حديث فرار الحجر بثوب موسى عليه السلام.

من جملة ابتلاءات موسى ﷺ، والتي بها وبغيرها من مراقي تشريف الله تعالى له ومن الطاعة والتعظيم لله تعالى كان موسى ﷺ عند الله تعالى وجيها) (1)

ثم قدم النصيحة السلفية لمن يتجرأ على رد هذا، فقال: (وعلى السائل أن ينصح هؤلاء الإخوة الفضلاء (إن شاء الله) في هذا الأمر: بأن لا يتجرؤوا على ما لا علم لهم به، من تصحيح الأحاديث وتضعيفها، وأنهم إن استشكلوا حديثا أو غمض عليهم لفظُه أو معناه فعليهم أن يسألوا عنه من أهل العلم الذي كان معروفا فيهم بالعناية بالسنة وعلومها، وكان متخصصا في هذا العلم الشريف من علوم الشريعة. فالكلام في السنة تصحيحا وتضعيفا وتوجيها علمٌ تخصصي في علوم الشريعة، فليس كل عالم شرعي قادرا على إجادة الكلام فيه، فضلا عن غيره ممن لم يكن عالما شرعيا في أحد تخصصات الشريعة العديدة الأخرى. فإن وجد الأخ السائل أن هذه الجماعة لا تنتصح له، وأنهم يكررون السخرية من السنة الصحيحة، فليحذرهم على إيمانه وعقله: فإما أن يستبدلهم بجماعة خير منهم، أو أن يصاحبهم إذا كان محتاجا لصحبتهم، بشرط أن يكون قادرا على التحصّن من خطئهم هذا، فيأخذ منهم ما صفا وطاب، ويتجنب منهم ما كدر وخبث، مع دوام نصحه لهم، ومع عدم يأسه من قبولهم للنصيحة وتوبتهم، مهما طال ذلك منهم. والمهم الذي أؤكد عليه: أن لا يسمح لشبههم بالتسلل إليه، وأن تكون نجاتُه من بدعة تُفْسِدُ عليه قلبَه مقدّمةً لديه على كل شيء؛ فلا يعدل النجاةَ شيء! هذا كله إن تكرر منهم مثل هذا الخطأ ونحوه، أما إن كان ذلك منهم نادرا، فليكتف بنصحهم، ولا يتجنبهم، ما دام يستفيد منهم في زيادة إيمانه)(2)

ومن الإسرائيليات والخرافات المتعلقة بموسى ﷺ، بالإضافة إلى هذا، ما نجده في كتب التفسير والتاريخ السلفية عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: 22]، فهم يوردون عند تفسيرها قصة عوج بن عوق، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع، وأنه كان يمسك الحوت، فيشويه في عين الشمس، وأن طوفان نوح لم يصل إلى ركبتيه، وأنه امتنع عن ركوب السفينة مع نوح، وأن موسى كان طوله عشرة أذرع وعصاه عشرة أذرع، ووثب في الهواء عشرة أذرع، فأصاب كعب عوج فقتله، فكان جسرا لأهل النيل سنة.

وقد قدم الطبري لتلك الروايات بقوله: (وهذا خبر من الله

1() حديث فرار الحجر بثوب موسى ﷺ.
2() حديث فرار الحجر بثوب موسى ﷺ.

جل ثناؤه عن جواب قوم موسى ﷺ، إذ أمـرهم بـدخول الأرض المقدسة: أنهم أبـوا عليـه إجابتـه إلى مـا أمـرهم بـه من ذلـك، واعتلوا عليه في ذلك بأن قـالوا، إن في الأرض المقدسـة الـتي تأمرنا بدخولها، قوما جبارين لا طاقـة لنـا بحـربهم، ولا قـوة لنـا بهم. وسـموهم جبـارين، لأنهم كـانوا لشـدة بطشـهم وعظيم خلقهم، فيما ذكر لنا، قد قهروا سائر الأمم غيرهم)(1)

ولا بأس أن نتبرك هنا ببعض ما رواه حول هـؤلاء الجبـارين وعظم خلقهم، فقد روى عن السدي في قصـة ذكرهـا من أمـر موسى وبني إسرائيل، قال: (ثم أمرهم بالسير إلى أريحا، وهي أرض بيت المقدس، فسـاروا، حـتى إذا كـانوا قريبـا منهم، بعث موسى اثنى عشر نقيبا من جميع أسباط بني إسرائيل، فسـاروا يريـدون أن يـأتوه بخـبر الجبـارين، فلقيهم رجـل من الجبـارين، يقال لـه عـوج، فأخـذ الاثـنى عشـر فجعلهم في حجزتـه، وعلى رأسه حملة حطب، وانطلق بهم إلى امرأته فقـال، انظـري إلى هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يريدون أن يقاتلونا!! فطـرحهم بين يديها، فقال: ألا أطحنهم برجلي؟ فقالت امرأته: لا بـل خـل عنهم حتى يخبروا قومهم بما رأوا! ففعل ذلك) (2)

وروى عن مجاهد في قول اللـه: ﴿وَبَعَثْنَـا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَـرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: 12]: (من كل سـبط من بـني إسـرائيل رجـل، أرسلهم موسى إلى الجبارين، فوجدوهم يـدخل في كم أحـدهم اثنان منهم، يلقـونهم إلقـاء، ولا يحمـل عنقـود عنبهم إلا خمسـة أنفس بينهم في خشبة، ويدخل في شطر الرمانة إذا نـزع حبهـا خمسة أنفس، أو أربعة)(3)

هـذه نمـاذج عن بعض الخرافـات الـتي شـوهت بهـا قصـة موسى ﷺ لتتحول إلى أسطورة وخرافـة، بـدل أن تكـون نـورا وهداية.

إسماعيل ﷺ:

وهو من الأنبياء الكـرام الـذين ذكـروا في القـرآن الكـريم، ووصفوا بصفات عظيمة لتكون محل هدايـة وقـدوة، منهـا قولـه تعال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَـانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَـانَ عِنْـدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: 54، 55]

ومنهـا مـا ورد في قصـة الـذبح، والـتي تـدل على حلمـه العظيم، وتسـليمه المطلـق للـه تعـالى، قـال تعـالى حاكيـا عن إبراهيم ﷺ بعد معاناته الشديدة مع قومـه: ﴿ وَقَـالَ إِنِّي ذَاهِبٌ

1() تفسير الطبري (10/ 171).
2() تفسير الطبري (10/ 172)، وهو في تاريخ الطبري 1: 221، 222.
3() تفسير الطبري (10/ 174).

إِلَى رَبِّي سَـــيَهْدِينِ (99) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّـــالِحِينَ (100) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (101) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَـلْ مَـا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَـاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّـابِرِينَ [الصـافات: 99 - 102]

ومع أن هذه الآيات واضـحة في الدلالـة على أن المقصـود منها هـو إسـماعيل ﵇ إلا أن جمهـور سـلف السـلفية انتصـروا للقول بأن المراد هو إسحاق، كما تنص كتب أهل الكتاب، وهــذا يدل على المصدر اليهودي للعقيدة السلفية.

وقد مهد الطبري ـ شيخ المفسرين السـلفيين ــ للروايـات التي اسـتند لهـا في هـذا القـول بقولـه: (..وكـان فيمـا ذكـر أن إبراهيم نـذر حين بشـرته الملائكـة بإسـحاق ولـدا أن يجعلـه إذا ولدته سارة لله ذبيحا، فلمـا بلـغ إسـحاق مـع أبيـه السـعي أري إبراهيم في المنـام، فقيـل لـه: أوف للـه بنـذرك، ورؤيـا الأنبيـاء يقين، فلذلك مضى لما رأى في المنام، وقال له ابنه إسحاق ما قال)[1]

ثم ذكر من الروايات التي تدل على هذا رواية عن السدي، يقول فيها: (قال جبرائيل لسارة: أبشـري بولـد اسـمه إسـحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، فضربت جبهتها عجبـا.. قـالت سـارة لجبريل: ما آية ذلك؟ فأخذ بيده عودا يابسا، فلـواه بين أصـابعه، فاهتز أخضر، فقال إبراهيم: هو لله إذن ذبيح، فلما كبر إســحاق أتي إبراهيم في النوم، فقيل لـه: أوف بنـذرك الـذي نـذرت، إن الله رزقك غلاما من سـارة أن تذبحـه، فقـال لإسـحاق: انطلــق نقرب قربانا إلى الله، وأخذ سكينا وحبلا ثم انطلق معه حتى إذا ذهب به بين الجبال قال لـه الغلام: يـا أبت أين قربانـك؟ قَـالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُـؤْمَرُ سَـتَجِدُنِي إِنْ شَـاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّـابِرِينَ (102) [الصافات: 102] فقال له إسحاق: يا أبت أشدد رباطي حـتى لا أضـطرب، واكفـف عـني ثيابـك حـتى لا ينتضـح عليهـا من دمي شيء، فتراه سـارة فتحـزن، وأسـرع مـر السـكين على حلقي؛ ليكون أهون للمـوت علي، فـإذا أتيت سـارة فـاقرأ عليهـا مـني السلام، فأقبل عليه إبراهيم يقبله وقد ربطه وهو يبكي وإسحاق يبكي، حتى استنقع الدموع تحت خد إسحاق، ثم إنه جر السكين على حلقه، فلم تحك السكين، وضرب الله صفيحة من النحاس على حلق إسحاق، فلما رأى ذلك ضرب به على جبينه، وحز من قفاه، فذلك قوله (فلما أسـلما) يقـول: سـلما للـه الأمـر (وتلـه للجبين) فنودي يا إبراهيم (قـد صـدقت الرؤيـا) بـالحق فـالتفت

1() تفسير الطبري (21/ 74).

فإذا بكبش، فأخذه وخلى عن ابنه، فأكب على ابنه يقبله، وهو يقول: اليوم يا بني وهبت لي; فلذلك يقول الله: (وفديناه بذبح عظيم) فرجع إلى سارة فأخبرها الخبر، فجزعت سارة وقالت: يا إبراهيم أردت أن تذبح ابني ولا تعلمني!)(1)

وروى عن عبد الله بن عمير قال: (قال موسى: يا رب يقولون يا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فبم قالوا ذلك؟ قال: إن إبراهيم لم يعدل بي شيئا قط إلا اختارني عليه، وإن إسحاق جاد لي بالذبح، وهو بغير ذلك أجود، وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادني حسن ظن)(2)

وروى عن عمرو بن أبي سفيان بن أسيد بن حارثة الثقفي، أخبره أن كعبا قال لأبي هريرة: ألا أخبرك عن إسحاق بن إبراهيم النبي؟ قال أبو هريرة: بلى، قال كعب: لما رأى إبراهيم ذبح إسحاق، قال الشيطان: والله لئن لم أفتن عند هذا آل إبراهيم لا أفتن أحدا منهم أبدا، فتمثل الشيطان لهم رجلا يعرفونه، فأقبل حتى إذا خرج إبراهيم بإسحاق ليذبحه دخل على سارة امرأة إبراهيم، فقال لها: أين أصبح إبراهيم غاديا بإسحاق؟ قالت سارة: غدا لبعض حاجته، قال الشيطان: لا والله ما لذلك غدا به، قالت سارة: فلم غدا به؟ قال: غدا به ليذبحه! قالت سارة: ليس من ذلك شيء، لم يكن ليذبح ابنه! قال الشيطان: بلى والله! قالت سارة: فلم يذبحه؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك; قالت سارة: فهذا أحسن بأن يطيع ربه إن كان أمره بذلك. فخرج الشيطان من عند سارة حتى أدرك إسحاق وهو يمشي على إثر أبيه، فقال: أين أصبح أبوك غاديا بك؟ قال: غدا بي لبعض حاجته، قال الشيطان: لا والله ما غدا بك لبعض حاجته، ولكن غدا بك ليذبحك، قال إسحاق: ما كان أبي ليذبحني! قال: بلى; قال: لم؟ قال: زعم أن ربه أمره بذلك; قال إسحاق: فوالله لئن أمره بذلك ليطيعنه، قال: فتركه الشيطان وأسرع إلى إبراهيم، فقال: أين أصبحت غاديا بابنك؟ قال: غدوت به لبعض حاجتي، قال: أما والله ما غدوت به إلا لتذبحه، قال: لم أذبحه؟ قال: زعمت أن ربك أمرك بذلك; قال: الله فوالله لئن كان أمرني بذلك ربي لأفعلن; قال: فلما أخذ إبراهيم إسحاق ليذبحه وسلم إسحاق، أعفاه الله وفداه بذبح عظيم، قال إبراهيم لإسحاق: قم أي بني، فإن الله قد أعفاك; وأوحى الله إلى إسحاق: إني قد أعطيتك دعوة أستجيب لك فيها; قال، قال إسحاق: اللهم إني أدعوك أن تستجيب لي، أيما عبد لقيك من الأولين والآخرين لا يشرك بك شيئا، فأدخله الجنة

1() تفسير الطبري (21/ 75).
2() تفسير الطبري (21/ 80).

(1).

وروى عن أبي هريـــرة، عن كعب الأحبــار أن الــذي أمــر إبراهيم بذبحه من ابنيه إسحاق، وأن الله لما فرج له ولابنــه من البلاء العظيم الذي كان فيه، قال الله لإسحاق: إني قد أعطيتـك بصبرك لأمري دعوة أعطيك فيها ما سألت، فسـلني، قـال: رب أسألك أن لا تعذب عبدا من عبادك لقيك وهو يؤمن بك، فكـانت تلك مسألته التي سأل(2).

وقـد حكى الطـبري وغـيره هـذا القـول عن أعلام السـلف كـابن عبـاس وعبـد اللـه بن مسـعود وأبي هريـرة وغـيرهم من الصحابة، بالإضافة لأكثر من عشرة من سادات التابعين(3).

وبعــد أن حكى الأقــوال المختلفــة في هــذا عقب عليهــا مرجحا بقوله: (وأولى القولين بالصـواب في المفـدي من ابـني إبراهيم خليل الـرحمن على ظـاهر التنزيـل قـول من قـال: هـو إسحاق، لأن الله قال: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصـافات: 107] فذكر أنه فدى الغلام الحليم الذي بشر به إبراهيم حين سأله أن يهب لـه ولـدا صـالحا من الصـالحين، فقـال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات: 100] فإذ كان المفدي بالذبح من ابنيــه هو المبشر به، وكان الله تبارك اسمه قد بين في كتابه أن الذي بشر به هو إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، فقال جل ثنـاؤه: ﴿فَبَشَّـرْنَاهَا بِإِسْـحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْـحَاقَ يَعْقُـوبَ ﴾ [هـود: 71] وكان في كل موضع من القرآن ذكر تبشيره إياه بولد، فإنما هو معني به إسحاق، كـان بينـا أن تبشـيره إيـاه بقولـه: ﴿فَبَشَّـرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصــافات: 101] في هــذا الموضــع نحــو ســائر أخباره في غيره من آيـات القـرآن. وبعـد: فـإن اللـه أخـبر جـل ثنـاؤه في هـذه الآيـة عن خليلـه أنـه بشـره بـالغلام الحليم عن مسألته إياه أن يهب لـه من الصـالحين، ومعلـوم أنـه لم يسـأله ذلك إلا في حال لم يكن له فيه ولد من الصالحين، لأنــه لم يكن له من ابنيه إلا إمام الصالحين، وغير موهم منه أن يكــون ســأل ربه في هبة ما قد كان أعطاه ووهبه لـه. فـإذ كـان ذلـك كـذلك فمعلوم أن الذي ذكر تعالى ذكره في هذا الموضع هو الذي ذكر في سائر القرآن أنه بشره به وذلك لا شك أنه إسـحاق، إذ كـان المفدي هو المبشر به)(4)

ومع قوة الأدلة التي استدل بها القـائلون بـأن المفـدى هـو إســماعيل عليه السلام، لدلالــة القــرآن الكــريم عليهــا إلا أن الطــبري، ولشــدة شــغفة ووثوقــه بســلفه من اليهــود، راح يفنــدها مــع

1() تفسير الطبري (21/ 81).
2() تفسير الطبري (21/ 82).
3() انظر: تفسير الطبري (21/ 79)
4() تفسير الطبري (21/ 86).

وضوحها الشديد، فقال: (وأما الذي اعتل به من اعتل في أنه إسماعيل، أن الله قد كان وعد إبراهيم أن يكون له من إسحاق ابن ابن، فلم يكن جائزا أن يأمره بذبحه مع الوعد الذي قد تقدم، فإن الله إنما أمره بذبحه بعد أن بلغ معه السعي، وتلك حال غير ممكن أن يكون قد ولد لإسحاق فيها أولاد، فكيف الواحد؟ وأما اعتلال من اعتل بأن الله أتبع قصة المفدي من ولد إبراهيم بقوله ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: 112] ولو كان المفدي هو إسحاق لم يبشر به بعد، وقد ولد، وبلغ معه السعي، فإن البشارة بنبوه إسحاق من الله فيما جاءت به الأخبار جاءت إبراهيم وإسحاق بعد أن فدي تكرمة من الله له على صبره لأمر ربه فيما امتحنه به من الذبح، وقد تقدمت الرواية قبل عمن قال ذلك. وأما اعتلال من اعتل بأن قرن الكبش كان معلقا في الكعبة فغير مستحيل أن يكون حمل من الشام إلى الكعبة. وقد روي عن جماعة من أهل العلم أن إبراهيم إنما أمر بذبح ابنه إسحاق بالشام، وبها أراد ذبحه)(1)

وهكذا تصبح الأخبار والروايات والقصص والأساطير هي الموجه للطبري في تحديد موقفه.. لا نص الآية الكريم الواضح تماما.

ولهذا فإن الروايات السلفية هي الحجاب الأعظم الحائل بين العقول والوصول إلى الحقائق القرآنية، لأن ضباب الخرافات والأساطير يحول بين العقل والتفكير المنهجي السليم.

داود ﷺ:

من المواقف التي ذكرها القرآن الكريم لداود ﷺ ـ بالإضافة إلى ما سبق ذكره في الفصول السابقة ـ دوره الجهادي في مواجهة الطغيان الذي كان يمارسه جالوت على بني إسرائيل، والذي قص علينا الكريم قصته من البداية عندما طلب بنو إسرائيل أن يجعل الله لهم حاكم يحكمهم، ليوحد صفهم، ويجمع كلمتهم، ليواجهوا الطغيان الذين يمارس عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246)﴾ [البقرة: 246، 247]

وقد اختار الله لهم ذلك الملك الحكيم القوي الذي يمكنه

(1) تفسير الطبري (21/ 86).

أن يؤدي هذا الدور بأحسن وجه، قال تعـالى: ﴿وَقَـالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: 247]

لكن بني إسرائيل لم يعجبهم اختيار الله، فاعترضـوا عليـه، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْـكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: 247]

وقد رد الله عليهم بأن الله هو الذي اصطفاه، وفـوق ذلـك آتاه من مقومـات الحـاكم مـا يسـتطيع أن يـؤدي دوره بأحسـن الوجوه، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْـمِ وَاللَّهُ يُـؤْتِي مُلْكَـهُ مَنْ يَشَـاءُ وَاللَّهُ وَاسِـعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 247]

لكن بـني إسـرائيل ــ بطبعهم الجـدلي ــ زاد اعتراضـهم، وطلبوا آية من الله تـدل على صـدق نـبيهم، فأعطـاهم اللـه مـا طلبوا، قـال تعـالى: ﴿وَقَـالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَـةَ مُلْكِـهِ أَنْ يَـأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيـهِ سَـكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَـرَكَ آلُ مُوسَـى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَـةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ (248) ﴾ [البقرة: 248]

ثم ذكر الله تعالى ما مارسه طالوت مـع جنـوده من أنـواع الاختبار حتى يميزهم، فلا يسير معـه إلى المـؤمن القـوي، قـال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَـالُوتُ بِـالْجُنُودِ قَـالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَـرٍ فَمَنْ شَـرِبَ مِنْـهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْـهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: 249]

وفي ذلـك إشـارة إلى العقـل الكبـير الـذي كـان يملكـه طالوت، والـذي عـرف أنـه لا ينتصـر على جـالوت إلا المؤمـنين أصحاب العزائم القوية.

وكان من أصحاب تلك العزائم ـ كما يذكر القرآن الكـريم ـ داود، الـذي اسـتطاع أن يقتـل جـالوت، ويتسـبب في هزيمـة طالوت وجنوده، قال تعالى: ﴿فَهَزَمُـوهُمْ بِـإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَـلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَـةَ وَعَلَّمَـهُ مِمَّا يَشَـاءُ وَلَـوْلَا دَفْـعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَـهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَـدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْـلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 251]

وتنتهي القصة القرآنية بهـذا.. لكن السـلفية ــ وبالروايـات التي تبنوها ـ أعطوا الحق للإسـرائيليين في رفضـهم لطـالوت ـ شـعروا أو لم يشـعروا ــ لأنهم جعلـوا منـه ظالمـا مسـتبدا، بـل ساعيا لقتـل داود عليه السلام.. وبـذلك فـإن من يقـرأ القصـة القرآنيـة، ويفسـرها بالقصـة الإسـرائيلية لاشـك أنـه سـيميل إلى موقـف اليهود في بغضهم لطالوت.. وكيف لا يبغضـونه، وهم يـرون أنـه يريد أن يقتل نبيا من الأنبياء الكرام.

وسنسوق القصة كما أوردوها، ونترك الحكم بعدها للقـارئ

ليكتشف ذلك الصراع بين السلفية والقرآن.. وكيف اسـتطاعت الرواية أن تحطم كل المعاني القرآنية الجميلة.

فقـد ذكـر مفسـرو السـلف ــ بألفـاظ متشـابهة ومعـان متّفقة(1) ـ أنه (عـبر النهـر فيمن عـبر مـع طـالوت أبـو داود في ثلاثة عشر ابنا وكان داود أصغرهم، فأتـاهم ذات يـوم فقـال: يـا أبتاه ما أرمي بقذافتي شيئا إلّا صـرعته فقـال: أبشـر فـإنّ اللـه جعل رزقك في قذافتك، ثم أتاه مرّة أخرى فقال: يـا أبتـاه لقـد دخلت بين الجبال فوجدت أسـدا رابضـا فركبتـه وأخـذت بأذنيـه ولم يهمّني، فقال: أبشر يا بني فإنّ هـذا خـير أعطاكـه اللـه. ثم أتاه يوما آخر فقال: يا أبتاه إنّي لأمشي بين الجبال فاسـبّح فمـا يبقى جبل إلّا يسـبّح معي، فقـال: أبشـر يـا بـني فـإنّ هـذا خـير أعطاكه الله. قـالوا: فأرسـل جـالوت إلى طـالوت أن ابـرز اليّ من يقــاتلني فــإن قتلــني فلكم ملكي وإن قتلتــه فلي ملككم، فشقّ ذلك على طـالوت فنـادى في عسـكره من يقتـل جـالوت زوّجته ابنتي وناصـفته ملكي، فخـاف النـاس جـالوت فلم يجبـه أحد. فسأل طالوت نبيّهم اشمويل ان يدعوا الله، فدعا الله عـزّ وجلّ في ذلك، فأتى بقرن فيه دهن، وتنور من حديد، فقيـل: إنّ صاحبكم الذي يقتـل جـالوت هـو الـذي يوضـع هـذا القـرن على رأسه فيغلي الدهن حتّى يدهن رأسه منه ولا يسـيل على وجهـه يكون على رأسه كهيئة إلّا كليل، ويدخل في هذا التنـور فيملـؤه لا يتقلقل فيه، فدعا طالوت بني إسـرائيل فجـرّبهم فلم يوافقـه منهم أحد.فأوصى اللـه تعـالى إلى نـبيهم إنّ في ولـد أيشـا من يقتل الله بـه جـالوت، فـدعا طـالوت أيشـا وقـال: أعـرض عليّ نبيــك، فــأخرج لــه اثــني عشــر رجلا أمثــال الســواري، فجعــل يعرضهم على القـرن فلا يـرى شـيئا فيقـول لرجـل منهم: يـادع عليهم جسم ارجع فيردد عليه فأوحى الله تعالى إليه إنا لا نأخــذ الرجـال على صـورهم ولكنّـا نأخـذ على صـلاح قلـوبهم، فقـال لأيشا: هل بقي لك ولد غيرهم؟ قال: لا. فقال النبي ﵇: يا ربّ إنّه زعم أنّ لا ولد له غيرهم، فقال: كذب. فقال النــبيّ: إنّ ربّي كذّبك، فقال: صدق الله يا نبي الله إنّ لي ابنا صـغيرا يقـال لـه: داود، استحييت أن يراه الناس لقصـر قامتـه وحقارتـه، فخلّفتـه في الغنم يرعاها وهو في شعب كذا، وكان داود ﵇ رجلا قصيرا مسقاطا مصفارا أزرق أمعد. فدعاه طـالوت، ويقـال: بـل خـرج طالوت إليه فوجد الوادي قد سال بينه وبين الـزرب الـتي يـريح إليها، فوجده يحمل شـاتين شـاتين يجيزهمـا السـيل ولا يخـوض

1() انظر القصة بطولها في: تفسير الطبري: 2/ 851، وتاريخ الطبري: 1/ 337.. تفسير البغوي (1/ـ 337) السراج المنير في الإعانة على معرفـة بعض معـاني كلام ربنـا الحكيم الخبير (1/ 164)، وغيرها.

بهما الماء، فلما رآه النبيّ ﷺ قال: هذا هو لا شك فيه هذا يرحم البهائم فهو بالناس أرحم، فدعاه ووضع القرن على رأسه ففاض، فقال له طالوت: هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك ابنتي وأجري خاتمك في ملكي؟ قال: نعم.قال: وهل أنست من نفسك شيئا تقوى به على قتله؟ قال: نعم، أنا أرعى فيجيء الأسد والنمر والذئب فيأخذ شاة وأقوم له وأفتح لحييه عنها وأخرقهما إلى قفاه. فردّه إلى عسكره، فمرّ داود بحجر فناده: يا داود احملني فإنّي حجر هارون الذي قتل بي ملك كذا، فحمله في مخلاته. ثم مرّ بحجر آخر فناده: يا داود احملني فإنّي حجر موسى الذي قتل بي ملك كذا، فحمله في مخلاته. فمرّ بحجر آخر فقال: احملني فإنّي حجرك الذي تقتل بي جالوت، وقد خبأني الله لك، فوضعها في مخلاته. فلما تصافوا القتال وبرز جالوت وسأل المبارزة، انتدب له داود فأعطاه طالوت فرسا ودرعا وسلاحا، فلبس السلاح وركب الفرس، فسار قريبا ثم انصرف فرجع إلى الملك، فقال من حوله: جبن الغلام فجاء فوقف على الملك، فقال: ما شأنك؟ فقال: إنّ الله إن لم ينصرني لا يغني عني السلاح شيئا فدعني أقاتل كما أريد.قال: نعم، فأخذ داود مخلاته فتقلّدها وأخذ المقلاع ومضى نحو جالوت، وكان جالوت من أشدّ الناس وأقواهم وكان يهزم الجيوش وحده وكان له بيضة فيها ثلاث مائة من حديد، فلما نظر إلى داود ألقى في قلبه فقال له: أنت تبرز لي؟ قال: نعم. وكان جالوت على فرس أبلق عليه السلاح التام. قال: فأتيتني بالمقلاع والحجر كما تؤتى الكلاب؟ قال: نعم، لأنت شرّ من الكلب. قال: لا جرم لأقسّمنّ لحمك بين سباع الأرض وطير السماء. قال داود: أو يقسم الله لحمك. ثم قال داود: باسم إله إبراهيم وأخرج حجرا، ثم أخرج الآخر وقال: باسم إله إسحاق ووضعه في مقلاعه، ثم أخرج الثالث وقال: باسم إله يعقوب ووضعه في مقلاعه فصار كلّها حجرا واحدا، ودوّر المقلاع ورماه به فسخّر الله الريح حتّى أصاب الحجر أنف البيضة فخالط دماغه فخرج من قفاه وقتل من وراءه ثلاثين رجلا، وهزم الله سبحانه الجيش وخرّ جالوت قتيلا فأخذه فجرّه حتّى ألقاه بين يدي طالوت)

هذا هو الشطر الأول من القصة، وهو بالإضافة إلى الغرائب والعجائب التي قد نغض الطرف عنها، يجعل هدف داود ﷺ من جهاده في سبل الله هو الحصول على تلك الهدية التي وعده بها طالوت، كما ذكر في الرواية: (هل لك أن تقتل جالوت وأزوجك ابنتي وأجري خاتمك في ملكي)

وبهذا وحده ينهار كل ذلك البنيان الذي بناه القرآن الكريم

من تلك القصة العظيمة التي تهدف إلى بيان شروط نصر اللـه لعباده من الإخلاص والتجرد والصدق.

لكن الروايـة لا تكتفي بـذلك الهـدم للمعـنى القـرآني، بـل تضيف إليه هدم طالوت نفسه الذي يمثل اصطفاء اللـه.. وكـأن اللـه خـدع بـني إسـرائيل حين اصـطفى لهم شخصـا لا يصـلح لحكمهم، وكأن بني إسـرائيل كـانوا أعلم من اللـه حين رفضـوا ذلك الاختيار الإلهي.

فقد جاء في الروايـة: (.. ففـرح المسـلمون فرحـا شـديدا وانصرفوا إلى المدينـة سـالمين غـانمين والنـاس يـذكرون داود فجاء داود طالوت، وقال: أنجز لي ما وعدتني وأعطني امرأتي، فقال له: أتريد ابنة الملك بغير صـداق. قـال داود: مـا شـرطت عليّ صداقا وليس لي شيء. قال: لا أكلّفـك إلّا مـا تطيـق، أنت رجل حربي وفي جبالنا أعداء لنا غلـف، فـإذا قتلت منهم مـائتي رجل وجئتـني بغلفهم زوّجتـك ابنـتي، فأتـاهم فجعـل كلّمـا قتـل منهم رجلا نظم غلفته في خيطه حتّى نظم غلفهم فجاء بها إلى طالوت فألقى إليه وقال: ادفع إلى امرأتي، فزوّجه ابنته وأجرى خاتمه في ملكه)

وهكـذا تحـول داود ﷺ من مجاهـد في سـبيل اللـه ــ في الرؤية السلفية ـ إلى مجاهد في سبيل ابنة طالوت.

ولا تكتفي الروايــة بهــذا، بــل تضــيف إلى ذلــك شــناعات أخـرى، لا تقـل عن السـابقة، فتقـول: (فمـال النـاس إلى داود وأحبّوه وأكثروا ذكـره، فوجـد طـالوت من ذلـك وحسـده فـأراد قتلـه، فـأخبر بـذلك بنت طـالوت رجـل يقـال لـه ذو المغنـيين، فقالت لداود: إنّـك لمقتـول الليلـة. قـال: ومن يقتلـني؟ قـالت: أبي. قال: وهل جزمت جزمـا؟ قـالت: حـدّثني من لا يكـذب ولا عليك لن تفوت الليلة حتّى تنظر مصداق ذلك. فقـال: لئن كـان أراد ذلك ما أستطيع خروجا ولكن ائتيني بـزق من خمـر، فأتتـه، فوضعه في مضجعه على السرير. وسجّاه ودخـل تحت السـرير فدخل طالوت نصـف الليـل وأراد أن يقتـل داود فقـال لهـا: أين بعلك؟ فقالت: هـو نـائم على السـرير، فضـربه ضـربة بالسـيف فسال الخمر، فلما وجد ريح الشراب قـال: يـرحم اللـه داود مـا أكثر شربه الخمـر وخـرج، فلمـا أصـبح علم أنّـه لم يفعـل شـيئا فقال: إن رجلا طلبت منـه مـا طلبت لخليـق أن لا يـدعني حتّى يدرك منّي ثأره، فشدّد حجّابه وحرّاسه وأغلـق دونـه أبوابـه. ثم إن داود أتاه ليلة وقد هدأت العيون وأعمى اللـه تعـالى الحجبـة وفتح له الأبواب فدخل عليه وهو نائم على فراشه فوضع سـهما عنـد رأسـه وسـهما عنـد رجليـه وسـهما عن يمينـه وسـهما عن شماله ثم خرج. فلما اسـتيقظ طـالوت أبصـر بالسـهام فعرفهـا

فقال: يرحم الله داود فهو خير منّي، ظفرت بـه فقصـدت قتلـه وظفر بي فكفّ عنّي، ولـو شـاء لوضـع هـذا السـهم في حلقي. وما أنا بالذي آمنه. فلما كـانت المقابلـة أتـاه ثانيـا فـأعمى اللـه الحجّاب فدخل عليه وهو نائم وأخـذ إبريـق طـالوت الـذي كـان يتوضأ منه وكـوزه الـذي كـان يشـرب منـه وقطـع شـعرات من لحيته وشيئا من هدب ثيابه ثم خرج وهرب وتوارى. فلمـا أصـبح طالوت ورأى ذلك، سلّط على داود العيون وطلبـه أشـدّ الطلب فلم يقدر عليه، ثم إن طالوت ركب يوما فوجد داود يمشـي في البريّة، فقـال طـالوت: اليـوم أقتـل داود أنـا راكب وهـو مـاش، وكان داود إذا فزع لم يدرك فركض طـالوت على أثـره، فاشـتدّ داود فدخل غارا فأوحى الله تعالى إلى العنكبوت فنسجت عليـه بيتـا. فلمـا انتهى طـالوت إلى الغـار ونظـر إلى بنـاء العنكبـوت، قال: لو كان دخل هاهنـا لخـرق بنـاء العنكبـوت فتركـه ومضـى، وانطلــق داود وأتى الجبــل مـع المتعبّـدين فتعبّـد فيـه. وطعن العلمـاء والعبّـاد في طـالوت في شـأن داود، فجعـل طـالوت لا ينهاه أحد عن قتل داود إلّا قتله وأغـرى بقتـل العلمـاء، فلم يكن يقدر على عالم في بني إسرائيل فيطيق قتله إلّا قتلــه ولم يكن يحارب جيشا إلّا هزم)(1)

إلى آخر القصة الطويلة، والتي استطاع اليهـود من خلالهـا أن يدركوا ثأرهم من طالوت، وأن يبينوا صواب موقفهم مقارنة بما اختاره لهم الله تعالى.. وللأسف فإن العقول السلفية تقبــل هذا الغثاء جميعا، ولم تفكـر لحظـة واحـدة في أن تعرضـه على القرآن الكريم.. لأن عقـول السـلف عنـدهم أهم من عقـولهم.. وكلام السلف عندهم أهم من كلام ربهم.

1() جامع البيان: 2/ـ 851، وتاريخ الطبري: 1/ـ 337.. تفسير البغوي - إحياء الـتراث (1/ 337) السراج المنير في الإعانـة على معرفـة بعض معـاني كلام ربنـا الحكيم الخبـير (1/ 164)

هذا الكتاب

يتناول هـذا الكتـاب ــ من خلال الأدلـة والوثـائق الكثـيرة ـ التصورات التي تحملهـا المدرسـة السـلفية عن النبـوة والأنبيـاء عليهم الصـلاة والسـلام، وهي تصـورات مسـتمدة من الـتراث الإسرائيلي الـذي فسـر بـه القـرآن الكـريم، وكتب بـه التـاريخ، ووضعت على أساسه العقائد.

ولذلك، فقد كان لتصـورات اليهـود لأنبيـائهم، ومـا ذكـروه عنهم من انحرافات عقدية وأخلاقية تأثيره الكبير في المدرسـة السلفية التي أجاز أئمتها الكبار الروايـة عن بـني إسـرائيل، بـل أجازوا الرجوع لكتب بني إسرائيل نفسها.

ولهذا نرى تصورات السلفية للنبوة تختلف عن التصـورات التي ذكرها القرآن الكريم، والتي دل عليهـا العقـل، ودل عليهـا معه الذوق السليم، والفطرة الطاهرة.

وهــذا الكتــاب يحــاول بالبينــات الواضــحات، ومن خلال المصادر المعتمدة لدى المدرسـة السـلفية تبـيين تلـك الصـورة المشوهة التي يحملونها عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.